

موسوعه

# الغزوات الكبرى

إعداد  
محمد بن أحمد باشميل  
رحمة الله تعالى

المجلد الثاني

دار الفضة  
الشرقية

دار الهدى النبوي  
مصر



مِن مَّعَارِكِ الْإِسْلَامِ الْفَاصِلَةِ

(٨)

فَتْحُ مَكَّةَ



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### تقديم الكتاب

بقلم: أحمد محمد جمال

أستاذ الثقافة الإسلامية بجامعة الملك عبد العزيز

الأستاذ محمد أحمد باشميل: يُعْطى، ويُشكر وينبغي أن يدعى له بمزيد من التوفيق،  
وجزيل من الثواب.

وذلك أنه ثابر على إصدار كتبه القيمة: (سلسلة معارك الإسلام الفاصلة) في فترة  
من الزمن - الثلث الثاني من القرن الرابع عشر الهجري - يخوض المسلمون خلالها  
معركة حياة أو موت مع أعدائهم الألداء، من المستعمرين الصليبيين، واليهود الغاصيين،  
والشيوعيين الملحدين، تكأكأوا عليهم، وانفقوا - رغم اختلافهم فيما بينهم سياسة  
واعتماداً - على حرب الإسلام، وإذلال المسلمين، واستغلال خيراتهم، ونهب ثرواتهم،  
واحتلال أرضهم وديارهم، وإفساد عقائدهم وأخلاقهم.

أجل، إن المسلمين اليوم - ومنذ ثلاثين عاماً تقريباً - يخوضون معركة فاصلة مع  
أعدائهم الحاسدين الحاقدين، كالتى كان أسلافهم وأجدادهم - بقيادة الرسول ﷺ  
وصحابته الأبطال - يخوضونها مع أجداد الصليبيين واليهود، والمشركين والملحدين  
الغابرين.

فإذا جاء الصديق الأستاذ باشميل ليُصدر هذه السلسلة التاريخية لمعارك الإسلام  
الفاصلة الأولى، في هذه الفترة العصيبة الرهيبة من حياة المسلمين - فإنما يقدمه لقادتهم  
وعامتهم معاً: دروساً مصورة متحركة في فنون القتال والدفاع عن الأنفس والأموال  
والديار، ويعرض نماذج مشرفة وضاءة للقيادة الصالحة الناجحة، في معركة الحق مع  
الباطل، واقتتال الخير مع الشر، واعتراك النور مع الظلام.

كيف؟ وبم انتصر أسلاف المسلمين - بقيادة الرسول ﷺ وصحابته الأبطال -  
على أعدائهم الأول؟ وما هي الوسائل النفسية والمادية التي ضمنت لهم النصر المتتابع في  
كل معاركهم وغزواتهم وبعوثهم وسراياهم، حتى مكن الله لهم دينهم الذي ارتضى لهم،  
وبدلهم بخوفهم أمناً، وبضعفهم قوة، وبهوانهم عزاً، وبترققهم وحدة كاملة شاملة؟



هذا ما تجيب عليه ، وتصوره تصويراً ناطقاً متحرّكاً سلسلة كتب الأستاذ باشميل عن معارك الإسلام الفاصلة: غزوة بدر - وغزوة أحد - وغزوة الأحزاب - وغزوة بني قريظة - وصلاح الحديبية - وغزوة خيبر - وغزوة مؤتة - وفتح مكة، الذي نكتب له هذا التقديم الوجيز.

وهو - أي الحديث عن هذه المعارك الفاصلة في تاريخ الإسلام - : الدروس العملية التطبيقية، والنماذج الرائعة الصادقة لقادة المسلمين وعامتهم، وخاصة جيوشهم المقاتلة، في معركتهم الحاضرة مع أعداء اليوم: من صليبيين وصهيونيين وشيوعيين. وباختصار : لن ينتصر المسلمون اليوم على أعدائهم، إلا بما انتصر أسلافهم به من قبل: بالإيمان، والأخلاق، والإعداد.

\*\*\*

أما موضوع هذا الكتاب: (فتح مكة) فأمره عَجَب، وحديثه طَرَب؛ لأنه كان نصرًا بغير حرب، وكان ثمرة يانعة لحكمة القائد الأعظم - ﷺ - وبعد نظره، وحسن قيادته، ومكارم أخلاقه.

وسمّاه القرآن الكريم (فتحًا مبيّنًا) قبل أن يكون، وبشر به قبل عام من حدوثه، في وقت كان المسلمون فيه بوضع يخيّل للدارس المتعجّل أنه وضع مشين مهين، حين قصد المسلمون - وعلى رأسهم الرسول العظيم - إلى مكة المكرمة لأداء العمرة، فصدّهم المشركون عن المسجد الحرام، وأبوا أن يأذنوا لهم بدخول مكة للاعتمار، وانتهى الأمر إلى ما عرف بعد ذلك (بصلاح الحديبية) وهو موضوع الكتاب السابق من سلسلة هذه المعارك الفاصلة في تاريخ الإسلام، ولا بد من اطلاع القارئ عليه قبل قراءة هذا الكتاب؛ لأن أحداث صلح الحديبية هي مقدمات هذا الفتح المبين، بل هو الفتح المبين على الحقيقة.

إن صلح الحديبية كان في وضعه الظاهر هوأنا للمسلمين في نظر صحابة الرسول ﷺ لأن الرسول ببعد نظره، وصدق تفكيره، وحبّه لحقن الدماء، وحرصه على صلة الرحم وبرّ ذوي القربى في الفريق المعاكس المشاكس من مشركي مكة - قبل مطالب قريش وشروطها: وهي العودة إلى المدينة دون أن يدخل مكة - على أن يرجع في العام القابل للاعتمار - وأن يرد إلى المشركين من يأتيه مسلمًا منهم، ولا يعيدون إليه من يأتيهم

مرتداً من المسلمين، وقد رد ﷺ، وهو في مكانه من الحديبية لم يرحها بعد إلى المدينة - أبا جندل (ابن سهيل بن عمرو) زعيم وفد قريش إلى مفاوضات صلح الحديبية، رده إلى أبيه، - وفاءً بالعهد وقد جاءه مسلماً - يرسف في قيوده، فلطمه أبوه على أعين صحابة الرسول، وهم يتميزون غيظاً؛ لأنهم لم يستطيعوا له نصراً.

ومن هنا - من قسوة شروط قريش في صلح الحديبية - اعترض الصحابة على موافقة الرسول وتوقيع على وثيقة هذا الصلح الذي بدا أنه هوان لهم، حتى قال عمر ابن الخطاب رضي الله عنه: «علام نرضى الدنية في ديننا يا رسول الله؟» وحتى لم يستجب الصحابة لأمر الرسول بالتحلل من العمرة بالتقصير أو الحلق، فدخل على أم سلمة رضي الله عنها مغموماً مهموماً، يشكو إليها موقف الصحابة منه، فأشارت عليه أن يخرج ويدعو حالقه ليحلقه بين أعينهم، وقد فعل، فاستجاب الصحابة نادمين.

\*\*\*

وإنما قلنا: إن صلح الحديبية كان هو الفتح المبين؛ لأنه كان: مقدمة له - لأن هذا الصلح المبارك كانت له ثمراته اليوانع، وكانت له نتائج الباهرات، التي نلخصها في السطور التالية:

كان عقد قريش للصلح بينها وبين الرسول عليه الصلاة والسلام - على نحو ما أسلفنا - اعترافاً صريحاً بالكيان السياسي لمحمد وأصحابه.

خلال إقامة الرسول والمسلمين معه في الحديبية تعرّف وسطاء قريش وحلفاؤها الذين كانت تبعث بهم لمقاومة الرسول ﷺ - تعرّفوا على حقيقة الدعوة الإسلامية ممثلة في أخلاق الرسول وأصحابه وسلوكهم، خلافاً لما كانت تديعه قريش عنهم من أكاذيب وأباطيل.

أنكر بعض هؤلاء الموفدين إلى الرسول من حلفاء قريش موقفها المتعصب من المسلمين، وياصرارها على ردهم عن الاعتمار والطواف بالبيت الحرام، حتى أنذرهم سيد ثقيف (عروة بن مسعود) الهزيمة إن هم حاربوه، وقال: «ما أراكم إلا ستصيبكم قارعة يا معشر قريش!»

كما أتاحت الفرصة - بعقد هذا الصلح - للمشركين والمسلمين معاً بالاختلاط الذي تكشف للمشركين فيه وضع المسلمين وسلوكهم القويم، وأخلاقهم الرفيعة، وأمر ذلك اعتناق كثير منهم للإسلام، حتى بلغ عدد المسلمين يوم فتح مكة نحو عشرة آلاف، بعد أن كان يوم صلح الحديبية لا يزيد على ألفين.

ثم جاء نقض قريش للعهد بقتالها مع حلفائها بني بكر لحلفاء الرسول ﷺ : بني خزاعة، فرصة لتخلي المسلمين عن العهد نفسه، وإعداد العدة للقيام بفتح مكة، والعودة إلى أحب أرض الله إلى الله، وإلى الرسول الكريم، وإلى المسلمين أجمعين.

وكان نقض قريش لصلح الحديبية خيراً من خيرات (الفتح المين) الذي بشر به القرآن رسول الله ﷺ ، فقد سألت عائشة الرسول: أترى قريشاً تجترئ على نقض العهد بينكم وبينهم؟ قال: ينتقضون العهد لأمر يريده الله تعالى بهم، قالت عائشة: خير أو شر؟ قال: خير.

ويكون هذا (الخير) استجابة لدعوة الرسول ﷺ : «اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون» قالها أيام كانوا يؤذونه في مكة أذى شديداً، حتى سأله جبريل - بأمر الله - أن يطبق عليهم جبال مكة انتقاماً له، وخلصاً منهم، فكانت تلك دعوته، وكانت أمنيته: «أن يخرج الله من أصلابهم من يؤمن بالله، لا يشرك به شيئاً» .

وصدق الله العظيم فيما خاطبهم به : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

\*\*\*

ولن نطيل الحديث عن فتح مكة - في السنة الثامنة من الهجرة وفي رمضان المبارك - ولكننا نكتفي بذكر الآيات القرآنية التي تشير إليه من سورة (الفتح) وسورة (النصر) ففيها ما يغني عن الموعظة والذكرى والاعتبار، لأولي الأبصار: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ .

هذه هي البشرية التي أنزلت في صلح الحديبية، وقد أنجز الله وعده بالنصر العزيز يوم فتح مكة في السنة التالية، على نحو ما أسلفنا.

﴿ هُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَأَهْدَىٰ مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُمْ ۗ وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنِينَ وَنِسَاءُ مُؤْمِنَاتٍ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّعُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝﴾

في هذه الآية الكريمة بين الله عز وجل الحكمة في إرجاء (الفتح) إلى العام القابل، وأن صلح الحديبية وقع صواباً ليمهد للفتح القريب، ففي مكة رجال مؤمنون ونساء مؤمنات يكتمون إيمانهم، ولو أن المسلمين دخلوا مكة عنوة، ونشب القتال بينهم وبين المشركين، لوطأوا المؤمنين مع المشركين، ولأصابتهم منهم معرة.

﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ۖ مُحَلِّقِينَ زُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ۝﴾

ودخل الرسول ﷺ المسجد الحرام والمؤمنون معه، من مهاجرين وأنصار، تصديقاً للرؤيا، وتحقيقاً لبشرى «الفتح المبين»، وتمكيناً لدين الله الخالد الراشد، وكما منحهم الله الأمان منحوا هم أهل مكة الأمان: «من دخل المسجد الحرام فهو آمن - ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن - ومن دخل بيته وأغلق بابه فهو آمن»، ومع هذا الأمان لكل خص الرسول الرؤوف الرحيم أعداءه الألداء بالعمو والغفران؛ قال لهم: «ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم - قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء».



وبقى أن يحمّد الرسول ﷺ ربه الذي حقّق له هذا الفتح المبين، والنصر العزيز، دون إراقة دماء العشيرة والأقرباء، بل مع تأليف القلوب ودخولهم في الإسلام - فنزلت سورة (النصر):

\* ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾ .

ونحن أيضًا - مسلمة اليوم - ينبغي أن نسبح بحمد الله كثيرًا، ونستغفره طويلاً.. عسى أن يهبنا فتحًا مبينًا على عدونا المبين.

بيروت - في ٢٠/٧/١٣٩٢هـ

أحمد محمد جمال

بسم الله الرحمن الرحيم

### كلمة المؤلف

نحمدك اللهم، ونستعينك ونستهديك، ونسألك - ولا مسؤول ولا مرجو سواك - أن تسد خطانا وتجعلنا ممن يخلصون لك في القول والعمل، وأن تعمر قلوبنا بعزة وشمم لا صلف ولا كبرياء فيهما.

ونسألك اللهم، أن تمنحنا الحماية من أن يستذلنا الجهلة، وأن لا تجعلنا للمضلين عضداً، واجعلنا اللهم من المهتدين بهديك والهادين إلى سبيلك.

وصل اللهم على صفوة خلقك حبيبك ونبيك محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين وأصحابه الغر الميامين.

وبعد أيها القارئ الكريم، فهذا هو كتابنا الثامن من سلسلتنا التاريخية (معارك الإسلام الفاصلة) وهو (فتح مكة)، بذلنا في تأليفه جهداً، الله وحده يعلم مدها، ونأمل أن يكون هذا الكتاب محل رضا القارئ الكريم.

فما جهودنا في هذه السلسلة التاريخية إلا (بعد قصد وجه الله تعالى) كي نبسط للقارئ ونعرض عليه الكنوز الثمينة الغالية من تاريخنا الإسلامي الطافح بالروائع من سير نبينا محمد ﷺ وصحبه الكرام، مما يحفز القارئ المنصف المتبصر المهتدي على الاقتداء بأولئك الصفوة الذين صنعوا لنا هذا التاريخ المشرق الوضاء الذي طغت - ولا تزال مع الأسف - تغطي عليه وتغويه وتطمس معالمه تزاوين وأصباغ (ديكورات) المبادئ القبيحة التنتة المستوردة مما وراء الحدود، والتي: الارتقاء في أحضانها على حساب إهمال الإسلام كان ولا يزال السبب الرئيسي فيما أصابنا طوال عشرين عاماً ولا يزال يصيبنا من خزايا وويلات وفضائح، ووحل ولا يزال يحل بنا من مصائب وكوارث، لا خلاص لنا منها ولا نجاة إلا بالعودة إلى الإسلام حاكماً ومشرعاً وقاضياً.

١- إن هذا الكتاب (فتح مكة) يتضمن أرقى الدروس وأعظم العبر التي يمكن للعاقل المنصف الحصيف - حاكماً كان أو محكوماً - أن يستخلصها ويعيها من تصرفات الرسول الأعظم ﷺ وتصرفات صحبه الكرام، سواء في العدل والإنصاف وشرف المعاملة، أو الوفاء بالعهد والوقوف عند شرف الكلمة، ثم العفو عند المقدرة وتوفر القوة الساحقة الكاملة المؤهلة، كي يبلغ خصم من خصمه ما يريد (لو أراد) من تنكيل وتعذيب وإبادة.

عشرة آلاف مقاتل من المسلمين تسيطر على مكة، معقل أعظم وألد أعداء النبي ﷺ، ويلقى أهلها السلاح مقهورين، فيشملهم جميعاً عفو الرسول القائد المنتصر، وهم الذين ائتمروا به وهدروا دمه وطاردوه تحت كل سماء، ولم يتركوا موطناً، كانوا يظنون أنهم قادرون على القضاء عليه فيه ﷺ إلا وقاتلوه فيه، ومع ذلك فلم يجد شيء مما يصل إلى رؤوس القادة العاديين من نشوة الانتصار التي تجعل صاحبها يولغ في الدماء انتقاماً لنفسه ممن نكلوا به وأذلوا أصحابه يوم ضعفهم لم يجد شيء من تلك النشوة يوم الفتح الأعظم سبيلاً إلى رأس النبي القائد المنتصر ﷺ، بل كانت الشفقة والرحمة والصفح والعفو والتسامح الطابع الوحيد لتصرف الرسول القائد المنتصر، في ذلك اليوم التاريخي.

ماذا تظنون أني فاعل بكم يا معشر قريش؟

قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم.

قال: اذهبوا، فأنتم الطلقاء.

تلك الكلمات النبوية توج بها الرسول القائد انتصاره على أهل مكة حين ضمنها العفو العام عنهم وهو عند باب الكعبة، في الوقت الذي كانت فيه قلوب سادات مكة تركض بين جنوبهم خوفاً من أن ينتقم منهم لنفسه فيبعث بهم إلى القبور.

ولكنها أخلاق النبوة اصطنعت بلبس العفو، والصفح والتسامح أولئك القادة والسادة من الأعداء في مكة فتحولوا طائعين مختارين إلى عمالقة تفتانوا في خدمة الإسلام، فكانوا من حماه وكبار بناء دولته، كانوا من صانعي الانتصارات الحاسمة التي مكنت للإسلام في الشام والعراق وفارس ومصر وأفريقيا، مثل صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح، الأول قاد كتيبة الفدائيين في معركة اليرموك، فدفع حياته مع أربعمائة من الفدائيين (الكوماندوز) ثمناً لإيقاف زخم الهجوم الروماني الذي كاد يسحق جيش الإسلام الصغير.

والثاني قاد الأسطول الإسلامي إلى أعظم انتصار مجري يشهده البحر الأبيض المتوسط حتى اليوم وذلك في معركة الصواري الشهيرة، وكلا الرجلين كانا قد حكم عليهما بالإعدام قبل فتح مكة، فعفى عنهما الرسول ﷺ واصطفاهما قادة حرب رميا بأنفسهما في أتون المعارك لنصرة الإسلام، وأمثالهما كثير من الطلقاء الذين حقن النبي ﷺ دماءهم بعد أن استحقوا الإعدام يوم الفتح.

٢- لقد عقد النبي ﷺ في بطاح الحديبية مع قريش صلحاً تاريخياً في السنة السادسة من الهجرة، وما كان ﷺ فكر في التنكر لبند من بنود هذا الصلح الذي وضع الحرب بين قريش وكنانة من جهة، وبين الرسول ﷺ وخزاعة من جهة أخرى لمدة عشر سنوات، يعيش المسلمون والمشركون فيها بعضهم لبعض سلماً بمعنى كلمة سلم.

ولقد التزم الرسول ﷺ بكل دقة متناهية بنود هذا الصلح فطبقه نصاً وروحاً، فبرهن (عملياً) على أصالة الأخلاق الإسلامية في الالتزام بمبدأ الوفاء تجلّى تمسكه بهذه الأخلاق الكريمة في تسليم شابين مسلمين إلى أهلها المشركين وحبر وثيقة الصلح لم يجف بعد، فعل ذلك رغم الغم القاتل الذي نزل بعامة أصحابه لهذا التصرف الذي يحمل في ظاهره طابع الدنية على المسلمين كما صرح بذلك أحد كبار وزراء الرسول ﷺ عمر بن الخطاب<sup>(١)</sup>.

٣- ولكن النبي ﷺ وأصحابه إذا كانوا قد وقفوا عند شرف الكلمة التي أعطوها في صلح الحديبية وطبقوها نصاً وروحاً، واشتملت نفوسهم الطاهرة الصافية النقية على الوفاء بالعهد الذي أعطوه، فهل التزمت قريش وحلفاؤها من كنانة نفس الالتزام الذي التزمه الرسول ﷺ وصحبه وحلفاؤه من خزاعة، ووقفوا عند شرف الكلمة التي أعطوها في وثيقة صلح الحديبية التاريخي؟

(١) انظر تفاصيل قصة تسليم الرسول ﷺ أبا جندل بن سهيل بن عمرو في بطاح الحديبية، إلى أبيه المشرك في كتابنا (صلح الحديبية) وقصة تسليمه ﷺ أبا بصير للمشركين فيما مضى من هذا الكتاب وقصة منعه إيواء سبعين شاباً من شباب قريش المسلم في المدينة حينما فكروا في اللجوء إليها بعد أن أفلتوا من سجون الإرهاب في مكة، وذلك تطبيقاً لالتزامه ﷺ بنود صلح الحديبية التي وقع وثيقته التاريخية.



فالنبي وأصحابه وحلفاؤه من خزاعة، إذا كانوا قد اعتبروا صلح الحديبية وثيقة شرف يتعايش الفريقان بموجبها عشر سنوات يأمن فيها الناس بعضهم بعضاً، فإن المشركين من قريش وحلفائهم من كنانة، قد نظروا إلى ذلك الصلح التاريخي من زاوية غدر مظلمة، فاعتبروا الصلح فرصة ذهبية لا تفوت للغدر بخزاعة الشجاعة الباسلة؛ لينالوا منها من ثاراتهم الجاهلية بالغدر والخيانة في حالة أمن وأمان وصلح وموادعة، ما عجزوا عن نيله في حالة اللقاء والاستعداد والمواجهة واليقظة.

فقد أقدمت كنانة بمساندة حلفائها القريشيين على جريمة من أبشع جرائم الغدر والنكث والخيانة، ففتكت بأكثر من خمسة وعشرين من خزاعة، قتلهم داخل حدود الحرم في ظل صلح الحديبية وقبل أن تمضي على توقيعه ثلاثون شهراً، قتلوهم، وهم عزل من السلاح في حالة تهجد وتبئل ركعا سجداً آمنين مستأمنين، وطاردوهم حتى داخل مكة (الحرم الآمن) فقتلوهم عند باب المسجد كأفطع وأقدر ما يكون قتل الآمن المستأمن في ظل صلح وعهد وأمان.

٤- هكذا نقضت قريش وحلفاؤها من كنانة الصلح، فكان ذلك بمثابة نسف من القواعد كامل لبند صلح الحديبية، الذي طلبت قريش نفسها عقده. وعندما تبلغ النبي ﷺ نبأ ذلك العمل الإجرامي المتمثل في الغدر بحلفائه الذين (بموجب الصلح) له ما لهم وعليه ما عليهم، لم يتعجل في الزحف على مكة للانتصار لحلفائه المعتدى عليهم كما يلزمه بذلك ميثاق الحديبية، بل (كرهاً منه لسفك الدماء، ورغبة منه في حقنها حتى وإن كانت دماء أعدائه الذين حاولوا بكل الوسائل سفك دمه ودماء أصحابه) فإنه - قبل أن ينبذ إلى قريش على سواء، تقدم إلى قريش باقتراح يجنب الفريقين ويلات الحرب. اقتراح في منتهى التسامح والتعبير الصادق المخلص عن الرغبة في الابتعاد عن إراقة الدماء هذا الاقتراح الذي بعث به إلى قريش (قبل الزحف على مكة) مبعوثاً خاصاً، يتضمن تخيير قريش المسئول الرئيسي عن تنفيذ بند صلح الحديبية، بين أمور ثلاثة.

١- إما أن يدوا (أي يدفع القرشيون وحلفاؤهم من كنانة) ديات القتلى من حلفاء الرسول ﷺ - خزاعة - وبهذا يستمر مفعول صلح الحديبية، وتستمر فعالية السلم والموادعة بين الفريقين عشر سنوات، فتحقق بذلك الدماء من الفريقين.

٢- وإما أن تتبرأ قريش من الغادرين الرئيسيين (كنانة) ليصفى الرسول ﷺ معهم وحدهم الحساب، وينزل بهم العقاب العادل الذي استحقوه على بشاعة جريمة الغدر التي ارتكبوها في حق حلفائه.

٣- وإما أن ينبذ إليهم إلى قريش على سواء فيحتكم وإياهم إلى السيف، بصفتهم المسؤول الرئيسي عن تنفيذ معاهدة الصلح الذي نقضته بكر برضى ومخالفة بعض سادات مكة.

٥- غير أن قريشاً رفضت قبول العرضين العادلين الإيجابيين الأولين واختارت العرض الثالث صلحاً وكبرياء ورياء الناس، وهو الحرب فتحدث الرسول ﷺ وأبلغته أنها ترحب بالحرب وتفضلها على أن تدفع ديات قتلى حلفائه، أو تتبرأ من حلف قاتليهم البكرين (كما هو مفصل في هذا الكتاب).

وهنا كان لابد للرسول ﷺ من أن يفى بالتزاماته لحلفائه الخزاعيين المغدور بهم، وذلك حسب العهد الذي أعطاه لهم في وثيقة صلح الحديبية التاريخي<sup>(١)</sup>.

٦- لذلك - وبعد أن أصبح صلح الحديبية لاغياً بفعل تصرفات قريش وحلفائها - قرر النبي ﷺ الزحف على المشركين في مكة؛ لأنه اعتبر نفسه (لنقضهم الصلح) في حالة حرب معهم كما كان قبل عقد ذلك الصلح، ولابد من أن ينبذ إليهم على سواء فيبدأ الحرب قبل أن يبدءوه؛ لأن الخيانة التي ارتكبوها بنقض الصلح وتأييدهم حلفاءهم البكرين المعتدين، إنما هو دونما شك، مقدمة لشن حرب على المسلمين، الذين ما كانت قريش ومن بقى على الوثنية يرون لوجودهم معنى ما بقى لهؤلاء المسلمين وجود أو سلطان، ثم إن قريشاً نفسها قد أعلنت الحرب على النبي ﷺ قبل أن يعلنها هو.

حيث أبلغت مندوبه (ضمرة) أنها تفضل أن تنبذ إليه على سواء، على أن تدفع ديات قتلى خزاعة الذين غدر بهم البكريون، أو تتخلى عن هؤلاء البكرين وتبرأ من حلفهم، إنها إذن الخيانة المبيتة من قريش، قد انطوت عليها للمسلمين.

(١) انظر حديثنا الموسع عن هذه الوثيقة في كتابنا الخامس من هذه السلسلة (صلح الحديبية).

والله سبحانه وتعالى قد منح رسوله ﷺ الصلاحيات الكاملة، بل الأمر الصريح في ضرب أي عنصر تشم منه رائحة الخيانة، فضلاً عن أن يتجاهر بها ويتبجح. فقال تعالى:

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَأَنْزِلْ عَلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ ﴾<sup>(١)</sup>.

﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ ﴿ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾<sup>(٢)</sup>.

وهكذا وبناء على هذه المبررات، بل الموجبات الملحة، تحرك الرسول ﷺ من المدينة في جيشه العظيم الذي بلغ عشرة آلاف مقاتل لتأديب الخائنين الناكثين فداهم مكة على حين غفلة من أهلها المشركين الذين طمس الله عنهم أبناء الغزو الشامل حتى وصلت طلائع الجيش النبوي ضواحي مكة، فأسقط في أيدي زعمائها الذين رأوا ثمرة الخيانة والغدر سيوفاً إسلامية تلمع وتحيط بهم من كل جانب، فلم يسعهم إلا تسليم مكة للجيش النبوي دونما أية مقاومة تذكر، وقد كان فتح مكة - عكس ما يتصور زعمائها - خيراً وبركة عليهم، كما صرح بذلك الرسول الرحيم البر الرءوف في المدينة قبل أن يتحرك منها بالجيش، وذلك عندما سأله زوجته عائشة عندما أكد لها نبأ اعتزاه غزو قريش في مكة - «أذلك خير أريد بهم أم شر؟» فقال ﷺ «بل خير».

فقد دخل أهل مكة (بعد فتحها) في الإسلام، بين فرح مغتبط وكاره سعد واطمأن فيما بعد، وأخذت (بعد فتح مكة) معالم الوثنية تمحي بسرعة مذهلة حتى إنه لم تمض سنة واحدة على فتحها حتى دخل كل أهل الجزيرة في الإسلام، فقد كان فتحها في السنة الثامنة للهجرة، واحتوى الإسلام كل الجزيرة دونما استثناء في السنة التاسعة، وهي المسماة بعام الوفود لتوافد العرب على المدينة اختياراً ليدخلوا في دين الله، فأنزل الله تعالى في ذلك: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۖ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُ ۗ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾<sup>(٣)</sup>.

فكان فتح مكة الفتح الأعظم بكل معاني الكلمة، والحمد لله أولاً وآخراً وهو حسبنا ونعم الوكيل.

محمد أحمد باشميل

جدة - المملكة العربية السعودية ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م

(١) الأنفال ٥٨.

(٢) الأنفال ٧١.

(٣) سورة النصر.

## الفصل الأول

### مجمّل الأحداث العسكرية والسياسية والتشريعية

#### بين غزوة مؤتة، وفتح مكة

- الحركات العسكرية بعد غزوة مؤتة وقبل فتح مكة.
- ثورة العيص ضد مشركي مكة.
- شباب قريش المسلم مفجر الثورة ضد أهله المشركين.
- أبو بصير قائد ثورة العيص
- حياذ المدينة حياض ثورة العيص بسبب صلح الحديبية.
- النبي ﷺ يأبى إيواء الشباب الثائر وفاءً بالعهد.
- الثوار يسيطرون على طريق القوافل ويشلون حركة التجارة في مكة.
- قريش تناشد عدوها الرسول الرحم ليتوسط لإنهاء ثورة أبنائها ضدها فيفعل.
- موت قائد الثوار في معقله بعد توقف الثورة
- قضية المهاجرات أثناء صلح الحديبية.

ثوار المستضعفين في العيص <sup>(١)</sup> كان النبي ﷺ عقب إيرامه صلح الحديبية التاريخي مع مشركي قريش في أواخر السنة السادسة من الهجرة، قد واجه امتحاناً شديداً، تألم له المسلمون أشد الألم، وهو أن الرسول القائد ﷺ قد اضطر (وهو لا يزال في بطاح الحديبية) إلى أن يسلم الشاب المسلم الصالح (أبا جندل بن سهيل بن عمرو) إلى أبيه سهيل المشرك، على كره منه ﷺ ومن أصحابه؛ لأن بنود صلح الحديبية تلزمه بذلك <sup>(٢)</sup> والوفاء بالعهد لأي كان من أهم أسس قواعد الأخلاق في الإسلام، فليُسلّم (إذن) أبو جندل المسلم إلى أبيه المشرك؛ لأن ذلك (على ما فيه من إثارة أعاصير من الآلام في نفوس المسلمين) أمر لا بد للنبي ﷺ من فعله، وفاءً بما أعطى للمشركين من تعهد في صلح الحديبية.

(١) العيص بكسر العين: ما تكاثف وتشابك من الشجر، وهو - كما قال ياقوت في معجمه - ناحية ذي المروة على

ساحل البحر الأحمر.

(٢) انظر تفاصيل قصة أبي جندل المؤثرة في كتابنا الخامس من هذه السلسلة (صلح الحديبية).



امتحان آخر يواجهه الرسول ﷺ عقب صلح الحديبية. غير أن امتحان الحديبية لم يكن الأخير، فعندما وصل الرسول ﷺ إلى المدينة ولم يكد يستقر به المقام فيها عقب إبرام هذا الصلح، حتى واجه امتحاناً آخر، لا يقل صعوبة عن الامتحان الذي واجهه في بطاح الحديبية.

لقد كانت سجون مكة تعج بعشرات الشباب القرشيين الذين اختاروا لهم الإسلام ديناً. فغضب أهلهم لذلك، فقاموا باعتقالهم وزجوا بهم في السجون والمعتقلات، بعد أن عجزوا عن إقناعهم بالارتداد عن الإسلام إلى الوثنية.

الثائر الأول على تُضم مكة. وكان أبو بصير (عتبة بن أسيد الزهري)<sup>(١)</sup> أحد هؤلاء الشباب القرشيين السابقين إلى الإسلام، زج به قومه بنو زهرة في السجن لفارقتهم دين الوثنية واعتناقه دين الإسلام.

ولما تم إبرام صلح الحديبية وأجبرت قريش الشرك على الاعتراف بالمسلمين كأمة ذات كيان - بعد أن كانت قريش لا تنظر إليهم إلا كما تنظر إلى قطاع الطرق والخارجين على القانون - انتعشت آمال الشباب المسلم المقهور في سجون مكة، وصار هؤلاء الشباب يمنون النفس بالاستفادة من معطيات هذا الصلح.

وبدأ بعضهم يفكر في الهرب من سجون قريش بمكة ليلتحق بالأسرة الإسلامية في المدينة كأعضاء فيها.

وكان أول من تمكن من الخلاص من سجن أهله بمكة الشاب المسلم (أبا بصير)، وقد اتجه هذا الشاب المسلم إلى المدينة، وعندما وصل إليها قابل النبي ﷺ وطلب منه أن

(١) هو عتبة بن أسيد بن جارية بن عبد الله الثقفي (أبو بصير) حليف بني زهرة كان من الشباب السابقين في الإسلام سجنه أهله في سجن بني زهرة بمكة تكيلاً به لدخوله في الإسلام، فصر حتى تمكن من الإفلات فكان أول شباب قريش هرباً من سجونها بعد صلح الحديبية ذكر البخاري قصته وقصة أبي جندل بن سهيل بن عمرو في صحيحه: قاد أبو بصير ثوار العيص أنشأ حكومة مستقلة في الساحل في العهد النبوي معادية لقريش وليست مرتبطة بالمسلمين بسبب شروط صلح الحديبية ولكنها كانت على ولاء تام للنبي ﷺ وأصحابه، ظل أبو بصير يقود الثورة ضد مشركي مكة ويستولي على قوافلهم في الساحل حتى صدرت إليه الأوامر النبوية بإيقاف نشاطه ضد كفار مكة، فأوقف نشاطه ثم توفي في مقره بالعيص وهو يقرأ كتاب رسول الله ﷺ الموجه إليه بهذا الشأن.

يمنحه حق اللجوء والإقامة بين أسرته الكبرى، أسرة الإسلام.

وكان بود النبي ﷺ أن يجيبه إلى طلبه، ولكن السماح له بالإقامة في المدينة يناقض روح اتفاقية صلح الحديبية التي ينص أحد بنودها على أن يلتزم النبي ﷺ بعدم إيواء أحد في المدينة من أبناء قريش حتى وإن جاء مسلماً ما لم يكن ذلك بموافقة وليه، وأن عليه ﷺ أن يعيده إلى أهله إذا ما طلبوا منه ذلك.

وهكذا كان مجيء الشاب الطيب المسلم (أبي بصير) لاجئاً إلى المدينة امتحاناً ثانياً (وقاسياً) للنبي ﷺ ولأصحابه، ذلك أن بني زهرة، قوم أبي بصير لم يكادوا يعلمون أنه التجأ (عقب هربه من سجنهم) إلى المدينة، حتى بعثوا في طلبه، وذلك في خطاب كتبه إلى النبي ﷺ اثنان من سادات بني زهرة (الأخنس بن شريق وأزهر بن عبد عوف) <sup>(١)</sup> طالباً فيه النبي ﷺ أن يعيد إليهم ابنهم أبا بصير؛ تنفيذاً لاتفاقية صلح الحديبية <sup>(٢)</sup>.

وقد بعثا إلى النبي ﷺ بالخطاب مع رجلين من بني عامر بن لؤي وطلبا من الرسول ﷺ أن يسلمها (أبا بصير) ليعودا به إلى مكة تحت حراستهما. النبي ﷺ يسلم أبا بصير لقريش: وبعد أن تسلم النبي ﷺ خطاب سيد بني زهرة، وعرف مضمونه، لم يسعه (وهو سيد من أبر وأوفى بالعهد) إلا أن يسلم (أبا بصير) إلى رسولي قريش وفاءً بالعهد الذي أعطاه لها في الحديبية.

(١) هو أزهر بن عبد عوف، قال ابن حجر في الإصابة، هو عم عبد الرحمن بن عوف الزهري ولم يذكر في الأصل، أي تفصيل عن إسلامه إلا أنه ذكر أنه ممن شهدوا أن رسول الله ﷺ دفع السقاية إلى العباس بن عبد المطلب، وأنه رابع أربعة كلفهم الخليفة الفاروق فنصبوا أعلام الحرم، وهم حويطب بن عبد العزى ومخرمة بن نوفل وسعيد بن يربوع وأزهر بن عبد عوف، وهذا يعني أنه كان من مسلمي الفتح والله أعلم.

(٢) ذكر الواقدي في مغازية ج ٢ ص ٦٦٤ وما بعدها تفاصيل قصة طلب إعادة أبي بصير ونص الخطاب الذي وجهته قريش إلى النبي ﷺ بهذا الشأن، فقال: فكتب الأخنس بن شريق وأزهر بن عبد عوف الزهري إلى رسول الله ﷺ كتاباً وبعثا به رجلاً من بني عامر بن لؤي استأجره بيكر. ابن لبون - وهو خنيس بن جابر، وخرج مع العامري مولى له يقال له: كوثر، وحمل خنيس بن جابر على بعير، وكتبا يذكران الصلح بينهم، وأن يرد أبا بصير فلما قدما على رسول الله ﷺ قدما بعد أبي بصير بثلاثة أيام، فقال خنيس: يا محمد هذا كتاب، فدعا رسول الله ﷺ أبي كعب، فقرأ عليه الكتاب فإذا فيه: قد عرفت ما شارطناك عليه، وأشهدنا بيننا وبينك من رد من قدم عليك من أصحابنا، فابعت إلينا بصاحبنا فأمر رسول الله ﷺ أبا بصير أن يرجع معهم ودفعه إليهما.

فقد استدعى النبي ﷺ أبا بصير، فأخبره أنه لا بد له من أن يُسلمه لرسولي قريش ليعودا به إلى مكة، فقال أبو بصير (في حرقه وألم): يا رسول الله، أتردني إلى المشركين يفتنونني في ديني؟

فقال له النبي ﷺ: يا أبا بصير إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت، ولا يصلح لنا في ديننا الغدر، وإن الله جاعل لك ولن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، فانطلق على قومك<sup>(١)</sup>.

كيف يصنع الإيمان الراسخ: ولم يسمح إيمان الشاب أبي بصير الراسخ له بأن يناقش أو يجادل في أمر النبي ﷺ بل صدع به وألقى بيديه إلى مندوبي قومه من المشركين ليوثقاه كتافاً رغم علمه أن ذلك قد يعني إعدامه في سجون مكة.

فغادر أبو بصير المدينة في حراسة العامريين المشركين، وقد حز ذلك في نفسه ونفوس المسلمين (ما في ذلك شك)، ولكنه الوفاء بالعهد، وأمر الرسول ﷺ الذي لا يجوز لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يخرج عليه.

أبو بصير يقتل حارسه ويعود إلى المدينة:

لقد كان أبو بصير شاباً قوياً وشجاعاً، مع ذكاء وفطنة، وإذا اجتمعت الشجاعة والقوة والفطنة والذكاء إلى الإيمان الراسخ، كان لذلك أروع النتائج.

لا شك أن أبا بصير - منذ أن أطاع أمر نبيه ﷺ فسلم نفسه إلى رسولي قومه المشركين - وهو يفكر في اتباع طريقة يتخلص بها من أسر حارسه المشركين، بعد أن أبرأ ذمة نبيه ﷺ وجعله بعيداً عن تهمة الإخلال بالعهد، بانصياعه لأمر الرسول ﷺ بأن يسلم نفسه لمبعوثي قومه المشركين تمثيلاً مع بنود صلح الحديبية، وقد نفذ البطل أبو بصير فكرة التخلص هذه فتمكن من قتل أحد حارسه، وانطلق يطارد الآخر الذي فر هارباً إلى المدينة.

وتفصيل ذلك أن هذا الشاب القرشي المؤمن عزّ عليه وثقل على نفسه أن يعود إلى بيئة الشرك وجوّ الوثنية العربيّة الخانق، ليقذف به من جديد في غياهب سجون الشرك في مكة، بعد أن نجاه الله منها حين أفلت من مكة، ولكن لا بد من مغادرة المدينة، كما هي أوامر الرسول ﷺ ورغبته المنبثقة من حرصه على الوفاء بالعهد الذي أعطاه مشركي مكة

في اتفاقية الحديبية.

فغادر أبو بصير المدينة مع حارسيه المسلحين العامرين اللذين انطلقا به مكتوف اليدين نحو مكة، وفي مكان يقال له ذو الحليفة (أبيار علي اليوم) وعلى بعد حوالي سبعة أميال من المدينة جلس الحارسان المشركان وأسيرهما المسلم (أبو بصير) ليأخذا قسطاً من الراحة.

وهناك أخذ أبو بصير يلاطف أحد حارسيه وكان الحارس مسلحاً بسيفه، وبعد أن تباطأ في الحديث مع حارسه قال له (في ذكاء ولطف) : أصارم سيفك هذا يا أخا عامر؟

قال العامري: نعم هو كذلك ثم هزه وقال (في زهو وغرور): لأضربن بسيفي هذا في الأوس والخزرج يوماً إلى الليل.

فاستأذنه أبو بصير ليفحص السيف قائلاً: أنظر إليه؟.

قال الحارس: إن شئت.

وهنا حل وثاق أبو بصير، وما كادت يده تقع على مقبض السيف حتى ضرب به حارسه العامري فأرداه قتيلاً، ثم شد على الحارس الثاني ليلحقه بصاحبه، ولكنه فر هارباً مذعوراً إلى المدينة طالباً النجاة، ودخل المسجد على النبي ﷺ فلما رآه النبي ﷺ والحصى يطير من تحت قدميه من شدة عدوه، قال ﷺ إن هذا الرجل قد رأى فرعاً، ثم قال له: ويحك مالك؟

فقال: قتل صاحبكم صاحبي وأفلتُ منه ولم أكد، وإني لمقتول، ثم طلب من النبي ﷺ أن يحميه من أبي بصير الذي كان في أثره فأمنه النبي ﷺ على حياته.

ولم يكد العامري المشرك يكمل حديث في المسجد حتى طلع أبو بصير البطل متوشحاً سيف حارسه المشرك القتيل، ثم دخل على النبي ﷺ بعد أن أناخ البعير على باب المسجد. وأبلغ الرسول ﷺ تفاصيل ما حدث، ثم قال: يا رسول الله وفت ذمتك وأدى الله عنك، أسلمتني بيد القوم وقد امتنعت بديني أن أفتن فيه أو يعثب بي.

وكان الشاب أبو بصير (على ما يظهر) يحاول بهذا القول إقناع النبي ﷺ بأن يسمح له بالإقامة في المدينة، ولا يجبره مرة أخرى على العودة إلى مكة.

وقد اقتنع النبي ﷺ بوجهة رغبة أبو بصير، فلم يجبره على العودة إلى مكة ولكنه في الوقت نفسه لم يسمح له بالإقامة في المدينة؛ لأن ذلك يناقض اتفاقية الحديبية، ولذلك فإن النبي ﷺ بعد أن سمع شرح وجهة نظر أبي بصير - قال له اذهب حيث شئت<sup>(١)</sup>.

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٥١.



وقد طلب أبو بصير من النبي ﷺ أن يعتبر سلب العامري المشرك المقتول وبغيره غنيمة حرب فيخمسها كما تُخمس الغنائم، ولكن النبي ﷺ لم يفعل لثلاث تفسير قريش ذلك نقضاً للعهد الذي أعطاه النبي في الحديبية، فقد قال النبي ﷺ لأبي بصير: إذا خمسته<sup>(١)</sup> رأوني (أي قريشاً) لم أوف لهم بالذي عاهدتهم عليه ولكن شأنك بسلب صاحبك، ثم قال النبي ﷺ - معجباً بشجاعة وبسالة أبي بصير - (ويل أمه مسعر<sup>(٢)</sup> حرب لو كان معه رجال<sup>(٣)</sup>) كلمة تعني الشجاع البطل القادر على خوض المعارك وقيادة الجيوش وليس معه رجال، مثل أبي بصير.

معقل الثوار ضد قريش: وعندما علم أبو بصير أن الرسول ﷺ لن يسمح له بالإقامة في المدينة، اختمرت في ذهنه فكرة الثائر المسلم البطل الذي تأبى نفسه أن يعود مرة أخرى إلى ذل الشرك والعبودية، فنفذ هذه الفكرة في الحال.

فقد حمل سيف القتيل المشرك واستوى على بغيره الذي غنمه منه واتجه غرباً نحو العيص على ساحل البحر، حيث تكثر الأعراس والأشجار المتشابكة التي يسهل فيها على الثائر الاختفاء عندما يريد.

ولم يكن هدف أبي بصير من اختيار العيص مكاناً لإقامته الاختفاء عن الأنظار، بل كان هدفاً أسمى وأعلى من ذلك وهو إعلان الثورة على قومه المشركين وشن حرب عصابات على قوافلهم التجارية الكبرى التي يتحكم في طريقها الموقع الذي اختاره أبو بصير معقلاً له.

واستغل الثائر الأول بنفسه، ليس له أية علاقة إدارية بالمسلمين (بسبب صلح الحديبية) وصار يشن الغارات من معقله في العيص على قوافل قريش التجارية ويفتك رجال هذه القوافل المشركين ويستولي على ما يحتاج إليه من الأموال التي تحملها القوافل ثم يعود إلى معقله في العيص.

(١) خمسته: أي اخذ خمسها عملاً بآية الغنيمة: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ الأنفال ٤١.

(٢) مسعر حرب: موقدها ومهيجها.

(٣) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٦٣٩.

وقد أخاف أبو بصير ( وكان شجاعاً باسلاً) أخاف قريشاً إخافة شديدة، فصارت مكة لا ترسل قوافلها إلى الشام إلا تحت حراسة مشددة، ومع ذلك لم تنج هذه القوافل من الثائر البطل الأول أبي بصير.

التحاق المستضعفين المسلمين بالثائر الأول في العيص: وشاع ذكر عمليات الثائر أبي بصير ضد قوافل أهله من قريش وخاصة بين أهل مكة ، فانتعشت آمال المستضعفين من المسلمين المسجونين في سجون الشرك بمكة في الخلاص من هذه السجون للالتحاق بالثائر الأول البطل أبي بصير.

وكان النبي ﷺ قد أشاد بشجاعة ورجولة أبي بصير (حينما تخلص من حارسه بعد أن قتل أحدهما) فقال ﷺ: (ويل أمه مُسْعِرُ حرب لو كان معه رجال).

وقد كانت هذه الكلمة النبوية (بحق أبي بصير) فيها إشارة صريحة إلى أن النبي ﷺ سيقف من أعمال أبي بصير الحربية ومن قد ينضم إليه من الشباب القرشي المسلم المقهور في سجون مكة، موقف الحياد - مادام صلح الحديبية قائماً بين المسلمين وقريش - وأنه لن يمنحهم حق اللجوء السياسي (إن صح التعبير) كما أنه لن يكون (من ناحية أخرى) مسئولاً عن ما قد يقومون به من أعمال عسكرية ضد أهاليهم من المشركين.

ولما علم الشباب القرشي المسلم (من المعتقلين في سجون مكة) بقصة أبي بصير وإعجاب النبي ﷺ به وبشجاعته وبسالته وقوله لذلك (ويل أمه مسعر حرب لو كان معه رجال) وأن أبا بصير قد باشر الثورة المسلحة بنفسه ضد مشركي مكة في العيص، بذل هؤلاء الشباب جهدهم حتى تخلصوا (الواحد تلو الآخر) من سجون أهاليهم المشركين في مكة.

وصاروا كلما تمكن أحدهم من الهرب من سجون الشرك بمكة انضم إلى الثائر الأول (أبي بصير في العيص)، ولم تمض عدة أشهر حتى اجتمع إلى أبي بصير - من شباب قريش وحدهم سبعون شاباً، كلهم هرب من سجون مكة، وعلى رأسهم (أبو جندل بن سهيل بن عمرو)<sup>(١)</sup>.

(١) أبو جندل هذه كنيته أما اسمه فهو عبد الله بن سهيل بن عمرو: قال في الإصابة كان من السابقين في الإسلام شهد بدرًا مع الرسول ﷺ لأنه جاء في جيش المشركين ثم انحاز إلى المسلمين، ثم أسر بعد ذلك وعذب ليرجع عن دينه

ارتفاع عدد ثوار العيص إلى ثلثمائة: وقد انضم إلى ثوار قريش في العيص رجال من غفار وجهينة وطوائف أخرى حتى بلغوا ثلثمائة، تركزوا جميعهم في منطقة العيص دون أن تكون لهم أية صلات إدارية بالنبي ﷺ رغم أنهم على دين الإسلام.

أبو بصير قائد الثوار: وعندما بلغت قوات ثوار العيص إلى هذا العد (ثلثمائة مقاتل) أسندوا أمرهم إلى الثائر الأول البطل أبي بصير الزهري، فانتخبوه قائداً عاماً لهم يأتمرون بأمره.

فقبل أبو بصير هذا التكليف وعين (أبا جندل بن سهيل بن عمرو) نائباً له في قيادة الثورة ضد قريش الشرك.

ثم قام أبو بصير القائد بتنظيم هؤلاء الثوار وجعل منهم قوة حربية وفصائل منظمة. اتبعت في ثورتها على مشركي مكة أسلوب حرب العصابات، فصارت هذه الفصائل تقوم على الدوام بمراقبة عير قريش الذاهبة من مكة إلى الشام والعائدة منها إلى مكة.

سيطرة الثوار على طريق القوافل: وقد أحكم ثوار العيص السيطرة على طريق القوافل بين مكة والشام، وصاروا لا يمر بهم أحد من مشركي قريش فيظفرون به إلا قتلوه، ولا تمر بهم قافلة لقريش إلا واستولوا عليها، حتى أصيبت تجارة قريش (التي هي عمود حياتها الفقري) بضربة قاصمة، فانهارت اقتصاديات مكة وتناقصت فيها المواد الغذائية حتى أصبح شبح المجاعة يهدد أهل مكة، نتيجة وقوع أكثر أموالهم المعدة للتجارة في أيدي ثوار العيص المسلمين الذين يقودهم أبناء مكة أنفسهم ضد أهلهم الذين سجنوهم ونكلوا بهم لاتباعهم دين الإسلام.

موقف المدينة من ثوار العيص: ووقفت المدينة موقف الحياد التام من غارات هؤلاء الثوار المسلمين على قوافل قريش، فصلح الحديبية التزم فيه النبي ﷺ بأن لا يأوي أحداً من أبناء قريش في المدينة بغير إذن أهله، حتى وإن كان مسلماً، وقد طبق الرسول ﷺ

ولما فتحت مكة كان هو الذي استأمن لأبيه سهيل بن عمرو: وقد ذكرنا قصته مفصلة في كتابنا الخامس (صلح الحديبية) كان أبو جندل من شباب الإسلام المخلص المتفاني في خدمة الإسلام استشهد أبو جندل يوم اليمامة وهو ابن ثمان وثلاثين سنة، قاله خليفة وابن إسحاق.

وهكذا جنى مشركو مكة ثمار تجرهم وتصلفهم - شراً وبلاءً، وقطف المؤمنون الصابرون ثمرة صبرهم واحتسابهم عزاً في الدنيا وفلاحاً في الآخرة، بفضل الله ثم بفضل إطاعتهم وأوامر نبيهم ﷺ وصبرهم على البلاء في سبيل الاحتفاظ بعقيدتهم النقية الصافية عقيدة التوحيد.

شأن المستضعفات من النساء المسلمات المهاجرات : وقبل فتح مكة «في تاريخ لا نعرف تحديده، ولكنه كان بعد صلح الحديبية وقبل فتح مكة»، نزل التشريع من السماء بالتفريق بين المرأة المسلمة وزوجها الكافر.

كما نزل بتحريم إجراء أية زيجة بين امرأة مسلمة ورجل كافر من أية طائفة كان.

هجرة النساء بعد الحديبية : وسبب ذلك أن أم كلثوم <sup>(١)</sup> بنت عقبه بن أبي معيط <sup>(٢)</sup> كانت قد أسلمت بمكة وبايعت النبي ﷺ قبل أن يهاجر إلى المدينة، وكانت من خيرة النساء - رغم أن أباهما كان «حتى قتل» رأساً من رءوس الكفر - .

فلما عقد النبي ﷺ صلح الحديبية وأمن جانب قريش بعد هذا الصلح، هاجرت أم كلثوم هذه من مكة إلى المدينة، فكانت أول امرأة مهاجرة بعد صلح الحديبية، وكانت أم كلثوم أختاً لعثمان بن عفان لأمه.

وكانت هذه الفتاة الصالحة الفاضلة تعلم ما تضمنه صلح الحديبية من شرط ينص على التزام النبي ﷺ بعدم إيواء أحد من أبناء قريش في المدينة حتى وإن جاء مسلماً إلا بإذن أهله.

(١) هي أم كلثوم بنت عقبه بن أبي معيط الأموية أمها أروى بنت كرز بن زمة بن حبيب بن عبد شمس وهي أخت عثمان بن عفان لأمه، كانت أم كلثوم من كرائم نساء المؤمنين راسخة الإيمان من السابقات إلى الإسلام ومن المفارقات العجيبة أن أباهما عقبه كان من رءوس الكفر والمبالغين في التنكيل بالرسول ﷺ أيام محنته في مكة قبل الهجرة أسر أبوها يوم بدر وجرى إعدامه كمجرم حرب في الطريق إلى المدينة: هاجرت إلى المدينة فتاة قبل أن تتزوج، هاجرت ماشية على قدميها لها أحاديث في الصحيحين والسنن الثلاثة تزوجها في المدينة زيد بن حارثة فلما توفي عنها، تزوجها الزبير بن العوام، ثم فارقها فتزوجها عبد الرحمن بن عوف فولدت له إبراهيم وحيد ثم مات عنها فتزوجها عمرو بن العاص فمات وهي في عصمته قال ابن سعد هي أول من هاجر إلى المدينة بعد هجرة النبي ﷺ ولا نعلم قرشية من أبويها مسلمة وهاجرت إلى الله ورسوله إلا أم كلثوم.

(٢) عقبه بن أبي معيط بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف أسر يوم بدر مشركاً وكان أحد اثنين من الأسرى جرى إعدامهما وقد تقدمت تفاصيل قصته في كتابنا (غزوة بدر الكبرى).

فكانت تخشى أن يردها رسول الله ﷺ إلى المشركين - تنفيذ لهذا الشرط - وقد أبدت تخوفها هذا لأم المؤمنين أم سلمة؛ لأنها إنما جاءت من مكة فراراً بدينها، غير أن النبي ﷺ طمأنها بعد أن أخبرته زوجه أم سلمة قصتها.

كيف يكون أثر الإيمان عندما يتمكن من النفوس : إن قصة الفتاة أم كلثوم وهجرتها إلى الله ورسوله، وتحملها في سبيل ذلك من الأخطار وعزمها على أن تهاجر وحدها، فتقطع أكثر من ثلثمائة ميل مشياً على الأقدام، ورغم ما في ذلك من أخطار عليها وهي المرأة الضعيفة (وكل النساء بطبعهن ضعيفات)، إن قصة هجرتها قصة شيقة، فيها تتجسد التضحية البالغة بركوب المخاطر في سبيل الحفاظ على العقيدة التي إذا رسخت في القلوب وأشرفت بنور ربها تجعل معتنقها وكأنه خلق خلقاً جديداً، فهذه فتاة شابة في مقتبل العمر، عندما لامس الإسلام قلبها ورسخت عقيدته الصافية في نفسها نسيت أهلها ووطنها، ولم يكن لها هم إلا ترك دار الكفر والالتحاق بالرسول ﷺ في (المدينة)، رغبة في الحفاظ على عقيدتها التي كانت - كما صرحت هي لدى وصولها المدينة - تخشى أن يطالها الإرهاب والتعذيب فتفتن - لضعفها - فتفارق الإسلام، الذي مفارقتها لروحها أهون عليها من أن تفارقه وتخرج منه، ولهذا تركت مكة وقررت أن تهاجر إلى المدينة (مشياً على الأقدام بمفردها). وشرعت - فعلاً - في الهجرة، إذ غادرت مكة (خلسة) مصممة على أن تقطع تلك المسافة البعيدة المحاطة بالأخطار الجسام وحدها، لولا أن الله قيض لها رجلاً شهماً نبيلاً وعفاً كريماً ومن معدن قل أن يوجد مثله في الرجال، رجلاً ما كانت تعرفه ولا يعرفها، فكان لها خير راع وحارس أمين حتى أوصلها المدينة ثم عاد من حيث أتى دون أن تعرف اسمه إلا أنه من خزاعة حلفاء الرسول ﷺ، ولما في قصة هجرة هذه الفتاة البرّة الصالحة الصادقة الإيمان من دروس في الثبات على العقيدة ولما في قصة الرجل الخزاعي من شهامة ونبل وأريحية مما يستضاء به في دروب الرجولة الحقّة، سنورد هذه القصة بكاملها كما رواها الواقدي.

أول مسلمة تهاجر بعد صلح الحديبية : قال الواقدي : قالوا: لا نعلم قرشية خرجت بين أبيوها مسلمة مهاجرة إلا أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، كانت تحدث تقول: كنت أخرج إلى بادية لنا بها أهلي، فأقيم بها الثلاث والأربع، وهي ناحية التنعيم - أو قالت بالخصاص - ثم أرجع إلى أهلي فلا ينكرون ذهابي، حتى أجمعت المسير، فخرجت يوماً

من مكة كآني أريد البادية التي كنت فيها، فلما رجعت من تبعتني خرجت حتى انتهيت إلى الطريق، فإذا رجل من خزاعة فقال: أين تريدان؟ فقلت حاجتي فما مسألتك؟ ومن أنت؟ فقال: رجل من خزاعة، فلما ذكر خزاعة اطمأنت إليه، لدخول خزاعة في عهد رسول الله ﷺ وعقده، فقلت: إني امرأة من قريش أريد اللحوق برسول الله، ولا علم لي بالطريق فقال: أهل الليل والنهار<sup>(١)</sup> أنا صاحبك حتى أوردك المدينة، ثم جاءني ببعير فركبته فكان يقود بي البعير، لا والله ما يكلمني كلمة، حتى إذا أناخ البعير تنحى عني فإذا نزلت جاء إلى البعير فقيده في الشجرة وتنحى عني، حتى إذا كان الرواح جذع<sup>(٢)</sup> البعير فقربه وولى عني، فإذا ركبته أخذ برأسه فلم يلتفت وراءه حتى نزل، فلم يزل كذلك حتى قدمنا المدينة، فجزاه الله خيراً من صاحب، فكانت تقول: نعم الحبي خزاعة! قالت: فدخلت على أم سلمة زوج النبي ﷺ وأنا منتقبة، فما عرفتي حتى انتسبت وكشفت النقاب فالتزمتني وقالت: هاجرت إلى الله وإلى رسوله؟. فقلت: نعم، وأنا أخاف أن يردني رسول الله ﷺ إلى المشركين كما رد غيري من الرجال: أبا جندل بن سهيل، وأبا بصير، وحال الرجال يا أم سلمة ليس كحال النساء، والقوم مصبحي، قد طالت غيبتني عنهم اليوم ثمانية أيام منذ فارقتهم، فهم يبحثون قدر ما كنت أغيب ثم يطلبونني، رحلوا إلى فساروا ثلاثاً.

قال الواقدي: فدخل رسول الله ﷺ على أم سلمة، فأخبرته أم سلمة خبر أم كلثوم، فرحب بها رسول الله ﷺ، وقالت أم كلثوم يا رسول الله، إني فررت بديني إليك فامنعني ولا تردني إليهم يفتنونني ويعذبوني، فلا صبر لي على العذاب، إنما أنا امرأة وضعف النساء إلى ما تعرف، وقد رأيتك رددت رجلين (تعني أبا جندل وأبا بصير) إلى المشركين حتى امتنع أحدهما، وأنا امرأة.

مطالبة المشركين بإعادة أم كلثوم: وعندما اختفت أم كلثوم من مكة وعلم أهلها أنها هاجرت إلى الله ورسوله بعثوا لاسترجاعها أخويها الوليد وعمارة ابني عقبة، تنفيذاً لبنود صلح الحديبية.

(١) يعني بذلك: نحن أهل الليل والنهار العارفون بمسالك الطريق ليلاً ونهاراً.

(٢) قال في القاموس المحيط: جذع البعير، حبسه على غير علف.

ويظهر أن الرسول ﷺ كان عازماً على إرجاع أم كلثوم إلى أهلها بمكة لولا أن القرآن نزل بتشريع جديد، نبه الرسول ﷺ إلى أنه إذا كان لابد من إعادة الرجال إلى أهلهم بمكة (بموجب الاتفاقية) فإنه لا يجوز إعادة النساء المؤمنات (مطلقاً) وخاصة اللواتي تطلب قريش إعادتهن لمعاشرة أزواج مشركين؛ لأنه من المحرم (بموجب التشريع الجديد) أن ينكح المشرك مسلمة أو ينكح المسلم مشركة.

والنص القرآني الذي نزل - عقب هجرة أم كلثوم وحل مشكلتها - هو قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ (١).

تسوية أمر النساء بالتراضي مع قريش : غير أن القرآن عند نزوله بهذا التشريع الجديد أمر بإرضاء كل رجل مشرك من أهل مكة له زوجة مسلمة تركته وهاجرت. أمر بأن تدفع الدولة لهذا المشرك (بسبب قيام صلح الحديبية) كل ما أنفق صدقاً لزوجته التي أصبحت (بحكم القانون الجديد في الإسلام) مطلقة عنه ومحرمة عليه، فقال تعالى وأمر بهذه المراضاة: ﴿وَأَتَوْهُمْ مَّا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ (٢).

وضمن التشريع الجديد الذي جاءت به سورة المتحنة حرم الله على أي رجل مسلم أن يعاشر أية زوجة ظلت على شركها، كما حرم التزوج من أية امرأة مشركة، فقال تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكُوفِرِ﴾ (٣).

كيف رضيت قريش بعدم إرجاع النساء : وقد ذكر المؤرخون أنه على أثر هذا التشريع الجديد، أبلغ الرسول ﷺ أخوي أم كلثوم (عمارة والوليد) بهذا التشريع وما نزل فيه من أمر بالتعويض للأزواج المشركين من أصحاب عهد الحديبية، فذهبا إلى مكة وأبلغا قريشاً بذلك فقبلوا بهذه التسوية وكفوا عن المطالبة بإعادة النساء بعد أن رضوا كلهم بهذا الحكم (٤).

(١) المتحنة ١٠.

(٢) المتحنة ١٠.

(٣) المتحنة ١٠.

(٤) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٥٠ ومغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٢١.

ثم إن قصة أم كلثوم بنت عقبة لم تمض عليها أسابيع قليلة حتى جاءت قريش نفسها تبلغ الرسول ﷺ تنازلها عن شرط إعادة من جاءه من أبنائها والذي تضمنته المعاهدة، وذلك على أثر اندلاع ثورة المستضعفين المسلمين القرشيين المسلحة في العيص كما تقدم فأصبح النبي ﷺ عقب ذلك غير ملزم لقريش بإعادة النساء ولا بإعادة الرجال إلى أهلهم في مكة.

ولم تكن أم كلثوم التي (بسببها نزل هذا التشريع) متزوجة ولكن التشريع نزل عاماً وشمل مواضيع عدة، وقد زوج النبي ﷺ «أم كلثوم القرشية زيد بن حارثة»<sup>(١)</sup>.

تطبيق النساء المشركات : وكان الصحابة (قبل نزول هذا التشريع) بعضهم متزوجاً من نساء مشركات مقيمات في مكة ولكن بعد نزول هذا التشريع بوجوب فسخ وعدم شرعية أية زيجة بين رجل مسلم وامرأة مشركة، قام كل رجل مسلم بتطبيق امراته المشركة.

ومن هؤلاء الصحابة، عمر بن الخطاب، طلق زوجته له، أم كلثوم بنت جرول الخزاعية أم عبید الله بن عمر، فتزوجها أبو الجهم بن حذيفة بن غانم وهما على شركهما. وقريبة بنت أبي أمية بن المغيرة، فتزوجها معاوية بن أبي سفيان قبل أن يسلم.

التزوج من الكتابيات : وظل هذا التشريع معمولاً به، فصار من المحرم - أبدأ الأبدین

- أن تتزوج امرأة مسلمة من أي رجل كافر، مهما كانت الطائفة التي ينتمي إليها، كما ظل كذلك من المحرم على أي مسلم أن يتزوج من غير مسلمة، إلا الكتابية (اليهودية والنصرانية) وذلك لتخصيص التحريم العام بأية أخرى نزل بها القرآن وهي قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الْطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْحَصْنَتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْحَصْنَتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذْ آتَيْنَهُمْ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَحْدَانٍ﴾<sup>(٢)</sup>.

(١) انظر ترجمة زيد بن حارثة في كتابنا (غزوة بدر الكبرى).

(٢) المائدة آية ٥.



٢- سرية الخبط <sup>(١)</sup> شهر رجب سنة ثمان للهجرة : من الحملات العسكرية التي قام بها جيش الإسلام عقب غزوة مؤتة وقبل فتح مكة، سرية قادها أبو عبيدة بن الجراح إلى ديار جهينة على ساحل البحر الأحمر.

فقد استدعى النبي ﷺ أبا عبيدة بن الجراح وعقد له لواء القيادة على ثلاثمائة من المهاجرين والأنصار، فيهم عمر بن الخطاب وأمره بأن يتوجه بسريته للإغارة على جهينة التي كانت حتى ذلك العهد تدين بالوثنية، وكانت منازلهم المقصودة بالإغارة على بعد خمس ليال من المدينة.

ومن الجدير بالذكر أن رجال هذه السرية كانوا كلهم من المشاة، ولم يكن لديهم من الخيل أو سلاح النقل سوى عدة جمال، يحملون عليها زادهم <sup>(٢)</sup> . ولم يذكر أحد من المؤرخين (فيما بلغني) أن سرية أبي عبيدة خاضت أي قتال ضد قبيلة جهينة، إلا أن سياق المؤرخين يدل على أن أبا عبيدة وصل برجاله إلى ديار جهينة. حيث جاس خلال المناطق الساحلية على بحر القلزم (البحر الأحمر) وهي مناطق تابعة لجهينة.

ويذكر المؤرخون أن رجال السرية المذكورة قد نفذ زادهم قبل أن يصلوا إلى منازل جهينة حتى أنهم (لشدة الفاقة) يأكلون الخبط الذي باسمه سميت السرية. قالوا: فأكلوا الخبط وهو يومئذ ذو مشرة <sup>(٣)</sup> حتى أن شذق أحدهم بمنزلة مشفر البعير، فمكثنا على ذلك حتى قال قائلهم: لو لقينا عدوًا ما كان بنا حركة إليه، لما بالناس من الجهد <sup>(٤)</sup> .

الكرم الأنصاري: وفي هذه الغزوة التي أشرف فيها الجيش على الهلاك من الجوع، تجلّى الكرم الأنصاري الذي خلد الله تعالى ذكر أصحابه بقوله: ﴿ وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۗ ﴾ .

(١) الخبط (بفتح أوله وثانيه) قال في القاموس المحيط ورق ينفذ بالمنخاط ويخفف ويطحن ويخلط بدقيق أو غيره ويخف بالماء وقد سميت هذه السرية باسم سرية الخبط؛ لأن الجيش أصابه الجوع حتى صار يأكل ورق الخبط.

(٢) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٧٧٤.

(٣) جاء في القاموس المحيط: المشرة بفتح الميم وكسر الشين شبه خوصة تخرج في العضاة وفي كثير من الشجر والأغصان الخضرة الرطبة قبل أن تتلون بلون.

(٤) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٧٧٤.

فقد كان ضمن جنود هذه الحملة، قيس بن سعد بن عبادة سيد الخزرج، والمشهور بالكرم في الجاهلية والإسلام.

فعندما رأى قيس بن سعد (وكان شاباً يافعاً لا مال له) ما أصاب رجال السرية من جوع، ذهب إلى أحد الأعراب من فخذة جهنية موادعة للمسلمين، وطلب منه أن يبيعه عددًا من الجمال لينحرها للجيش على أن يدفع ثمنها للأعرابي تمرًا في المدينة، فقال الجهني لقيس بن سعد: والله ما أعرفك ومن أنت؟

قال: أنا قيس بن سعد بن عبادة بن دليم، قال الجهني: ما أعرفني بنسبك، أما إن بيني وبين سعد خلة، سيد أهل يثرب، فابتاع منه خمس جزر، كل جزور بوسقين من تمر، يشترط عليه البدوي، تمر ذخيرة مصلبة<sup>(١)</sup>، من تمر آل دليم، قال يقول قيس: نعم، فقال الجهني: فاشهد لي، فأشهد له نفرًا من الأنصار ومعهم نفر من المهاجرين، فقال قيس: أشهد من تحب. فكان فيمن أشهد عمر بن الخطاب، فقال عمر: لا أشهد. هذا يُدان ولا مال له، إنما المال لأبيه، قال الجهني: والله ما كان سعد ليخني<sup>(٢)</sup> بابنه في سقة من تمر! وأرى وجهًا حسنًا وفعالاً شريفًا، فأخذ قيس الجزر فنحرها في مواطن ثلاثة، فلما كان اليوم الرابع نهاء أميره وقال: تُريد أن تخفر ذمتك ولا مال لك؟ عزت عليك أن لا تنحر، فقال قيس: يا أبا عبيدة أترى أبا ثابت - وهو يقضي ديون الناس ويحمل الكَلَّ ويطعم في المجاعة لا يقضي سِقَةَ تمر لقوم مجاهدين في سبيل الله! فكاد أبو عبيدة أن يلين له ويتركه حتى جعل عمر يقول: أعزم عليه! فعزم عليه فأبى عليه أن ينحر فبقيت جزوران معه، فقدم بهما قيس المدينة ظهرًا<sup>(٣)</sup> يتعاقبون عليها.

قالوا: وبلغ سعدًا ما كان أصاب القوم من المجاعة فقال: إن يكن قيس كما أعرفه فسوف ينحر للقوم فلما قدم قيس لقيه سعد فقال: ما صنعت في مجاعة القوم حيث أصابهم؟ قال: نحرته قال: أصبت انحر! قال: ثم ماذا؟ قال نحرته. قال: أصبت! قال: ثم ماذا؟ قال: ثم نحرته، قال: أصبت انحر! قال: ثم ماذا؟ قال نُهيت، قال ومن نهاك؟! قال:

(١) مصلبة: أي يابسة.

(٢) أخنى عليه: أي خفر ذمته كذا قال في النهاية لابن الأثير ج ٢ ص ٤.

(٣) الظهر هنا ما يركب من الإبل.

أبو عبيدة بن الجراح أميري، قال: ولم؟ قال: زعم أنه لا مال لي وإنما المال لأبيك، فقلت أبي يقضي عن الأبعاد ويحمل الكّلّ ويطعم في المجاعة ولا يصنع هذا بي!، قال سعد: فلك أربع حوائط<sup>(١)</sup> قال وكتب له بذلك كتاباً، وأتى بالكتاب إلى أبي عبيدة فشهد فيه، وأتى عمر فأبى أن يشهد فيه، قالوا: وأدنى حائط منها يجيئ خمسين وسقا وقدم البدوي مع قيس فوفاه سبقتة، وحمله وكساه فبلغ النبي ﷺ فعل قيس فقال: إنه في بيت جود.

قصة الحوت العظيم في هذه الغزوة: وذكر بعض الصحابة الذين في جيش أبي عبيدة أنهم لما جهدوا من الجوع أخرج الله لهم حوتاً مثل الطرب<sup>(٢)</sup> (بفتح أوله وكسر ثانيه) فأكل الجيش منه، قال عبادة بن الصامت: أقمنا عليه عشرين ليلة حتى سمننا وابتللنا.

وذكر أصحاب السير والمغازي: أن هذا الحوت كان عظيماً إلى درجة أن خمسة من الصحابة دخلوا إحدى عينيه فوسعتهم، وصار خمسة رجال يقفون في حلق هذا الحوت بالمجاريف يجرفون الشحم.. وذكر البعض أن هذا الحوت هو المسمى بالعنبر.

وذكر أصحاب السير أن أمير الجيش أبا عبيدة أمر أن ينصب ضلع من أضلاع ذلك الحوت العظيم، فلما نُصب مرّ تحته أطول رجل في الجيش - وهو قيس بن سعد بن عبادة - راكباً على أطول بعير فلم يطأطئ رأسه، وذكر بعض من حضر هذه الغزوة: أنهم كانوا يغترفون الدهن بالقلال من عين ذلك الحوت<sup>(٣)</sup>.

وعندما عاد أبو عبيدة بسريته إلى المدينة، أخبروا النبي ﷺ بقصة ذلك الحوت وأكلهم منه، فقال ﷺ، كلوا رزقاً أخرج الله عز وجل لكم، وسأل ﷺ: معكم منه شيء؟ قال جابر بن عبد الله: وكان معنا منه شيء، فأرسل بعض القوم إلى رسول الله من ذلك الحوت شيئاً، فأكل منه<sup>(٤)</sup>.

٣- سرية أبي قتادة إلى خضرة بنجد ... شعبان سنة ثمان للهجرة: كانت قبائل غطفان

(١) الحوائط هي البساتين هنا.

(٢) الطرب (بفتح أوله وكسر ثانيه) الجبل الصغير كذا قال في النهاية لابن الأثير ج ٣ ص ٥٤.

(٣) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٣٢ - ٣٣ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٥ وما بعدها، ومغازي الواقدي ج ٢ ص ٧٧٤ وما

بعدها، وإمتاع الأسماء ص ٣٥٥ وطبقات ابن سعد الكبرى ج ٢ ص ١٣٢.

(٤) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٣٣.

من القبائل المعادية للإسلام (كما تقدم) فبعث النبي ﷺ إلى منطقة خضرة من أراضيهم دورية قتال قوامها أربعة عشر رجلاً، وأمرهم أن يشنوا عليهم الغارة وكان قائد هذه الدورية أبو قتادة الأنصاري<sup>(١)</sup>.

قال ابن أبي حدرد الأسلمي: فخرجنا وكنا أربعة عشر رجلاً بأبي قتادة وهو أميرنا وبعثنا (أي رسول الله ﷺ) إلى غطفان فقال: سيروا الليل واكنموا النهار وشنوا الغارة، ولا تقتلوا النساء والصبيان، فخرجنا حتى ناحية غطفان.

وخطبنا أبو قتادة وأوصانا بتقوى الله عز وجل، وألف بين كل رجلين وقال: لا يفارق كل رجل زميله حتى يقتل أو يرجع إلى فيخبرني خبره ولا يأتي رجل فأسأله عن صاحبه فيقول: لا علم لي به! وإذا كبرت فكبروا وإذا حملت فاحملوا، ولا تمنعوا في الطلب، فهجمنا على حاضر منهم عظيم، فأحاط بهم، فسمعت رجلاً يصرخ يا خضرة، وقد أتيناهم ليلاً، فجرد أبو قتادة وجردنا سيوفنا، كبر وكبرنا معه، فشددنا على الحاضر فقاتل منهم رجال، وإذا برجل طويل قد جرد سيفه صلتنا، وهو يمشي القهقري ويقول: يا مسلم هل لك إلى الجنة! فاتبعته ثم قال: إن صاحبكم (يعني النبي ﷺ) لذو مكيدة، وإن أمره هو الأمر، وهو يقول: الجنة الجنة - يتهكم بنا، فعرفت أنه مستقبل، فخرجت في أثره، فناداني صاحبي: لا تبعد فقد نهانا أميرنا أن لا نمنع في الطلب! فأدرسته فرميته على جريداء منته<sup>(٢)</sup>، ثم قال: ادن يا مسلم إلى الجنة! فرميته حتى قتلته بنبلى، ثم وقع ميتاً فأخذت سيفه، وجعل زميلي يناديني: أين تذهب؟ إني والله إن ذهبت إلى أبي قتادة فسألني عنك أخبرته قال: فلقبته قبل أبي قتادة فقلت: أسأل أميرني عني؟ فقال: نعم وقد تغيط عليّ وعليك وأخبرني أنهم جمعوا الغنائم - وقتلوا من أشرف لهم - فجئت أبا قتادة فلامني فقلت: قتلت رجلاً كان من أمره كذا وكذا فأخبرته بقوله كله، ثم استقنا النعم وحملنا النساء، وجفون السيوف معلقة بالأقتاب، ووقعت في سهم ابن أبي حدرد جارية وضيئة كأنها ظبية<sup>(٣)</sup>، فجعلت تكثر الالتفات خلفها، قلت إلى أي شيء تنظرين؟

(١) انظر ترجمة أبي قتادة في كتابنا (غزوة أحد).

(٢) جريداء منته: أي وسطه وهو موضع الففا المتجرد عن اللحم.

(٣) انظر تفاصيل شرح وجهة نظر الإسلام مفصلة حيال السبايا والرق الحربي في كتابنا (غزوة بني قريظة).

قالت: انظر والله إلى رجل لئن كان حياً ليستنقذنا منكم ، فوقع في نفسي أنه الذي قتلته، فقلت: قد والله قتلته، وهذا سيفه معلق بالقتب إلى غمده، فقالت هذا والله غمد سيفه، فشمه،<sup>(١)</sup> إن كنت صادقاً. قال فشمته فطبق (بفتح أوله وثانيه)، قال: فبكت ويئست، قال ابن أبي حدرد: فقدمنا على النبي ﷺ بالنعم والشاء.

وقد غنم رجال دورية أبي قتادة في هذه الحملة مائتي بعير وألف شاة<sup>(٢)</sup> ، وقد عادت هذه الدورية المسلحة الصغيرة إلى المدينة بعد أن حققت أهدافها، وكان عودتها بعد غياب دام خمس عشرة ليلة.

مدى قوة الإسلام والمخسار قوة أعدائه : لقد دل قيام أربعة عشر رجلاً من المسلمين بالإغارة على قلب بلاد غطفان التي يعد محاربوها المعادون للإسلام بعشرات الألوف «فزاره وحدها يقود منها الأحق المطاع عيينة بن حصن عشرة آلاف مقاتل» دل ذلك على أن هيبة الإسلام قد فرضت نفسها وأن الرعب من قوة المسلمين الحربية قد ملأ نفوس المشركين هناك، فلم يعودوا قادرين حتى على التصدي لدورية صغيرة من المسلمين مثل دورية أبي قتادة هذه التي وطئت ديار غطفان في قلب بلادهم دون أن تجد من يقف في وجهها مع أن رجالها لا يزيدون على أربعة عشر رجلاً.

لقد كان قيام أبي قتادة بدورته المسلحة الصغيرة وجوسه بها خلال ديار غطفان التي كانت في الجاهلية بمثابة «عرين الأسد» لقوتها وشدة مراس رجالها في الحرب.. كان قيام أبي قتادة بهذا العمل بمثابة جس نبض واختبار لمدى قوة غطفان الحربية، أظهر حقيقة ما عليه هذه القبائل من وهن وضعف وانهار، بعد أن كانت أقوى قوة حربية يخشى المسلمون جانبها من الناحية الشرقية.

فلم تعد هذه القبائل التي كادت قواتها تجتاح المدينة في عام الأحزاب (عام ٤ هجرية) قادرة على الدفاع عن مضاربها في صحارى نجد، فضلاً عن أن تفكر في القيام بغزو المدينة كما كانت في السابق.

(١) شمت السيف، أغمده، وشمته سللته فهو من الأضداد.

(٢) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٧٧٨ وما بعدها.

## الفصل الثاني

- أسباب فتح مكة المكرمة.
- قريش تنقض صلح الحديبية.
- خزاعة حلفاء الرسول المعتدى عليهم.
- بنو بكر وقريش يغتزمون هدنة الحديبية فيقتلون في ظلها خزاعة غدراً.
- خزاعة تستنجد بحليفها الرسول ﷺ لنصرتها على قريش.
- شعور قريش بالقلق الشديد لاشتراكها في الغدر بخزاعة.
- أبو سفيان في المدينة يحاول إصلاح ما أفسدت قريش فيطلب تجديد الصلح المنقوض.
- الرسول ﷺ يرفض التفاوض مع أبي سفيان.
- فشل أبي سفيان في مهمته وعودته إلى مكة.
- قريش ترفض دفع ديات قتلى خزاعة بعد أن طلب الرسول ﷺ منهم ذلك تجنباً للحرب.
- الرسول ﷺ يقرر الزحف على مكة استجابة لاستغاثة حلفائه الخزاعين.

كان صلح الحديبية التاريخي يستهدف من وجهة نظر المسلمين فيما يستهدف، توفير الأمن والاستقرار لمنطقة الحجاز كلها، وإعطاء كل من المسلمين والمشركين في المنطقة كامل الحرية ليتصل بعضهم ببعض.

لأن ذلك يعطي عامة المشركين (في ظل هذه الحرية) الفرصة ليعرفوا الإسلام على حقيقته، وهي الحقيقة التي شوهتها زعامة الشرك والوثنية في المنطقة؛ بقصد تنفير عامة جماهير المنطقة من الإسلام الذي يشكل (في واقعه) خطراً كبيراً على كراسي الزعامة الوثنية في المنطقة وخاصة في مكة.

كان صلح الحديبية (رغم أنه في ظاهره نصر سياسي لقريش) قد عقد على كره من ساداتها ولكنهم اضطروا إلى إبرامه كبديل عن الحرب التي كانت وشيكة الوقوع والتي كانت قريش (في قرارة نفسها) تحشاها رغم تفوقها العددي على المسلمين الذين كانوا يرابطون في الحديبية بالقرب من مكة.

ولما كانت قبيلتا بني بكر الكنانية، وقبيلة خزاعة اليمانية من السكان المحيطين بالحرم وذوي ثقل على مختلف المستويات في المنطقة، وكاتنا على خلاف دموي قبلي بينهما، بقاؤه يظل مصدر تعكير لأمن المنطقة، ويجعل صلح الحديبية غير متكامل وغير محقق للأهداف (أهداف السلم الشامل الذي من أجلها أبرم) فقد اتفق الفريقان المتفاوضان (المسلمون والمشركون) على استدعاء سادات القبيلتين (بني بكر<sup>(١)</sup> وخزاعة) إلى سهل الحديبية حيث كان يجري بين الفريقين الرئيسيين (المسلمين وقريش) التفاوض لصياغة بنود معاهدة الصلح لكي تكون القبيلتان (بنو بكر وخزاعة) داخلتين في المعاهدة من حيث الالتزام بإنهاء حالة الحرب بينهما لمدة عشر سنوات شأنهما في ذلك شأن المسلمين وقريش.

انحياز خزاعة إلى المسلمين، وبني بكر إلى قريش: ولدى حضور زعماء خزاعة وبني بكر إلى الحديبية أحيطوا علمًا بما تم الاتفاق عليه بين المسلمين وقريش من الاتفاق على الصلح وإنهاء حالة الحرب لمدة عشر سنوات، ثم أعطى المتفاوضون الرئيسيون (المسلمون وقريش) لزعماء خزاعة وبني بكر مطلق الحرية ليختار كل منهم الدخول في عهد أيّ من الفريقين الرئيسيين (المسلمين وقريش) ليكونوا بهذا الاختيار حلفاء للفريق الذي يدخلون في عهده لهم ما له وعليهم ما عليه، ويكونوا ملزمين (كالمسلمين وقريش) بتطبيق بنود الصلح).

ونتيجة هذا الترخير؛ أعلنت خزاعة مسلمها وكافرها الدخول في عهد النبي ﷺ كما أعلنت بنو بكر بن عبد مناة - من ناحية أخرى - دخولها في عهد قريش، وتم تسجيل ذلك في صلب معاهدة صلح الحديبية<sup>(٢)</sup>.

وبذلك أصبحت خزاعة حليفة للمسلمين وبنو بكر حليفة لقريش وصار اعتداء أيّ من القبيلتين على الأخرى نقضًا للصلح وغدرًا تتحمل مسؤوليته الفئة التي كان المعتدى من هاتين القبيلتين حليفًا لها.

وبعبارة أوضح فإن بنود الصلح صريحة في أن قريشًا تتحمل مسؤولية أيّ نقض للصلح تقوم به بنو بكر بن كنانة، كما يتحمل المسلمون مسؤولية أيّ تصرف يناقض هذا الصلح تقوم به حليفتهم خزاعة.

(١) هم بنو بكر بن عبد مناف بطن من كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد ابن عدنان.

(٢) انظر بنود صلح الحديبية في كتابنا الخامس (صلح الحديبية).

وفاء المسلمين بالعهد: لقد كان النبي ﷺ وأصحابه - كما هي شيمتهم وخلقهم - حريصين كل الحرص على الوفاء بالعهد الذي أعطوه في اتفاقية الحديبية وتطبيق هذه الاتفاقية نصاً وروحاً انطلاقاً من القاعدة الأخلاقية النبيلة التي أرساها الإسلام وظلت ركيزة خلق المسلم الصادق في معاملته الأصدقاء والأعداء على السواء: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾ (١) . ﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَهُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٢) . ﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَهُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٣) ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾ (٤) ، ولقد أعطى النبي ﷺ الدليل العملي على الوفاء بالعهد للمشركين وحر صلح الحديبية لما يجب بعد.

فقد رأينا كيف سلم النبي ﷺ أبا جندل الشاب المسلم إلى أبيه المشرك تنفيذاً لنصوص الاتفاقية رغم أن هذا الشاب المسلم جاء إلى المسلمين فاراً بدينه (٥) .

كما رأينا كذلك فيما مضى من هذا الكتاب، كيف سلم النبي ﷺ أبا بصير (٦) للمشركين وأعاده إليهم بعد أن لجأ إلى المدينة مسلماً فاراً بدينه، ورأينا كيف أن الرسول ﷺ لم يسمح لأبي بصير بالإقامة في المدينة بعد أن تخلص من حارسه خارج المدينة؛ لأن قوله في المدينة يعتبر خرقاً ونقضاً لصلح الحديبية.

كيف نقضت قريش العهد فغزاهم المسلمون: ولكن إذا كان المسلمون قد وفوا للمشركين بالعهد الذي أعطوه وطبقوا الاتفاقية نصاً وروحاً.. هل وفّت قريش من جانبها بالعهد الذي أعطته في اتفاقية الحديبية؟ وهل احترمت شرف الكلمة التي أعطتها في هذا العهد التاريخي؟

(١) النحل ٩٠.

(٢) النحل ٩٠.

(٣) التوبة ٤.

(٤) الإسراء ٣٤.

(٥) انظر تفاصيل قصة أبي جندل المؤثرة في كتابنا الخامس من هذه السلسلة (صلح الحديبية).

(٦) تقدمت تفاصيل قصة أبي بصير في هذا الكتاب.



كلا لقد رمت بهذا العهد عرض الحائط وغدرت «وهي في ظله» كأبشع ما يكون الغدر؛ الأمر الذي جعل الصلح لاغياً، ألغته ونقضته قريش بتصرفها، واضطر النبي ﷺ إلى أن يقوم بغزوها ويتنزح مكة من أيديها انتصاراً لحلفائه خزاعة المعتدى عليهم، ووفاء بالعهد الذي أعطاه لهم بموجب صلح الحديبية، وتأديباً لقريش على ما تواطأت عليه مع حلفائها بني بكر بن كنانة من خيانة وغدر ذهب ضحيتهما أكثر من عشرين قتيلاً من خزاعة الأمانة في ظل صلح الحديبية.

كان صلح الحديبية «كما تقدم» قد أنهى حالة الحرب بين المسلمين وخزاعة من جهة وبين قريش وبني بكر من جهة أخرى لمدة عشر سنوات.

وكانت خزاعة كحلفائها المسلمين ملتزمة بالعهد لا تفكر في الإخلال به، فصار الخزاعيون «مسلمهم وكافرهم» لذلك؛ مختلطون بقريش وحلفائها من البكرين في ظل حرمة هذا الصلح، لا يفكرون في اعتداء على أحد ولا يتصورون أن أحداً من البكرين أو القرشيين سيعتدي عليهم والصلح قائم.

هكذا كان النبي وأصحابه والخزاعيون جيران الحرم حلفاؤهم ينظرون إلى الأمور من خلال منظار الوفاء بالعهد والوقوف عند شرف الكلمة التي أعطوها في اتفاقية الحديبية. بينما قريش وحلفاؤهم من بني بكر بن كنانة، صاروا ينظرون إلى الأمر في ظل صلح الحديبية من زاوية معاكسة مظلمة.

كانوا ينظرون إلى حالة الصلح القائمة والتي صار المسلمون وحلفاؤهم من خزاعة سلماً لقريش وحلفائها لا يفكرون في محاربتهم أو الاعتداء عليهم، كانوا ينظرون إلى هذه الحالة على أنها فرصة يمكن أن يحققوا فيها ما عجزوا عن تحقيقه في حالة المواجهة الحربية.

فقد كانت بنو بكر دائماً تعجز عن التغلب على قبيلة خزاعة في حروبهم القبلية الجاهلية وكان القتل يستحر بين بني بكر كلما نشبت حرب بين القبيلتين، فكثرت الثارات لبني بكر لدى خزاعة.

ولكن صلح الحديبية الذي دخل فيها الفريقان والتزما بتنفيذ بنوده وضع الحرب بين الفريقين لمدة عشر سنوات، هكذا كان يبدو الوضع عقب توقيع صلح الحديبية، ولهذا كانت خزاعة تتصرف تصرف الآمن المستأن، فلا تتخذ أية احتياطات حربية حلها وترحالها.

بينما كان بنو بكر بن كنانة يضعون الخطة الجهنمية للغدر بخزاعة بإحداث مجزرة بينهم وهم آمنون في ظل صلح الحديبية، وذلك لحسابات الثارات التي لبكر على خزاعة، وقد نفذوا هذه المجزرة (فعلاً) بمساندة حلفائهم القرشيين.

فقد كان نوفل بن معاوية سيد بني بكر بن كنانة وقائدها يترصد خزاعة ويتحين الفرص المواتية التي تمكنه من الفتك بهم دون أن يصاب أحد من بني بكر.

وعندما سنحت الفرصة لبني بكر وحلفائهم من قريش قاموا بتنفيذ جريمتهم فأوقعوا بخزاعة (غدرًا) في مكان يقال له: الوتير من أرض بني بكر، نزلته خزاعة آمنة مطمئنة في ظل الصلح المعقود في الحديبية.

اشترك القرشيين في جريمة الغدر والنكث : فقد ذكر المؤرخون أن نوفل<sup>(١)</sup> بن معاوية البكري قد أفضى إلى زعماء قريش بما ينوي القيام به من أخذ خزاعة على حين غرة وأنه طلب مساندة قريش بالمال والرجال لإنجاح ما يعتزم القيام به ضد خزاعة في ظل صلح قائم بين الفريقين.

وأكد أهل الحديث وأصحاب السير أن سادات قريش حذبوا فكرة نوفل ابن معاوية وأبلغوه استعدادهم لمساندة بني بكر بالسلاح والرجال في الهجوم على خزاعة. وقد مدّوهم بالمال والسلاح والرجال (فعلاً) حتى تمكنوا من تنفيذ جريمتهم الشنعاء حيث بيتوا خزاعة وهاجموها غدرًا في جنح الظلام).

فحملوا على رجال خزاعة في (الوتير)<sup>(٢)</sup> وهم يغطون في نومهم آمنين فأحدثوا فيهم مقتلة كبيرة؛ لأنهم عَزَل من السلاح وأخذوا على حين غرة، ولم يكتف بنو بكر ومن شاركهم من القرشيين بقتل من قتلوا من الخزاعيين وهم نيام، بل أخذوا يطاردون من تمكن من الإفلات، وصاروا يقتلونهم حتى بعد أن دخلوا الحرم الذي كان العرب جميعاً يحرّمون على أنفسهم فيه القتال مهما كانت الظروف والدوافع والمبررات.

(١) هو نوفل بن معاوية بن عروة النفاثي ثم البكري ثم الكناني، قال في الإصابة: أسلم عام الفتح، وحج مع أبي بكر الصديق سنة تسع وهو من العمرين، عاش في الجاهلية ستين وعاش في الإسلام ستين سنة، كان أبوه معاوية قائد قبيلته (الدئل) في حرب الفجار، نزل نوفل المدينة ومات بها وله أحاديث في البخاري ومسلم والنسائي، رواها عن رسول الله ﷺ عراك بن مالك وعبد الرحمن بن مطيع وأبو بكر بن عبد الرحمن ابن الحرث، مات نوفل بالمدينة في خلافة يزيد بن معاوية.

(٢) الوتير (بفتح الواو وكسر التاء) قال في مراصد الإطلاع، ماء لخزاعة بأسفل مكة، وربما قاله بعض المحدثين: (الوتين).

وقد أقدم بنو بكر وقريش على هذا العمل الفظيع ولم يفكروا فيما سيسجله عليهم جميعاً من ويلات إلا بعد فوات الأوان حيث كانت النتيجة الحتمية لهذا الغدر، هو أن تحرك النبي صلى الله عليه وسلم من المدينة بعشرة آلاف مقاتل دخل بهم مكة فاتحاً منهيماً سلطان قريش الوثني انتصاراً لخلفائه من خزاعة المغدور بهم في الحرم وفي صلح كان قائماً بين الفريقين.

المشتركون من سادات مكة في نقض العهد: ومن الزعماء القرشيين الذين شايعوا بني بكر بن كنانة في نقض عهد الحديبية وشاركوا بسلاحهم وأنفسهم في جريمة الغدر بخزاعة في الوتير، صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو العامري (الذي أمضى صلح الحديبية نيابة عن قريش) وعكرمة بن أبي جهل ومكرز بن حفص وحويطب بن عبد العزى العامرين (وهما أيضاً عضوان في وفد المفاوضة القرشي في الحديبية ومن الذين وقَّعوا على الصلح نيابة عن قريش) ويؤكد المؤرخون أن ما حدث من غدر بخزاعة حدث بموافقة جميع سادات قريش، ما عدا أبي سفيان بن حرب سيد بني عبد شمس والقائد العام للقوات القرشية، لم يستشر في الأمر وقيل: إنهم أفضوا إليه بنواياهم وطلبوا مشاركته في الغدر فأبى عليهم وحذرهم العاقبة ولكنهم مضوا لجريمتهم فارتكبوها فجرؤوا على قريش من الحرب ما أطاح بسلطانها إلى الأبد.

ومن الجير بالذكر أن بني مُدَلِج<sup>(١)</sup> من كنانة عصمهم الله فلم يشتركوا مع قومهم في جريمة الغدر ونقض العهد.

تاريخ نقض صلح الحديبية: قال الواقدي: فلما دخل شعبان على رأس اثنين وعشرين شهراً من صلح الحديبية، كَلَّم بنو نَفَاثة من بني بكر أشراف قريش - واعتزلت بنو مدلج فلم ينقضوا العهد - أن يعينوهم بالرجال والسلاح على عدوهم من خزاعة، وذكرهم القتلى الذين أصابت خزاعة لهم وذكرهم بأرحامهم، وأخبروهم بدخولهم معهم في عقدهم وعهدهم، وذهاب خزاعة إلى محمد في عقده وعهده، فوجدوا القوم إلى ذلك سراعاً إلا أبا سفيان، لم يشاور في ذلك ولم يعلم، ويقال: إنهم ذكروه فأبى عليهم، وجعلت بنو نفاثة وبكر يقولون: إنما نحن !! فأعانوهم بالسلاح والكراع (الخيل) والرجال ودسوا ذلك سراً لثلاث تحذر خزاعة فهم آمنون غارون مجال الموادعة وما حجز الإسلام بينهم، ثم اتعدت قريش الوتير موضعاً بمن معها فوافى للميعاد فيهم رجال من قريش من كبارهم متنكرون منتقون هم صفوان بن أمية ومكرز بن حفص بن الأخيف،

(١) هم بنو مدلج بن مرة بن عبد مناف بن كنانة بن خزيمية بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

وحويطب بن عبد العزى، وأجلبوا معهم أرقاءهم، قال: ورأس بني بكر نوفل بن معاوية الدؤلي، فبيتوا خزاعة ليلاً وهم غارون آمنون من عدوهم، ولو كانوا يخافون هذا لكانوا على حذر وعدة، فلم يزالوا يقتلونهم حتى انتهوا بهم إلى أنصاب الحرم<sup>(١)</sup>.

وبالرغم من احتماء خزاعة العُزُل من السلاح بالحرم فقد أصر قائد بني بكر نوفل ابن معاوية على قتل خزاعة داخل الحرم.

وعندما نصحه بعضُ قومه أن يتوقف عن القتل لأنه داخل الحرم الذي لا يُجيز العرب القتل فيه أصر على الإمعان في الجريمة، ولما قال له بعض رفاقه: إنا قد دخلنا الحرم إلهك يا نوفل (أي خف إلهك)، قال كلمة كفر عظيمة: (لا إله لي اليوم ثم أمر قومه بالاستمرار في اغتنام الفرصة قائلاً: يا بني بكر أصيبوا ثأركم فلعمري إنكم لتسرقون الحاج في الحرم أفلا تصيبون ثأركم فيه، ثم أصدر أوامره المشددة إلى بني بكر بمواصلة قتل خزاعة قائلاً: لا يريد أحدكم يأتي امرأته حتى يستأذني، لا يؤخر أحد منكم اليوم بعد يومه هذا من ثأره<sup>(٢)</sup>.

فاستمرت بنو بكر في مطاردة خزاعة العُزُل من السلاح، حتى ألبأهم إلى مكة. فالتجأت خزاعة إلى منزلي بدليل بن ورقاء الخزاعي، ورافع مولى لهم وذلك عند طلوع الفجر.

وكان المشركون من قريش في الجريمة ضمن رجال نوفل بن معاوية يطاردون الخزاعيين حتى دخلوا منزلي بدليل ورافع بمكة، وهناك انسحب القرشيون المشتركون في الهجوم ودخلوا منازلهم، وهم يظنون أن أحداً لن يعرف اشتراكهم في القتال، وأن النبي ﷺ لن يبلغه ما صنعوا من مشاركتهم بني بكر في الغدر ونقض العهد.

أما بنو بكر فقد واصلوا هجومهم على خزاعة داخل مكة بعد أن طلع الفجر، وقتلوا منهم على باب بدليل بن ورقاء ورافع مولى لخزاعة - عشرين رجلاً دون أن يعترضهم أحد من قريش الأمر الذي يدل على التواطؤ القرشي مع بني بكر.

(١) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٧٨٣.

(٢) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٣٢ ومغازي الواقدي ج ٢ ص ٧٨٣.

إلا أن أفراداً من قريش تنبَّهوا للأمر، وخافوا مغبة هذا الغدر، وأدركوا أن ما حدث من قريش وحلفائها بني بكر نقض للعهد الذي بينهم وبين الرسول ﷺ .

فجاء الحارث بن هشام وعبد الله بن أبي ربيعة إلى سهيل بن عمرو وعكرمة بن أبي جهل ومكرز بن حفص وحويطب بن عبد العزى، فلاموهم فيما صنعوا من عونهم بني بكر. وذكروهم بأن بينهم وبين محمد مدة وعهداً، وأن الذي صنعوا هو نقض للمدة - وكان نوفل بن معاوية وقومه البكريون مصممين على إفناء الخزاعيين الموجودين بمكة - غير أن سهيل بن عمرو وصفوان بن أمية ورفاقهما من قريش المشتركين في الجريمة تأثروا بكلام الحارث بن هشام، فذهبوا إلى شريكهم في نقض العهد نوفل بن معاوية، ومنعوه من الاستمرار في قتل خزاعة قائلين: قد رأيت الذي صنعنا بك وأصحابك وما قتلت من القوم، وأنت قد حضرت تريد قتل من بقى منهم، وهذا ما لا نطواعك عليه فاتركهم لنا، فقال: نعم فأوقف القتل، ثم غادر بقومه مكة <sup>(١)</sup> .

قريش تندم على ما ارتكبت ولكن : وبعد أن ارتكب بنو بكر بن كنانة ومن ساندهم من سادات قريش ما ارتكبوا من الغدر بخزاعة، ندمت قريش وخافت، بعد أن أدركت أن صنيعها هو نقض صريح للعهد الذي أبرمته في الحديبية، لا سيما وأن الذين وقعوا نيابة عن قريش على وثيقة صلح الحديبية، (سهيل بن عمرو، ومكرز بن حفص، وحويطب بن العزى) قد اشتركوا في جريمة الغدر بخزاعة مستغلين ومغتتمين هدنة الحديبية.

قالوا: ومشى الحارث بن هشام <sup>(٢)</sup> عبد الله بن أبي ربيعة <sup>(٣)</sup> إلى أبي سفيان بن حرب منددين بما حدث قائلين: هذا أمر لا بد له من أن يصلح والله لئن لم يصلح هذا الأمر لا يروءكم إلا محمد في أصحابه، فلما رأى أبو سفيان ما رأى من الشر قال: هذا والله أمر لم

(١) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٧٨٤ - ٧٨٥.

(٢) انظر ترجمة الحارث بن هشام في كتابنا (صلح الحديبية).

(٣) هو عبد الله بن أبي ربيعة قال ابن حجر في الإصابة: واسمه (عمرو، وقيل حذيفة) ويلقب ذا الرمحين بن المغيرة بن عبد الله بن مخزوم، أحد سادات قريش في الجاهلية وهو أخو أبي جهل بن هشام لأمه، كان أحد أعضاء الوفد الذي أرسلته قريش إلى الحبشة ليطلب من النجاشي تسليم المهاجرين المسلمين أسلم عام الفتح . استقرض منه الرسول ﷺ وهو في طريقه إلى حنين - بضعة عشر ألفاً فأقرضه، فلما عاد ﷺ من حنين قال له: خذ ما أسلفت بارك الله لك في مالك وولدك، إنما جزاء السلف الحمد والوفاء، ولاه عمر قيادة الجند، مات في خلافة عثمان، سقط عن راحلته قرب مكة، وهو في طريقه لنصرة عثمان.

هذا الالتزام نصاً وروحاً حين أعاد أبا بصير إلى قريش وأسلمه إلى حارسه العامرين كما تقدم، وحتى عندما تمكن أبو بصير من الإفلات من حارسه وقتل أحدهما خارج المدينة، وعاد إليها لم يسمح له النبي ﷺ بالإقامة فيها؛ لأن ذلك يخالف روح اتفاقية الحديبية، والرسول ﷺ لا يمكن أن يأتي منه عمل يخدش العهد الذي أعطاه، فضلاً عن أن يأتي منه ما ينقضه.

كذلك فإن الرسول ﷺ ليس مسئولاً عن أية أعمال عسكرية يقوم بها مسلمون من أبناء قريش أنفسهم أو من غيرهم ممن لم يكونوا قد هاجروا واتخذوا المدينة داراً لهم، وأصبحوا أصحاباً للنبي ﷺ، فالرسول ﷺ إنما أعطى العهد في الحديبية لقريش عن نفسه وعن أصحابه في المدينة، أما أبناء قريش الذين هم قادة الثورة ضد المشركين من أهلهم فليس الرسول مسئولاً عن أعمالهم الحربية ضد أهلهم.

**استقلال الثوار في العيص :** وظل ثوار العيص المسلمون يديرون شئونهم بأنفسهم - بقيادة أبي بصير ونائبه أبي جندل - ليست لهم أية صلة إدارية بالمدينة، بسبب صلح الحديبية الذي التزم فيه المسلمون كما التزم فيه المشركون بأن لا يباشر أحد الطرفين ضد الآخر أية أعمال حربية لمدة عشر سنوات.

ولهذا فإن ثوار العيص الأبطال لم يفكروا في الاتصال بالنبي ﷺ بشأن أعمالهم العسكرية التي يقومون بها ضد قريش، أو بشأن ما يغنمون من أموال هؤلاء القرشيين، لا سيما بعد أن أبلغ الرسول ﷺ الثائر الأول (أبا بصير) أن اعتباره ﷺ سلب العامري (الذي قتله أبو بصير) وبعيره غنيمة يحمسها فيه مخالفة لاتفاقية صلح الحديبية، ولهذا لم يقبله الرسول ﷺ.

**حكومة العيص المستقلة:** ولهذا يمكننا (إذا تجاوزنا في التعبير) أن نقول: إن ثوار العيص قد أنشأوا لهم (في العيص) ما يشبه الحكومة المستقلة قوام جيشها (الذي هو أيضاً شعبها) ثلثمائة رجل أقضوا مضاجع القرشيين في مكة وشلوا حركتهم التجارية، بعد أن ألحقوا بهم الخسائر الفادحة في الأرواح والأموال، بينما ظلوا (في قرارة أنفسهم) على ولاء كامل لحكومة الرسول ﷺ في المدينة.

وإذا كانت المدينة (دون ما تدبير من حكومتها) قد استفادت (عسكرياً وسياسياً) من نشاط الثوار في العيص، لارتباطها بهؤلاء الثوار عقائدياً، إذ هم (في الواقع) محسوبون عليها ومنها وإليها (كمسلمين) حال وفاء النبي ﷺ لكفار مكة بالعهد الذي أبرمه معهم في الحديبية دون استقبالهم وإيوائهم في المدينة، فإن المعسكر القرشي بمكة قد تضرر إلى أبعد الحدود واشتد جزعه بعد أن أصيب بأفدح الخسائر في الأرواح والأموال.

شرط.. هم اشترطوه فعاد عليهم بالوبال: بالرجوع إلى مقدمات صلح الحديبية التاريخي وإلى ما واكب هذا الصلح من عناد وتعنت أبداه الجانب القرشي في المفاوضات، وبالرجوع إلى بنود هذا الصلح الذي تم إبرامه بين المسلمين وبين مشركي قريش في السنة الخامسة من الهجرة، نجد أن قريشاً قد أصرت على إملاء شرط رأت أنه انتصار لها، ورأى المسلمون أن قبول النبي ﷺ به فيه مساس بكرامتهم فنزل بهم لذلك هم عظيم. فعارضوا الصلح أشد المعارضة، ولكن النبي ﷺ (رغم ذلك) قبل بهذا الشرط الذي يلزم المسلمين بأن لا يقبلوا ولا يؤوا في المدينة أحداً جاءهم من أبناء قريش وأن يعيدوه إلى أهله المشركين حتى وإن جاء مسلماً.

وعلى هذا الأساس (وبموجب هذا البند) لم يسمح النبي ﷺ لأبي بصير بالإقامة في المدينة عندما جاء مسلماً فاراً من سجون الشرك في مكة، بل أعاده إلى قريش عندما بعثوا في طلبه، ولكنه تمكن من قتل أحد حارسيه (كما تقدم) ثم تحول إلى ثائر في العيص ضد أهله المشركين بعد أن رفض النبي ﷺ للمرة الثانية إيواه في المدينة، فالتحق به في العيص كل المستضعفين في سجون مكة من المسلمين.

وهنا شعر وأدرك قادة قريش أن هذا الشرط الذي أملاه عنادهم وكبرياؤهم الجاهلي ففرضوا إدراجه ضمن شروط صلح الحديبية<sup>(١)</sup> قد عاد عليهم بأوخم العواقب. حيث كان التزام النبي ﷺ بهذا الشرط وتنفيذه له سبباً في اندلاع نيران ثورة مسلحة ضد مشركي مكة، قام بها في العيص أولئك الرجال المسلمون من قريش نفسها، والذين رفض النبي ﷺ إيواهم في المدينة وأعلن أنه سيعيد إلى قريش كل من جاء منهم تطبيقاً للشرط الذي أمّلته قريش في الحديبية وقبل به.

(١) انظر تفاصيل شروط وبنود هذا الصلح في كتابنا الخامس من هذه السلسلة (صلح الحديبية).

فاضطر هؤلاء المسلمون المستضعفون - بعد أن تمكنوا من الإفلات من سجون مكة - إلى أن يلجأوا إلى مكان يجعلهم في مأمن من الوقوع مرة أخرى تحت سلطان المشركين من أهاليهم الذين نكلوا بهم وأهانوهم لاتباعهم دين الإسلام ونبذهم دين الوثنية.

برلمان قريش يبحث أمر الثورة في العيص: وعندما استفحل أمر ثوار العيص ضد مشركي مكة عقد برلمان مكة جلسة تدارس فيها الوضع المتردي الذي نتج عن ثورة العيص ضدهم، إلا أنهم في مجتهدهم وتشاورهم لحل مشكلة هذه الثورة المسلحة وصلوا إلى طريق مسدود.

فالرسول ﷺ لم تكن هذه الثورة ضمن نطاق سلطان حكومته حتى تحمله قريش مسئوليتها وتطلب منه إيقافها تنفيذًا لشروط صلح الحديبية، بل إن هذه الثورة لم يندلع لها ضد مشركي مكة إلا بسبب أن الرسول ﷺ وفى لقريش بشرطها فرفض قبول هؤلاء الشباب وإيواءهم في المدينة رغم أنهم مسلمون هاجروا من مكة فرارًا بدينهم وقريش ليس في مقدورها أن تجرد الجيوش لقمع ثورة هؤلاء الثوار في العيص من أبنائها، فما العمل إذن؟.

تداول زعماء قريش الرأي فيما بينهم (بدار الندوة) فاتفقوا على أنه لم يكن من سبب للمتعاب الخطيرة التي يعانون منها سوى الشرط المتعسف الذي أملاه كبريائهم الجاهلي فأصروا على إدراجه ضمن شروط الصلح في الحديبية، والذي يلزم الرسول ﷺ بأن لا يأوي ولا يقبل أحدًا من أبنائهم جاء إلى المدينة وأن يعيده إليهم (إذا طلبوا تسليمه) حتى وإن كان مسلمًا.

قريش تلتمس من الرسول إلغاء الشرط الذي أصرت عليه: ولهذا قرروا بالإجماع أن يتقدموا إلى الرسول ﷺ بالتماس يطلبون فيه منه التكرم عليهم بقبول إلغاء البند الثامن من معاهدة الحديبية والذي أصروا في عناد على إدراجه في المعاهدة والقاضي بعدم إيواء أي من أبنائهم في المدينة حتى وإن جاء مسلمًا.

وقرروا: أن يناشدوا الرسول ﷺ الرحم بأن يطلب من أبنائهم الثوار في العيص أن يتركوا مواقعهم في الساحل ويعودوا إلى المدينة؛ لأنه لا سبيل إلى إنهاء ثورة أبنائهم العارمة ضدهم إلا بأن يطلب الرسول ﷺ من هؤلاء الثوار المجيء إلى المدينة.



أبو سفيان رسول قريش في المدينة : وبناء على القرار الذي اتخذته برلمان مكة (دار الندوة) اتفق زعماء عشائر قريش على أن يكتبوا رسالة ويوفدوا بها أحد كبارهم إلى المدينة ليسلمها إلى الرسول ﷺ، وكان هذا المبعوث هو أبا سفيان بن حرب الذي توجه إلى المدينة يحمل إلى النبي ﷺ رسالة قريش التي تتضمن الرجاء أن يطلب النبي ﷺ من ثوار العيص الحجىء إلى المدينة وترك مواقعهم في الساحل، كما تضمنت هذه الرسالة قبول قريش بإسقاط الشرط المتعنت الذي كان من وحي عنادها وصلفها.

فقد جاء في هذه الرسالة قول قريش يخاطبون الرسول ﷺ - وهم يستعطفونه ويسترحمونه - : «أننا أسقطنا هذا الشرط من الشروط، من جاء منهم (أي المسلمين من قريش) إليك فأمسكه في غير حرج فهو آمن إن هؤلاء الركب (يعني ثوار العيص) قد فتحوا علينا بأبا لا يصلح إقراره<sup>(١)</sup> إننا نسألك بالأرحام إلا ما أويتهم فلا حاجة لنا بهم»<sup>(٢)</sup>.

انتهاء الثورة وعودة الثوار إلى المدينة: وعندما سلم أبو سفيان بن حرب النبي ﷺ رسالة قومه وعرف مضمونها، لم يتردد في الاستجابة لرجاء قومه الذين ناشدوه الرحم، ولم يساوم، ولم يبد أي تشدد إزاء استرحام قومه بالرغم من أن بقاء ثوار العيص في معاقلهم يسبب أفدح الخسائر في الأرواح والأموال لقريش الذين لم يتركوا وسيلة للإضرار بالنبي ﷺ وأصحابه والتنكيل بهم إلا واتبعوها.

ولكن أئى للأحقاد أن تجد سبيلها إلى قلب رجل أرسله الله رحمة للعالمين! هدفه هداية قومه وإنقاذهم من الضلال لا التنكيل بهم؟. أليس هو الذي يقول (وهو في أشد حالات المحنة في مكة من قومه): «اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون»؟.

وانطلاقاً من روح التسامح وطرح الضغائن والأحقاد جانباً، استجاب الرسول ﷺ لرجاء قومه، فكتب إلى قائد الثوار في العيص (أبي بصير ونائبه أبي جندل) أن يتركا مواقعهما ويقدا عليه في المدينة برجالهما.

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٥١.

(٢) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٢٤.

قائد الثوار يموت وهو يقرأ كتاب رسول الله ﷺ: وذكر أن كتاب رسول الله ﷺ هذا إلى قائد الثورة (أبي بصير) وصل وهذا القائد البطل في حالة الاحتضار من مرض ألم به، ففرض الكتاب وشرع في قراءته إلا أن روحه الطاهرة فاضت إلى بارئها وكتاب الرسول ﷺ في يده، ومات «على ما يظهر» قبل أن يكمل قراءته.

فتسلمه نائبه أبو جندل بن سهيل بن عمرو، الذي حل محله في قيادة الثوار، فقرأه، ثم قام الثوار بدفن الثائر الأول البطل «أبي بصير» في معقل الثوار بالعيص، وبعد ذلك تولى أبو جندل تنفيذ أمر الرسول ﷺ فأمر بإنهاء النشاط المسلح ضد مشركي مكة، وأبلغ جنوده بأن تلك هي رغبة الرسول الأعظم ﷺ.

فأطاع الجميع الأمر، ثم اتجه أبو جندل بشباب قريش المسلمين نحو المدينة وكانوا سبعين رجلاً، بينما قرر بعض الثوار من غير القرشيين العودة إلى بلادهم، وكان من بين ثوار العيص الشباب، الوليد بن الوليد المخزومي، أخو خالد بن الوليد، الذي مات عند وصوله المدينة من جرح أصابه فانقطعت له أصبعه عندما عثر في الحرّة، فربط رجله وهو يقول:

هل أنت إلا أصبُعٌ دُميتُ      وفي سبيل الله ما لقيتُ <sup>(١)</sup>.

انكشاف الغطاء أكثر فأكثر: وبما آل إليه ثوار المستضعفين في العيص، وما وصلوا إليه من قوة ومنعة أفضت مضاجع قريش الكفر، وجعلتهم يطلبون (صاغرين) من الرسول الأعظم ﷺ مسترحيه ومناشديه الرحم أن يسقط الشرط الذي أملوه في الحديدية (كبرياءً وصلفاً) وهو الشرط الذي تضايق منه الأصحاب أشد التضايق وعارضوا الصلح تلك المعارضة الشديدة، نعم بالمكاسب العظيمة التي حققها ثوار العيص ضد طغيان الوثنية، التي انحنت (صاغرة) فطلب زبانتها إلغاء الشرط الذي أملوه في الحديدية (بغياً وبطراً ورياء الناس) تكشف الحقائق أكثر فأكثر وانكشف للصحابه الذين قصرت مداركهم عن المدى الذي بلغه فهم وإدراك أشرف الناس محمد ﷺ حينما قبل هذا الشرط.

(١) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٦٩.

وازداد يقين هؤلاء الأصحاب أن طاعة رسول الله ﷺ خير مما أحبوه يوم الحديبية من عدم القبول بشرط قريش ذلك الذي لولا إصرار قريش على وضعه ضمن بنود معاهدة الصلح في الحديبية، ما اندلعت ثورة المستضعفين في العيص، والتي أنزل فيها هؤلاء الثوار البواسل بالمعسكر القرشي أفدح الخسائر في الأرواح والأموال.

فقد كانت هذه الثورة لصالح المعسكر الإسلامي في المدينة، استفاد منها فائدة كبرى دون أن تكون له يد فيها، ودون أن يتعرض لأيّ اتهام بأنه أخل بالالتزامات التي التزم بها النبي ﷺ في صلح الحديبية.

وقد قرّت عين أبي جندل بن سهيل بن عمرو (نائب قائد الثورة) قرّت عينه وأعين إخوته من شباب قريش المسلمين بما حققته ثورتهم في العيص من مكاسب بها انتصفوا لأنفسهم ولدينهم من قاهريهم ومضطهديهم المشركين.

فقد عاد أبو جندل وإخوته الثوار من العيص إلى المدينة مرفوعة رءوسهم، وكأني بأبي جندل - وهو يدخل المدينة مشرق الوجه قرير العين - يستعرض ذكريات الحديبية المؤلمة، ويتذكر على وجه الخصوص ما قاله النبي ﷺ وهو يعيده إلى أبيه المشرك مكبلاً يرسف في قيوده الحديبية، تنفيذاً للعهد الذي أعطاه المشركين في وثيقة الصلح: «إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم على ذلك وأعطيناهم عهداً وإنا لا نغدر بهم: يا أبا جندل اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً».

فها هو أبو جندل الشاب المؤمن الصابر المحتسب يرى ما وعده به الرسول ﷺ في الحديبية حقيقة ماثلة، فقد جعل الله لأبي جندل ومن معه من شباب الإسلام القرشي المظلوم المضطهد فرجاً ومخرجاً.

فها هم (بعد أن نجاهم الله من سجون الإرهاب الشركية في مكة) يتوافدون من العيص على المدينة مفعمة قلوبهم بالغبطة والسرور للسماح لهم بالاندماج في أسرهم الإسلامية الكبرى، بعد أن شفى الله غيظ قلوبهم من أعداء الله المشركين الذين قد ساموهم سوء العذاب في سجون مكة ومعقلاتها؛ لأنهم كانوا فضلوا التوحيد على الشرك.

أشهدده ولم أعب عنه، لا حُمِلَ هذا إلا على، ولا والله ما شوورت ولا هويت حيث بلغني ! والله ليغزونا محمد إن صدقتني ظني وهو صادق (١) .

قريش تقرر إرسال مبعوث خاص إلى المدينة لإصلاح ما أفسدت: واجتمعت قريش في دار الندوة للبحث والتشاور بصدد الجريمة التي شاركوا فيها، واتفقت آراؤهم على أن ما حدث منهم ومن بني بكر، هو نقض صريح للعهد، وأن النبي ﷺ لا بد وأن يتخذ إجراءً عسكرياً حاسماً للرد على هذا التصرف الذي هو خرق فاضح للعهد المعقودة بين الفريقين في الحديبية.

ينصح قريشاً بتحمل ذيات القتلى: وكان عبد الله بن أبي سرح (٢) - وهو عند قريش كافر مرتد - يحضر اجتماعات دار الندوة لبحث التطورات التي تتوقعها قريش من جانب المسلمين على أثر النقض الفاضح للعهد الذي بين الفريقين، فقال لهم عبد الله بن سعد ابن أبي سرح: إن عندي رأياً أن محمداً ليس يغزوكم حتى يُعذِرَ إليكم ويخبركم في خصال، كلها أهون عليكم من غزوه، قالوا: ما هي؟

قال: - وكان عالماً بأخلاق رسول الله ﷺ لأنه كان يكتب الوحي -: يرسل أن أدوا قتلى خزاعة « وهم ثلاثة وعشرون قتيلاً»، أو تبرأوا من حلف من نقض العهد بيننا - بنو نفاثة - أو نبذ إليكم الحرب، فما عندكم في هذه الخصال؟  
قال القوم: آخر ما قال ابن أبي سرح وكان به عالماً، فقال سهيل بن عمرو: ما خصلة أيسر علينا من التبرؤ من حلف بني نفاثة: قال شيبه بن عثمان العبدي حفظت أخوالك وغضبت لهم ! قال سهيل: وأبو قريش لم تلده خزاعة، قال شيبه: لا، ولكننا ندى قتلى خزاعة، فهو أهون علينا، فقال قرظة بن عبد عمرو: لا والله لا يودن ولا نبرأ من حلف نفاثة بن الغوث، ولكن نبذ إليه على سواء «أي نحاربه».

فقال أبو سفيان: ما هذا بشيء وما الرأي لنا إلا جحد هذا الأمر، أن تكون قريش دخلت في نقض عهد وقطع مدته، فإن قطعه قوم بغير هوى منا ولا مشورة فما علينا، قالوا هذا الرأي لا رأي غيره، الجحد لكل ما كان من ذلك قال: وإني لم أؤمر فيه وأنا في ذلك صادق، لقد كرهت ما صنعتكم وعرفت أن سيكون له يوم عماس (٣).

(١) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٧٨٥.

(٢) انظر ترجمة عبد الله بن سعد بن أبي سرح (فيما مضى من هذا الكتاب).

(٣) يوم عماس: بفتح العين أي مظلم.

قالت قريش لأبي سفيان واخرج أنت بذلك <sup>(١)</sup>.

قريش تقرر إرسال مبعوثاً خاصاً إلى المدينة لإصلاح ما أفسدت: وبعد مشاورات طويلة أجمع سادات دار الندوة بمكة على أن يجحدوا اشتراكهم في نقض العهد وأن أنجح وسيلة لرأب الصدع واستمرار مفعول الهدنة هو أن تبعث قريش إلى النبي ﷺ مبعوثاً على مستوى عال يبلغه رغبتها في أن يزيد مدة الهدنة؛ لأنه إذا ما أجابها إلى رغبتها هذه، تكون قد أمّنت العقاب على ما صنعت، وحصلت على تجديد الصلح الذي نقضته بمشاركتها بني بكر في الاعتداء على خزاعة حلفاء النبي ﷺ.

أبو سفيان مبعوث قريش في المدينة: وأجمع أشياخ دار الندوة على أن يكون مبعوث قريش الخاص إلى المدينة لمفاوضة الرسول ﷺ لجديد الصلح هو أبو سفيان بن حرب قائد عام جيوش قريش.

كانت قريش تظن أن خبر اشتراكها في الجريمة لن يصل إلى النبي ﷺ قبل وصول مبعوثها الخاص أبي سفيان بن حرب إلى المدينة.

فقد قال أبو سفيان: وما لي بد من أن آتي محمداً فأكلمه أن يزيد في الهدنة ويجدد العهد قبل أن يبلغه هذا الأمر، وخرج أبو سفيان وخرج معه مولى له على راحلتين، فأسرع السير وهو يرى أنه أول من خرج من مكة إلى رسول الله ﷺ <sup>(٢)</sup>.

خزاعة تستنجد بمخلفها الرسول ﷺ: غير أن ظن أبي سفيان وقومه كان خطأ حين ظنوه، فقد كانت خزاعة أسرع من قريش حيث أبلغت النبي ﷺ تفاصيل هذا العدوان الغادر قبل أن يصل أبو سفيان إلى المدينة بعدة أيام.

ف عقب حدوث هذا العدوان بعثت خزاعة رسولاً خاصاً (فارساً) وهو عمرو بن سالم الخزاعي <sup>(٣)</sup> ليلغ النبي ﷺ خبر ما تعرضت له خزاعة على يد بني بكر بن كنانة وحلفائهم القرشيين من قتل (غدرًا) في ظل الصلح القائم.

وفي الوقت الذي لا يزال فيه أشياخ دار الندوة يبحثون ( في برلمانهم العشائري) موضوع تورطهم في نقض العهد بمشاركتهم بني بكر الهجوم على خزاعة، كان عمرو بن سالم في المدينة بين يدي الرسول ﷺ يشرح له تفاصيل ما تعرضت له حليفته خزاعة من عدوان بشع غادر جبان.

(١) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٧٨٨.

(٢) انظر مغازي الواقدي وسيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد الكبرى وتاريخ الطبري.

(٣) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٣٧.

فقد وقف عمرو بن سالم في المسجد النبوي وقال شارحاً أحداث العدوان شعراً:

اللهم إني ناشداً محمداً حلف أبينا وأبيك الأتلدا

قد كنتموا ولدًا وكنا والداً ثمّت أسلمنا ولم ننزع يدا

ثم أشار عمرو إلى قيام قريش بنقض صلح الحديبية طالباً من النبي ﷺ النصره بتأديب الغادرين الناكثين بالزحف عليهم وإنهاء وجودهم:

إن قريشاً أخلفوك الموعدا ونقضوا ميثاقك المؤكدا

فانصر هداك الله نصراً وادع عباد الله يأتوا مددا

فيهم رسول الله قد تجردا في فيلقٍ كالبحر يجري مزبدا

قِرْمٌ لِقِرْمٍ من قروم أصيدا

ثم شرح عمرو بن سالم للرسول ﷺ كيف غدرت بهم بنو بكر وقريش وقتلوهم وهم آمنون في الوتير وداخل مكة نفسها وهم يصلون القرآن فقال:

هم بيتونا بالوتير هجّدا نتلوا القرآن ركعا وسجدا

وجعلوا في كداء رصدا وزعموا أن لست أدعو أحدا

وهم أذلّ وأقلّ عددا

وبعد أن سمع الرسول ﷺ من زعيم خزاعة عمرو بن سالم هذا الشعر المؤثر الذي شرح فيه ما تعرضت له خزاعة من عدوان غادر، غضب ﷺ للذي فعلت قريش وبنو بكر. فأبلغ مبعوث خزاعة استعداده الكامل لنصرتها والانتقام لها ممن غدروا بها قائلاً: نصرت يا عمرو بن سالم.

ثم خرج رسول الله ﷺ من المسجد والغضب باد عليه وهو يردد تأكيده بأنه سينصر خزاعة المظلومة على قريش الظالمة.

فقد حدث عبد الحميد بن جعفر بن عمران بن أبي أنس عن ابن عباس (1) قال: قام

(1) هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ابن عم النبي، أمه أم الفضل لبابة بنت الحارث الهلالية ولد وبنو هاشم محصورون بالشعب قبل الهجرة بثلاثة أعوام قبض النبي ﷺ وابن عباس ابن عشر سنين، كانت أولى المعارك التي خاضها معركة أفريقية في تونس تحت قيادة عبد الله بن سعد ابن أبي سرح سنة سبع وعشرين هـ، كان أبيض

رسول الله ﷺ وهو يجز طرف ردائه، وهو يقول: لا نُصِرْتُ إن لم أنصر بني كعب - يعني خزاعة.. مما أنصر منه نفسي<sup>(١)</sup>.

وفد خزاعة الموسع : وكانت خزاعة ... بعد أن بعثت بعمر بن سالم عاجلاً أرسلت خلفه وفداً كبيراً من أربعين رجلاً على رأسهم أحد زعمائها وهو بديل بن ورقاء<sup>(٢)</sup>. فحضر إلى المدينة وقابل الرسول ﷺ وشرح له - بالإضافة إلى ما سمعه من عمرو بن سالم - حوادث العدوان من قريش وكرر الوفد طلب النصر للأخذ بحق ثلاثة وعشرين قتيلاً قتلتهم قريش وحلفاؤهم من بني بكر غدراً، فأكد رسول الله ﷺ لخزاعة أنه سيأخذ بحقها من أعدائها. قالت عائشة<sup>(٣)</sup> سمعت رسول الله ﷺ وقد دخل - ودعا بماء - يقول وهو يصب الماء عليه وهو مغضب: لا نُصِرْتُ إن لم أنصر بني كعب<sup>(٤)</sup>.

عودة وفد خزاعة إلى ديارهم : وبعد أن حصل وفد خزاعة من الرسول ﷺ على وعد بنصرتهم عادوا إلى ديارهم، وكان رسول الله ﷺ قد أمر رجال وفد خزاعة بأن لا يعودوا مجتمعين، فقال: أرجعوا وتفرقوا في الأودية<sup>(٥)</sup>، ولكن بعضهم التقى بأبي سفيان في الأبواء وهو في طريقه إلى المدينة فاستخبرهم ما إذا كانوا قد جاءوا المدينة فلم يخبروه، ولكن عرف بأسلوبه الخاص أنهم جاءوها.

النبي يطلب من قريش دفع ديات قتلى خزاعة فترفض : لاشك أن ما حدث من قريش وبني بكر في الوتير ومكة من عدوان غادر على خزاعة يعتبر نقضاً صريحاً للصلح

طويلاً مشرباً صفرة جسيماً وسيماً صبيح الوجه، إذا جلس أخذ مقعد رجلين. وروى أن النبي ﷺ مسح رأسه وقال اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل من أكثر الصحابة علماً، يلقب بحجر الأمة، ويقال إنه في حرب أفريقية قابل جرجير قائد الرومان فأعجب به وقال: ما ينبغي إلا أن تكون حبر العرب وفي معجم البغوي عن عطاء ما رأيت أكرم من مجلس ابن عباس، أكثر فقهاً وأعظم خشية وقال طاوس رأيت سبعين من أصحاب رسول الله ﷺ إذا تداروا في أمر صاروا إلى قول ابن عباس: ولاة الخليفة على البصرة، وكان علي ميسرته يوم صفين وهو ترجمان القرآن ولما مات ابن عباس: قال عمرو بن دينار: مات رباني هذه الأمة توفى ابن عباس في الطائف سنة ثمان وستين وهو ابن إحدى وسبعين سنة.

(١) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٧٩١.

(٢) تقدمت ترجمة بديل بن ورقاء في هذا الكتاب.

(٣) انظر ترجمة عائشة في كتابنا (غزوة بدر الكبرى).

(٤) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٧٩١.

(٥) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٧٩١.

الذي تم إبرامه في الحديبية في السنة السادسة من الهجرة والذي بموجبه اتفقت قريش وبنو بكر من جهة والرسول ﷺ وخزاعة من جهة أخرى على إنهاء حالة الحرب بين الفريقين عشر سنوات يأمن الناس فيها بعضهم بعضاً.

ومن حق الرسول ﷺ أن يتخذ الإجراء الحاسم المناسب ضد قريش كرد على هذا العدوان الناسف للصالح.

غير أن الرسول ﷺ قبل أن يتخذ أية خطوات للعمل العسكري ضد قريش، وانطلاقاً من قاعدة حرصه على حقن الدماء - حتى وإن كانت دماء أعدائه الذين يطمع في هدايتهم - قرر أن يبعث (أولاً) إلى قريش برسالة مع مبعوث خاص يُخبرهم بين ثلاثة أمور، إما أن يدفعوا ديوات القتلى من خزاعة، وإما أن يبرأوا من حلف نُفائة - الفخيدة من بني بكر التي هي المسئول الأول عن الغدر والنكث - وإما أن ينبذ إليهم على سواء، أي يعلن الحرب الشاملة عليهم، وقد بعث الرسول ﷺ إلى قريش بهذا التخيير العادل، ولكن قريشاً رفضت كلا الحلين العادلين وقبلت الحرب.

ورواية التخيير هذه لم يروها أحد من أصحاب السير والمغازي غير الإمام الواقدي. فقد قال في كتابه المغازي ج ٢ ص ٧٨٦، وقد سمعنا وجهاً من أمر خزاعة لم أر عليه الناس قبلنا ولا يعرفونه، وقد رواه الثقات ومخرجه الذي ردّ إليه ثقة مقنع فلم أر أحداً يعرف له وجهاً، وذكرته لابن جعفر ومحمد بن صالح ولأبي معشر وغيرهم ممن له علم بالسيرة فكلهم ينكره ولا يأتي له بوجه، غير أن الواقدي يؤكد صحة هذه الرواية فيقول:

وكان أول الحديث أنه حدثني الثقة عندي، أنه سمع عمرو بن دينار يخبر عن ابن عمر <sup>(١)</sup>، أنه لما قدم ركب خزاعة على رسول الله ﷺ فأخبره بمن قتل منهم، قال رسول الله ﷺ: فمن تهمتكم وطلبتكم؟ قالوا: بنو بكر. قال: كلها؟ قالوا: لا، ولكن تهمتنا بنو نُفائة قصرة، ورأس القوم نوفل بن معاوية الثفائي. قال: هذا بطن من بني بكر وأنا باعث إلى أهل مكة فسائلهم عن هذا الأمر ومخيرهم في خصال.

فبعث إليهم ضمرة <sup>(٢)</sup> يخبرهم بين إحدى ثلاث خلال، بين أن يدوا خزاعة، أو

(١) انظر ترجمة عبد الله بن عمر في كتابنا (غزوة أحد).

(٢) اسم ضمرة يطلق على كثير من الصحابة ولم يقل الواقدي هنا ضمرة ابن من.



يرأوا من حلف نُفَائة، أو ينبذ إليهم على سواء، فأتاهم ضمرة رسول رسول الله ﷺ وخبرهم بالذي أرسله رسول الله ﷺ، يخيرهم بين أن يذؤا قتلى خزاعة، أو يرأوا من حلف نُفَائة، أو ينبذ إليهم على سواء، فقال قرظة بن عبد عمرو الأعجمي (١)، إما أن ندى قتلى خزاعة، فإن نفاثة قوم فيهم عرام فلا نديهم حتى لا يبقى لنا سبد ولا لبد، وإما أن نبرأ من حلف نُفَائة فإنه ليس قبيلة في العرب تحج هذا البيت أشد تعظيماً لهذا البيت من نُفَائة، وهم حلفاؤنا فلا نبرأ من حلفهم، ما بقى لنا سبد ولا لبد، ولكننا ننبذ إليه على سواء، فرجع ضمرة إلى رسول الله ﷺ بذلك من قولهم، فبعثت قريش أبا سفيان بن حرب تسأل رسول الله ﷺ أن يجدد العهد وندمت قريش على رد الرسول بما ردوه قال الواقدي: فكل أصحابنا أنكر هذا الحديث، حتى ذكرت هذا الحديث لحزام بن هشام الكعبي، فقال: لم يضيع الذي حدثك شيئاً، ولكن الأمر على ما أقول لك - ندمت قريش على عون نُفَائة وقالوا محمد غازينا، ثم قال الواقدي، فذكرت حديث حزام لابن جعفر وغيره من أصحابنا فلم ينكروه، وقالوا: هذا وجه، وكتبه منى عبد الله بن جعفر.

كيف عاد نقض العهد بالخير على قريش؟ وحدث عبد الله بن عامر الأسلمي عن عطاء بن أبي مروان قال: قال رسول الله ﷺ لعائشة: قد حرت في أمر خزاعة. قال ابن واقد: قالت عائشة: يا رسول الله أترى قريشاً تجترئ على نقض العهد بينكم وبينهم وقد أفناهم السيف؟ فقال رسول الله ﷺ: ينقضون العهد لأمر يريده تعالى بهم، قالت عائشة: خير أو شر يا رسول الله؟ قال: خير (٢).

وقد تحقق ما قاله النبي ﷺ بهذا الصدد فقد كان نقض قريش العهد سبباً في استيلاء المسلمين على مكة، واستيلاء المسلمين على مكة كان سبباً في إنقاذ أهلها من ظلمة الشرك حيث دخلوا جميعهم في دين الإسلام، فكان هذا هو الخير الذي أراد الله بهم والذي عناه الرسول ﷺ.

(١) هو قرظة (بفتح القاف والراء) بن عبد عمرو بن نوفل بن عبد مناف القرشي ابنته فاخته تزوجها معاوية قال ابن

حجر في الإصابة لم يذكروا قرظة في الصحابة.

(٢) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٧٧٨.

أبو سفيان في المدينة يطلب تجديد الصلح: وقد كان النبي ﷺ يتوقع أن الخوف سيتتاب سادات دار الندوة بمكة نتيجة إقدامهم على المشاركة والتواطؤ مع بني بكر في العدوان الغادر على خزاعة، وأنهم سيحاولون السعي للحصول على تجديد الصلح من قبل الرسول ﷺ ليضمنوا عدم قيام المسلمين بأي إجراء حربي كرد على العدوان الذي ارتكبه في حق خزاعة، فقد قال النبي ﷺ: لكانكم بأبي سفيان قد جاءكم ليشد العقد ويزيد في المدة<sup>(١)</sup>.

التقاء أبي سفيان بوفد خزاعة: وبينما كان النبي ﷺ يدلي بهذا التصريح، كان أبو سفيان (بالفعل) في طريقه من مكة إلى المدينة مفوضاً من قريش في طلب تجديد الصلح. وكان وفد خزاعة الذي أبلغ الرسول ﷺ ما تعرضت له خزاعة من غدر وعدوان قد سبق أبا سفيان بن حرب إلى المدينة ثم عاد منها.

ويشير أصحاب المغازي والسير إلى أن النبي ﷺ قد أمر رجال الوفد الخزاعي وعددهم واحد وأربعون أن يتفرقوا عند عودتهم من المدينة وأن لا يعودوا إلى ديارهم مجتمعين ففعلوا.

حيث اتجهت طائفة منهم نحو الساحل متنكبة الطريق الرئيسي، كما تفرق آخرون وسلكوا طرقاً جانبية، إلا أن بُديل بن أم أصرم الخزاعي لزم الطريق الرئيسي، وبعد أن تجاوز الأبواء<sup>(٢)</sup> لقيه أبو سفيان فأشفق أن يكون بُديل بن أم أصرم وأصحابه قد جاءوا المدينة فقال أبو سفيان للقوم: أخبروني عن يثرب منذ كم عهدكم بها - وكان بذلك يريد معرفة ما إذا كانوا قد اجتمعوا بالرسول ﷺ وأخبروه - فقالوا: لا علم لنا بها، ثم أمعن أبو سفيان في السؤال فقال: يا بُديل هل جئت محمداً قال: لا، ما فعلت ولكني سرت في بلاد كعب وخزاعة من هذا الساحل في قتيل كان بينهم فأصلحت بينهم فقال أبو سفيان - وكان مرثناً - : إنك والله - ما علمت - برُّ واصل، ثم قائلهم أبو سفيان<sup>(٣)</sup>.

(١) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٣٧.

(٢) الأبواء بفتح الألف وسكون الباء - قال في مراصد الاطلاع قرية من أعمال الفرع من المدينة بينها وبين الجحفة مما يلي المدينة ثلاثة وعشرون ميلاً، وقيل جبل عن يمين آره ويمين المصعد إلى مكة، وبالأبواء قبر أمته أم النبي ﷺ.

(٣) قائلهم: أي قضى القبيلة معهم وهي وقت ما بين الظهر والعصر.

غير أن الشك خامره فأمعن في التحقيق ليصل إلى الحقيقة، فقال: أما معكم من تمر يثرب شيء تطعمونا فإن لتمر يثرب فضلاً على تمر تهامة، قالوا: لا.

ولكن أبا سفيان ظلت الشكوك تساوره لذلك لم يطمئن إلى نفيهم فعمد إلى منزلهم بعد أن رحلوا فأتى أولاً، مَبْرُكٌ جهلم ففحص أبعادها بأن ففتها، فوجد بها نوى التمر، ثم وجد حيث نزلوا نوى من تمر عجوة كأنها ألسنة الطير، فاستدل بذلك على أنهم (يقيناً) جاءوا من المدينة، فقال: أحلف بالله لقد جاء القوم محمداً<sup>(١)</sup>.  
وعندها ضعف أمل أبي سفيان في أن ينجح في مسعاه لدى النبي ﷺ للحصول على توثيق الصلح وزيادة المدة فيه.

أبو سفيان في المدينة: إلا أن أبا سفيان بالرغم من تضائل أمله في النجاح في مسعاه واصل السير نحو المدينة لبذل جهوده كما طلبت منه قريش حتى وصلها وقابل النبي ﷺ، إلا أنه فشل فشلاً ذريعاً في مهمته، حيث لم يقبل النبي ﷺ الدخول معه في أية مفاوضة حول طلبه الذي جاء من أجله وهو تجديد الصلح والزيادة في مدته.

فقد وجد أبو سفيان الجو في المدينة مشحوناً بالنقمة على قريش والتغيُّظ عليها لما صنعت من نقض الصلح بالمشاركة في العدوان على خزاعة حليفة المسلمين، فقد عبأ مجيء وفد خزاعة إلى المدينة وشرحه للنبي ﷺ تفاصيل العدوان الغادر، عبأ مشاعر المسلمين ضد القرشيين إلى درجة أن وجد أبو سفيان (وهو سيد كنانة) نفسه منبوذاً في المدينة لا يلقاه إنسان واحد بوجه طلق.

ابنة أبي سفيان تطرد أباه: وكانت أول صدمة تلقاها أبو سفيان بن حرب - فور دخوله المدينة - ذلك التصرف الذي تصرفته نحوه ابنته المسلمة أم حبيبة. فقد كانت هذه السيدة الفاضلة إحدى أمهات المؤمنين، ولما كانت ابنته قصد حجرتها بمنزل رسول الله، وعندما دخل عليها حاول أن يجلس على فراش الرسول ﷺ منعه من ذلك، إذ طوت الفراش لثلاثاً يجلس عليه.

فساءه ذلك وقال (في مرارة وألم): يا بنية ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني؟ فقالت - في لهجة المؤمن الصادق المكين الذي يجعل اعتبار العقيدة والمبدأ فوق كل اعتبار - : بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت رجل مشرك نجس، ولم أحب أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ، قال: والله لقد أصابك يا بنية بعدي شر<sup>(٢)</sup>.

(١) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٧٩٢ وسيرة ابن هشام ج ٤ ص ٣٨.

(٢) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٣٨.

قالت: هداني الله للإسلام، وأنت يا أبت سيد قريش وكبيرها، يسقط عنك دخولك في الإسلام؟ وأنت تعبد حجراً لا يسمع ولا يبصر!! فقال: يا عجباه! وهذا منك أيضاً! أترك ما كان يعبد آبائي وأتبع دين محمد؟ ثم خرج<sup>(١)</sup>.

غادر أبو سفيان حجرة ابنته أم حبيبة، وهو يكاد يجر رجله جراً، من الذي لقيه من ابنته المسلمة التي صارحته بأنه مشرك نجس لا تسمح له (وإن كان أباه) أن يجلس على فراش الرسول ﷺ ولا مته على أن يظل يعبد الأحجار بعد أن استبان الصواب ووضح السبيل لا سيما لمن هو في منزلته، سيد قريش وكبيرها!.

وبعد أن تلقى أبو سفيان تلك الصدمة النفسية العنيفة على يد ابنته المؤمنة أم حبيبة قام بمحاولة يائسة لإقناع الرسول ﷺ بالدخول معه في مفاوضة للحصول لقريش على ضمان باستمرار مفعول صلح الحديبية وتوثيق هذا الصلح بموافقة الرسول ﷺ على زيادة مدته؛ لأن ذلك لو حدث لكان من النبي ﷺ بمثابة عفو عام عن قريش عما ارتكبه من خيانة وغدر في حق حلفائه فقد حاول أبو سفيان التمويه والمغالطة؛ ليحصل على الضمان الذي تتوق قريش للحصول عليه، فتظاهر بأنه إنما جاء إلى المدينة بصفته الشخصية، وبصفته كان غائباً في صلح الحديبية وأنه كسيد من سادات قريش جاء يطلب توثيق الصلح الذي لم يكن من بين الزعماء الذين وقعوا عليه، فقد دخل على النبي ﷺ وقال: يا محمد، إني كنت غائباً في صلح الحديبية فاشدد العهد وزد، غير أن النبي ﷺ قطع على زعيم قريش خط المناورة، إذ قال له: لذلك جئت يا أبا سفيان؟ قال: نعم<sup>(٢)</sup>، فقال رسول الله ﷺ: هل كان فيكم من حدث؟ فلم يعترف أبو سفيان بالحقيقة، بل أنكرها في جرأة عجيبة، حيث قال: معاذ الله، نحن على عهدنا وصلحنا لا نغير ولا نبذل.

وهنا أسمع النبي ﷺ أبا سفيان كلمات هي غاية في المران والرزانة والحنكة والتعمية على رجل هو زعيم أعداء النبي ﷺ، كلمات زادت أبا سفيان حيرة على حيرته<sup>(٣)</sup>، إذ لم يظفر من الكلمات النبوية المقتضبة بأي شيء يشير من قريب أو من بعيد إلى أن أبا سفيان قد حصل على أي شيء مما تريد قريش أن يطمئنها به كي تكون في مأمن، من العقاب العادل الذي تتوقعه على أيدي المسلمين جزاء مشاركتها في الغدر بمخزاعة وتواطؤها مع سفهاء بني بكر في جريمة الوتير.

(١) إمتاع الأسماع ص ٣٥٩.

(٢) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٧٩٢.

(٣) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٩٧ وفي سيرة ابن هشام أن أبا سفيان لما كلم الرسول ﷺ لم يرد عليه.

فقد قال النبي ﷺ لأبي سفيان - لما أنكر أن يكون حدث ما ينقض الصلح من قبل قريش - : فنحن على مدتنا وصلحنا يوم الحديبية، لا نغيّر ولا نبذل<sup>(١)</sup>، ولم يسمع من النبي ﷺ - بهذا الصدد - غير هذه الكلمات المقتضبة، فخرج أبو سفيان من مجلس الرسول ﷺ وهو صفر اليدين خالي الوفاض.

اتصالات أبي سفيان الثنائية بكبار الصحابة للتوسط عند الرسول غير أن أبا سفيان - وهو السياسي المرن - لم ييأس من التوصل إلى تحقيق شيء مما جاء من أجله، فقرر الاتصال بكبار المهاجرين من قريش، لعلهم - بما لهم من مكانة - يؤثرون على رسول الله ﷺ فيجيب أبا سفيان إلى توثيق الصلح وزيادة مدته.

وكان أول من اتصل به من المهاجرين أبا بكر الصديق الذي كلمه أبو سفيان وطلب منه أن يتوسط لدى رسول الله ﷺ ليقبل التفاوض ويزيد في مدة الصلح، ولكن الصديق - وقد علم شناعة الجرم الذي ارتكبه قريش - رفض طلب أبي سفيان قائلاً: ما أنا بفاعل<sup>(٢)</sup>.

فلما يتس أبو سفيان من أقرب المقربين إلى رسول الله ﷺ، تركه واتجه إلى عمر بن الخطاب، - وكان معروفًا بعداوته الشديدة لمشركي مكة - فطلب منه مثلما طلب من أبي بكر الصديق أن يتوسط لدى الرسول ليجدد الصلح ويزيد في المدة، فأسمعه ابن الخطاب ما ملأ نفسه يأساً، إذ قال له: أنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ فو الله لو لم أجد إلا الذر<sup>(٣)</sup> لجاهدتكم به، وفي رواية: والله لو وجدت الذر تقاتلكم لأعتتها عليكم، فقال أبو سفيان (متألماً): جزيت من ذي رحم شرًّا<sup>(٤)</sup>.

فذهب إلى عثمان بن عفان مكرراً المحاولة، فقال له: إنه ليس في القوم أحد أقرب بي رحماً منك - وكان عثمان من بني أمية عشيرة أبي سفيان - ، فزد في الهدنة وجدد العهد فإن صاحبك لن يرده عليك أبداً، والله ما رأيت رجلاً قط أكثر إكراماً لصاحب من محمد لأصحابه !! فلم يستجب له عثمان، بل دفعه - ولكن دفعاً رقيقاً - حيث قال له: جوارى في جوار رسول الله ﷺ<sup>(٥)</sup>.

(١) إمتاع الأسماع ص ٣٥٨، والسيرة الحلبية والواقدي وابن هشام.

(٢) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٣٨.

(٣) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٣٨.

(٤) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٧٩٢.

(٥) إمتاع الأسماع ص ٣٥٩.

بعد هذه المحاولات الفاشلة التي قام بها أبو سفيان لجأ إلى علي بن أبي طالب، وإلى زوجته فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ، فدخل عليهما وبين أيديهما ابنهما الحسن غلام صغير، فبدأ بعلي متوسلاً بما بينهما من قرابة قائلاً: يا علي إنك أمس القوم بي رحماً وأقربهم مني قرابة، وإنني قد جئتك في حاجة فلا أرجعن كما جئت خائباً فاشفع لي إلى رسول الله ﷺ فقال ويحك يا أبا سفيان والله إن رسول الله ﷺ قد عزم على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه <sup>(١)</sup>، فقال: يا أبا الحسن أحرّ بين الناس وكلم محمداً يزيد في المدة، فكرر على اعتذاره قائلاً: ويحك يا أبا سفيان ! إن رسول الله ﷺ قد عزم أن لا يفعل، وليس أحد يستطيع أن يكلم رسول الله ﷺ في شيء يكرهه <sup>(٢)</sup>.

وهنا - وكمحاولة أخيرة - التفت أبو سفيان إلى فاطمة الزهراء وطلب منها أن تتوسط في الأمر فتكلم أباها الرسول ﷺ لتحصل لأبي سفيان على ما يريد من تجديد الصلح وزيادة المدة فيه فاعتذرت فاطمة قائلة: إنما أنا امرأة فالحَّ عليها قائلاً: قد أجارت أختك أبا العاص بن الربيع فأجاز ذلك محمد، فقالت: إنما ذلك إلى رسول الله ﷺ <sup>(٣)</sup>، فالحَّ مرة أخرى قائلاً: مري أحد بنيك يُجير بين الناس ! قالت إنهما صبيان، وليس مثلهما يجير <sup>(٤)</sup>.

أبو سفيان يستعين بسعد بن معاذ وذكر المؤرخون أن أبا سفيان بعد أن فشل في الحصول على تجديد الصلح عن طريق توسط كبار المهاجرين لجأ إلى سيد الأوس سعد ابن عبادة علّه يتوسط ليحصل بواسطته من الرسول ﷺ على تجديد الصلح. فقد حدّث ابن أبي حبيبة عن واقد بن عمرو بن سعد بن معاذ، قال جاء أبو سفيان ابن حرب إلى سعد بن عبادة فقال: يا أبا ثابت قد عرفت الذي كان بيني وبينك، وإنني قد كنت لك في حرمنا جاراً، وكنت لي بيثرب مثل ذلك، وأنت سيد هذه البحرة <sup>(٥)</sup> فجزّ بين الناس وزد في المدة، فقال سعد: يا أبا سفيان جوارى في جوار رسول الله ﷺ ما يجير أحد على رسول الله ﷺ <sup>(٦)</sup>.

(١) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٣٨.

(٢) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٧٩٤.

(٣) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٩٧.

(٤) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٧٩٤.

(٥) البحرة: قال في القاموس المحيط: البلدة.

(٦) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٧٩٦.

أبو سفيان يستشير علي بن أبي طالب ليجد له حلاً : ويذكر المؤرخون أن أبا سفيان ابن حرب بعد أن انتهى إلى طريق مسدود في كل المحاولات اليائسة التي قام بها ليحصل على تجديد الصلح واستمرار فعالية هدنة الحديبية (التي نقضتها قريش نقضاً صريحاً فتأمن قريش بهذا التجديد العقوبة التي باتت تتوقعها من المسلمين جزاء غدرها ونقضها للصلح، بعد أن وصل إلى طريق مسدود لجأ إلى علي بن أبي طالب للمرة الثانية متوسلاً بالقرابة التي تربطهما وطالبا منه المشورة فيما يفعل قائلاً: يا أبا الحسن إن أرى الأمور قد انسدت على فانصحنى<sup>(١)</sup>، فقال: أنت سيد قريش وأكبرها وأمنعها فأجز بين عشيرتك<sup>(٢)</sup>. فقال أبو سفيان: ترى ذلك مغنياً عني شيئاً<sup>(٣)</sup>؟ قال علي: لا أظن ذلك والله، ولكني لا أجد لك غيره<sup>(٤)</sup>، قالوا فخرج أبو سفيان فصاح: ألا إني قد أجزت بين الناس، ولا والله ما أظن أن يخفرنني أحد، ثم دخل على النبي ﷺ فقال: يا محمد إني قد أجزت بين الناس ولا والله ما أظن أن يخفرنني أحد ولا يرد جوارى، فقال الرسول ﷺ: أنت تقول ذلك يا أبا سفيان<sup>(٥)</sup>، وكان هذا القول من أبي سفيان محاولة يائسة أخيرة عسى أنه بها يجعل قريشاً في أمان من الغزو الذي باتت تتوقعه، ولكنها كانت محاولة فاشلة.

عودة أبي سفيان خائباً إلى مكة : وبعد أن أفرغ أبو سفيان كل ما في جعبته من مناورات ومحاولات وتوسلات ليحصل من الرسول ﷺ على تجديد صلح الحديبية لتأمن قريش العقاب العادل جزاء غدرها بجلفاء الرسول ﷺ ونقضها الصلح، وبعد أن فشلت كل هذه المحاولات والتوسلات والمناورات ترك المدينة يحمل لقريش نذر الحرب التي عليهم أن يتوقعوها بعد أن أشعلوا فتيلها بأيديهم الغادرة.

أول إشارة صريحة لغزو مكة : وذكر موسى بن عقبة أن النبي ﷺ حين أدبر أبو سفيان تاركاً المدينة إلى مكة قال - مشيراً إلى سحابة - : إن هذه السحابة لتبصُّ بنصر بني كعب، يعني خزاعة، ثم قال: اللهم خذ على أبصارهم وأسماعهم فلا يرونا إلا بغتة ولا يسمعون بنا إلا فجأة<sup>(٦)</sup>.

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٩٨.

(٢) البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٨٣.

(٣) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٧٩٤.

(٤) البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٨٢.

(٥) إمتاع الأسماع للمقرئزي ص ٣٦٠.

(٦) البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٨٢.

قريش تتهم أبا سفيان بالإسلام : كانت قريش قلقة أشد القلق حين بعثت بمندوبها أبي سفيان بن حرب إلى المدينة، لأنها تخشى أن يغزوها النبي ﷺ بعد أن أصبح صلح الحديبية منقوضاً بفعل قريش وبني كنانة، وزاد من قلق قريش أن طال غياب أبي سفيان، حتى ساورت الشكوك سادات المشركين في مكة فاتهموه بأنه قد أسلم، فقال قائلهم: والله إنا نراه قد صبأ، واتبع محمداً سرّاً وكنتم إسلامه<sup>(١)</sup>.

هند تحقّق مع زوجها أبي سفيان : وعندما عاد أبو سفيان إلى مكة ودخل منزله، أبلغته زوجته هند أن قريشاً تتهمه ثم استجوبته عما صنع لقريش في المدينة قائلة: لقد حُسِستَ حتى اتهمك قومك، فإن كنت مع طول الإقامة جئتهم بنجح فأنت الرجل، ثم دنا منها فجلس مجلس الرجل من المرأة، فجعلت - تستجوبه - تقول : ما صنعت ؟ فأخبرها الخبر «كله» وقال: لم أجد إلا ما قال لي علي، فضربت برجليها في صدره وقالت: قبحت من رسول قوم<sup>(٢)</sup>.

أبو سفيان يبلغ قريشاً نتائج رحلته: وقد اجتمع أبو سفيان بسادات قريش الذين طلبوا منه إعطائهم تقريراً شاملاً عن نتائج رحلته إلى المدينة فأبلغهم - صراحة بالتفصيل - كل مراحل محاولاته الفاشلة.

قال موسى بن عقبة: وقدم أبو سفيان مكة، فقالت له قريش ما وراءك هل جئت بكتاب من محمد أو عهد؟

قال: لا والله وقد أباي عليّ، وقد تتبعت أصحابه فما رايت قوماً لملك عليهم أطوع منهم له، غير أن علي بن أبي طالب قد قال لي: التمس جوار الناس عليك ولا تجير أنت عليه وعلى قومك وأنت سيد قريش وأكبرها وأحقها أن لا تخفر جواره، فقممت بالجوار ثم دخلت على محمد فذكرت له أنني قد أجرت بين الناس وقلت: ما أظن أن تخفرنني؟ فقال: أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة؟ - فقالوا له: رضيت بغير رضى وجئتنا بما لا يغني عنا ولا عنك شيئاً وإنما لعب بك على لعمرؤ الله، ما جوارك بجائر وإن إخفارك عليهم : لهين<sup>(٣)</sup>.

(١) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٧٩٥.

(٢) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٧٩٥.

(٣) البداية والنهاية ج ٢ ص ٢٨٢.



فقال: والله ما وجدت غير ذلك<sup>(١)</sup>.

وهكذا عاد أبو سفيان من المدينة بخفي حنين - كما يقولون - لم يحقق بمساعيه أي شيء من الهدف الذي من أجله أوفدته قريش.

وإذا كان أبو سفيان لم يجد في المدينة أيّ قبول لمطلب سادات مكة وهو تجديد صلح الحديبية، فإنه كذلك لم يستطع الحصول على أية معلومات تؤكد صراحة أن النبي ﷺ قد قرر أن يغزو المشركين في مكة، بل لقد تعمد الرسول ﷺ أن يعمى على قريش ويجعلها في حيرة من أمرها حين قال لأبي سفيان - عندما جاء يطلب تجديد الصلح - نحن على مدتنا وصلحنا يوم الحديبية.

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٩٨.

## الفصل الثالث

- الرسول يقرر الزحف على مكة المكرمة.
- استشارة الرسول ﷺ خاصة أصحابه وهيئة أركان حربه قبل الزحف.
- اتباع خطة الكتمان الشديد بعد قرار الزحف.
- استنفار المسلمين (حاضرة وبادية للغزو).
- خيانة أحد كبار الصحابة بمحاولته تحذير قريش وتوبته بعد ذلك.
- الجيش يتحرك من المدينة ولا يدري إلى أين.
- عشرة آلاف مقاتل تتحرك من المدينة.
- تعبئة الجيش في قديد وتوزيع الرايات وتعيين الأمراء.
- نجاح خطة الكتمان نجاحاً كاملاً.
- النبي ﷺ على أبواب مكة.
- قريش تباغت بالغزو، فتنهار.
- أبو سفيان بن حرب في معسكر الرسول ﷺ يفاوضه على شروط تسليم مكة للمسلمين.
- مكة مدينة مفتوحة.
- أبو سفيان يسلم قبل الفتح.
- أوامر الرسول المشددة لجيشه بعدم القتال إلا في حالة الدفاع عن النفس.
- قريش تلقى بسلاحها.
- سيطرة المسلمين على مكة.
- النبي يصدر عفواً عاماً عن أهل مكة.

وهكذا عزم النبي ﷺ على غزو المشركين في مكة - منذ أن تبلغ نقضهم العهد بغدرهم بحلفائه من خزاعة<sup>(١)</sup> مستغلين هذا الصلح أبشع استغلال - إلا أن الرسول ﷺ «مع هذا العزم الأكيد» رأي أن يلتزم جانب السرية المطلقة لكي لا تشعر به قريش إلا وهو يدهمها بجيشه، فيستولي على مكة بأقل خسارة ممكنة في الأرواح.

ولهذا قال ﷺ - بما سمعه منه بعض خاصته - : «اللهم خذ على أسماعهم وأبصارهم فلا يرونا إلا بغتة ولا يسمعون بنا إلا فجأة»<sup>(٢)</sup>، وقد حرص الرسول ﷺ كل الحرص على أن تكتم أخبار الغزو عن المشركين في مكة، فاتخذ كل الإجراءات الكفيلة بذلك، فكتم الخبر حتى عن عامة أصحابه من المهاجرين والأنصار، فقد دعا إلى الحشد والاستعداد للحرب، ولكن دون أن يحدد الجهة التي يقصدها حتى ذهبت بأصحابه التخمينات مذاهب شتى.

فمنهم من ظن (حين رآه يحشد قوات الإسلام) أنه يريد غزو الروم ومنهم من ظن أنه يريد هوازن وثقيف وظن ظان أنه يريد نجد.

ومع عدم إفصاح الرسول لأصحابه عن وجهته فقد استنفر كل قوات الإسلام، فأرسل إلى سكان البوادي ومن حوله من المسلمين في كل ناحية يقول لهم: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة<sup>(٣)</sup>.

وقد استجاب أهل البادية للنبي ﷺ فقدمت المدينة من قبائل العرب غفار<sup>(٤)</sup> ومزينة<sup>(٥)</sup>

(١) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٧٩٢.

(٢) البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٨٢.

(٣) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٩٩.

(٤) غفار (بكسر أوله) هم بنو غفار بن مليل بن ضمرة بن بكر بن عبد مناف بن كنانة بن خزيمية بن مدركة من العدنانية تقع منازلهم بين مكة والمدينة، ومن مياهم (بدر).

(٥) مزينة (بضم الميم وكسر الزاي) اختلف النسابون فيه إلا أنهم كلهم مجمعون على أنهم من مضر، ومن أبناء طابخة بن الياس بن مضر، تقع مساكن مزينة بين المدينة ووادي القرى، من ديارهم (الروحاء والعمق والفرع، ومن جبالهم أرة وميطان وورقان، وقدس، وأوارة، ونهان، ومن أوديتهم، رثم، وشمس، وساية، ولاي، ويدوم، كانت =

وأشجع<sup>(١)</sup> وجهينة<sup>(٢)</sup> وأسلم<sup>(٣)</sup>.

النبي يستشير خاصة أصحابه بشأن غزو مكة: وكان الرسول ﷺ قد طلب من أهله كتمان خبر الغزو عن أي إنسان كان قالوا: وأمر رسول الله ﷺ عائشة أن تجهزه وتُخفي ذلك، ودخل أبو بكر على ابنته عائشة وهي تجهز رسول الله ﷺ تعمل قمحاً وسويقاً ودقيقاً وتمراً، فقال: يا عائشة، أهم رسول الله ﷺ بغزو؟ قالت: ما أدري، قال: إن كان رسول الله ﷺ همّ بسفر فأذينا نتهياً له، قالت: ما أدري، فقال: يريد بني الأصفر -

=

قبيلة مزينة هذه قبيلة ميمونة، فلم يذكر أحد من أصحاب المغازي (فيما بلغني) أنها حاربت النبي ﷺ أو حاربها عند ظهور الإسلام، رغم أنها من أقرب القبائل إلى المدينة، بل لقد أثبت المؤرخون أن مزينة أسرع إلى الدخول في الإسلام بمحض اختيارها، يدل على ذلك أن لها صنماً كان يسمى (مُهم بضم الميم وسكون الهاء) فلما سمعت بالنبي ﷺ حطمت هذا الصنم وسارعت إلى الدخول في الإسلام، وكان إسلام مزينة قبل الفتح، وكان رجالها ذوو أثر فعال في نصر الإسلام في العهد النبوي وفيما بعده من عهود، كانت مزينة مع رسول الله ﷺ في فتح مكة، وكانت قواتها في الجيش النبوي ألف مقاتل، وقد شهدت مزينة حنيناً بهذا العدد، وكان النبي ﷺ يحبهم وينشئ عليهم، فقد روى مسلم في صحيحه ج ٧ ص ١٧٨ أن النبي ﷺ قال: الأنصار، ومزينة، وجهينة، وغفار، ومن كان من بني عبد الله موالى دون الناس، يوم القيامة، والله ورسوله مولاهم، ومن مفاخر مزينة، القائد الفارس الناسك السقي، النعمان بن مقرن الذي قاد معركة نهاوند في فارس التي تسمى فتح الفتوح، والتي استشهد فيها بعد أن فتح نهاوند.

(١) أشجع قبيلة من غطفان النجدية، وهم بنو أشجع بن غطفان بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، كانوا أسبق قبائل غطفان إلى الإسلام، كانوا في الجاهلية حلفاء الخزرج، وقد نصرهم في حرب بعاث التاريخية التي دارت قبيل الإسلام بين الأوس والخزرج في المدينة: كانت منازلهم بضواحي المدينة.

(٢) جهينة (بضم أوله وفتح ثانيه) قبيلة قحطانية عظيمة، من قضاة، وهم بنو جهينة بن زيد ابن ليث بن سود ابن أسلم بن الحافي بن قضاة (انظر ترجمة قضاة فيما مضى من هذا الكتاب) وجهينة بطون كثيرة تقع منازلهم في الشريط الممتد من ينبع حتى يثرب على ساحل بحر القلزم (البحر الأحمر) ويذكر المؤرخون أن فخائذ من جهينة عبروا البحر الأحمر، واستولوا على بلاد النوبة، ثم انتشروا ما بين صعيد مصر وبلاد الحبشة، وقال ابن خلدون في تاريخه: إنهم حاربوا الحبشة فأرهبوهم، قال في معجم قبائل العرب: وأهم ما ذكر أن جهينة في نسب السودانيين، وأنهم وصلوا إلى نيف وخسين قبيلة على النيل الأزرق حتى تونس، واستقر بعضهم في الجزء الممتد من الجنوب إلى كردفان ودارفور.

(٣) أسلم، اسم لقبائل كثيرة، وأسلم هنا، هم بطن من خزاعة من القحطانية (انظر ترجمة خزاعة في هذا الكتاب).

وهم الروم - فصمتت، قال: فلعله يريد أهل نجد فصمتت، قال: فلعله يريد قريشاً؟ فصمتت، فاستعجمت عليه، حتى دخل رسول الله ﷺ فقال له أبو بكر: يا رسول الله أردت سفيراً؟ قال: نعم، قال: أفأتجهز؟ قال: نعم، قال أبو بكر: وأين تريد يا رسول الله؟ قال: قريشاً، واخفي ذلك يا أبا بكر، قال: أو ليس بيننا وبينهم مدة؟

قال: إنهم غدروا ونقضوا العهد، فأنا غازيهم، وقال لأبي بكر: اطو ما ذكرت لك، فظان يظن أن رسول الله ﷺ يريد الشام، وظان يظن ثقيفاً، وظان يظن هوازن<sup>(١)</sup>.

رسل النبي إلى القبائل لاستنفارها: وعندما قرر الرسول ﷺ الزحف على مكة بعث باثني عشر من خالص أصحابه إلى البادية لاستنفار القبائل، وكان هؤلاء المبعوثون هم:

أسماء بن حارثة<sup>(٢)</sup>، إلى قبيلة أسلم.

٢- هند بن حارثة<sup>(٣)</sup> إلى قبيلة أسلم.

٣- رافع بن مكيث الجهني<sup>(٤)</sup>، إلى جهينة.

٤- جندب بن مكيث الجهني<sup>(٥)</sup>، إلى جهينة.

٥- إيماء بن رخصة<sup>(٦)</sup>، إلى غفار وبني ضمرة وبني الحصين.

(١) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٧٩٦ طبعة اكسفورد تحقيق الدكتور مارسدن جونز.

(٢) هو أسماء بن حارثة بن سعيد بن عبد الله بن غياث الأسلمي، يكنى أبا هند، كان أسماء من أصحاب الصفة وكان ممن يتفانى في خدمة رسول الله ﷺ، توفي أسماء عن ثمانين سنة، في خلافة معاوية.

(٣) هو هند بن حارثة بن سعيد أخو أسماء بن حارثة، كان الاثنان من أصحاب الحديبية: وذكر البغوي أن هند هذا شهد بيعة الرضوان مع أخوة له سبعة.

(٤) انظر ترجمة رافع بن مكيث في كتابنا (صلح الحديبية).

(٥) هو جندب بن مكيث (بفتح الكاف) بن عمرو بن جراد الجهني، أخو رافع بن مكيث. كان جندباً في إحدى السرايا التي قادها غالب بن عبد الله الليثي.

(٦) انظر ترجمة إيمان بن رخصة في كتابنا (صلح الحديبية) ضبطه ابن حجر في الإصابة (ج ١ ص ١٠٢) فقال: هو إيماء بن رخصة (لا رخصاء) بن خزمة بن خفاف بن حارثة بن غفار، قال قديم الإسلام، وإنه كان يؤم قومه قبل أن

- ٦- أبو رُهم كلثوم بن الحصين إلى غفار وبني ضمرة وبني الحصين.  
 ٧- معقل بن سنان <sup>(١)</sup> إلى أشجع <sup>(٢)</sup> .  
 ٨- نُعيم بن مسعود <sup>(٣)</sup> ، إلى أشجع أيضاً.  
 ٩- بلال بن الحارث <sup>(٤)</sup> ، إلى مزينة.  
 ١٠- عبد الله بن عمرو المزني <sup>(٥)</sup> ، إلى مزينة أيضاً.  
 ١١- الحجاج بن علاط السلمي <sup>(٦)</sup> إلى بني سليم <sup>(٧)</sup> .

يهاجر الرسول ﷺ إلى المدينة وهذه رواية مسلم ولكن ابن إسحاق ذكر أن إيماء هذا حضر بدمراً مع المشركين، فيكون إسلامه بعد ذلك (انظر كتابنا غزوة بدر الكبرى ص ١٥٠).

(١) هو معقل بن سنان بن مظهر الأشجعي، كان قديم الإسلام، وفد على النبي ﷺ فأقطعه قطيعة كان موصوفاً بالجمال، قالوا: قدم المدينة في خلافة عمر فقال فيه بعض الشعراء.

أعوذ برب الناس من شر معقل إذا معقل راح البقيع مرجلا

وقيل إن الذي قال هذا البيت امرأة، فلما بلغ ذلك عمر، نفى معقلاً إلى البصرة (الإصابة ج ٣ ص ٤٤٥) كان معقل حاملاً لواء قومه أشجع يوم الفتح ويوم حنين، قتله ابن عقبة المري يوم احتل المدينة في عهد يزيد عام ٦٣هـ.

(٢) تقدمت في هذا الكتاب ترجمة قبيل أشجع.

(٣) انظر ترجمة نعيم بن مسعود في كتابنا (غزوة أحد).

(٤) هو بلال بن الحارث بن عصم المزني (انظر ترجمة قبيلة مزينة فيما مضى من هذا الكتاب) كان قديم الإسلام، وهو ممن سكن المدينة قبل الفتح، كان يحمل أحد ألوية مزينة يوم الفتح، سكن البصرة فيما بعد، مات وله ثمانون سنة، وذلك سنة ست وستين.

(٥) عبد بن عمرو لعله ابن رويم أو ابن مليك أو ابن هلال، فكلهم ترجم لهم ابن حجر في الإصابة ج ٢ ص ٣٤٤ - ٣٤٥، ولكنه لم يذكر أن أحدهم كان رسول الله ﷺ أرسله إلى مزينة.

(٦) انظر ترجمة الحجاج بن علاط في كتابنا (غزوة خيبر).

(٧) انظر ترجمة سليم في هذا الكتاب.

- ١٢- عرباض بن سارية<sup>(١)</sup>، إلى بني سليم أيضاً.  
 ١٣- بشر بن سفيان<sup>(٢)</sup>، إلى بني كعب<sup>(٣)</sup>.  
 ١٤- بديل بن ورقاء<sup>(٤)</sup>، إلى بني كعب أيضاً.

---

(١) هو عرباض (بكسر العين) بن سارية بن نجیح السلمی، صحابي مشهور، كان من رواة الحديث عن الرسول ﷺ توفى سنة خمس وسبعين وكان من أهل الصفة ويمن نزل فيهم قول الله تعالى: ﴿ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم﴾ الآية، نزل حمص بالشام.  
 (٢) انظر ترجمة بشر بن سفيان في كتابنا (صلح الحديبية).  
 (٣) بنو كعب بطن من خزاعة (انظر ترجمة خزاعة في كتابنا صلح الحديبية).  
 (٤) انظر ترجمة بديل فيما مضى من هذا الكتاب.

في مجلس استشاري:  
أبو بكر يطلب الرفق بقريش  
وعمر يطلب الشدة

وكان الرسول ﷺ عندما قرر غزو قريش في مكة عقد مجلساً أعلى تداول الرأي فيه مع خاصة أصحابه الذين يمكن تسميتهم بهيئة أركان حربه ووزرائه، على رأسهم أبو بكر وعمر.

أما أبو بكر، فقد أشار بما يوحي أنه يرى التأيي وعدم الزحف على مكة، حين قال في المجلس المجلس: إنهم قومك (يا رسول الله).

وأما عمر فقد حث الرسول على التنكيل بهم وإنهاء وجودهم، وصارح النبي ﷺ بأن لا قرار للإسلام ولا سبيل إلى إخضاع الوثنيين في الجزيرة ككل إلا بخضد شوكة قريش، حيث قال: نعم هم رأس الكفر، زعموا أنك ساحر وأنت كذاب، وإيم الله لا تذلل العرب (يعني من تبقى منهم على الوثنية) حتى تذلل أهل مكة.

فقال رسول الله ﷺ مستصوباً رأي عمر - : إن أبا بكر كإبراهيم، وكان في الله ألين من اللين، وأن عمر كنوح وكان في الله أشد من الحجر، وأن الأمر أمر عمر - أي أن الرأي الذي ينبغي العمل به هو رأي عمر - وهو إسقاط الوجود الوثني نهائياً في مكة.

وهكذا تقرر نهائياً أن يقوم الرسول ﷺ بغزو قريش تأديباً لها على نقض الصلح بغدرها المشين بخزاعة في ظل عهد وهدنة وأمان، وفتكها بثلاثة وعشرين بريئاً قتلتهم قريش وحلفاؤها من بني بكر داخل مكة وبالقرب من الكعبة.

التزام خطة الكتمان الشديدة: ومع إحاطة النبي ﷺ خاصة أصحابه بعزمه على الزحف على مكة، فقد ظل ملتزماً خطة الكتمان الشديد بهذا الشأن، فعقب إعلانه ﷺ النفير العام بين القبائل المسلمة في الحاضرة والبادية احتشد من جنود الإسلام حوالي عشرة آلاف مقاتل، تحرك بهم الرسول ﷺ من المدينة، وعامتهم لا يعلمون إلى أين هم زاحفون وعلى من سيهجمون إلا عندما وصلوا مرّ الظهران حيث علموا هناك (فقط) أن وجهتهم مكة المكرمة لإنهاء الوجود الوثني فيها إلى الأبد.



النبي مجرد سرية للتعمية والتمويه : وزيادة في إحكام خطة الكتمان والتعمية والتضليل على العدو، بعث رسول الله ﷺ في أول شهر رمضان من السنة الثامنة للهجرة، وهو الشهر الذي تم فيه فتح مكة، بعث بسرية عسكرية إلى ناحية نجد شرقي المدينة فأمر السرية أن تتحرك إلى مكان يقال له: بطن إضم (وهو واد لأشجع من قبيلة غطفان به ماء يطؤه الذاهب من اليمامة إلى مكة)<sup>(١)</sup>.

وكان الهدف من تجريد هذه الحملة العسكرية (وبصورة علنية) إلى ناحية الشرق هو إيهام الناس جميعاً أن الحشد الذي يجري في المدينة مقصود به منطقة نجد لا مكة المكرمة التي تقع في الجنوب من المدينة.

فقد قالوا: لما هم رسول الله ﷺ بغزو أهل مكة بعث أبا قتادة بن ربعي<sup>(٢)</sup> على رأس سرية إلى بطن إضم - وهي فيما بين ذي خشب<sup>(٣)</sup> وذو المروة، وبينهما وبين المدينة ثلاثة برد - ليظن ظان أن رسول الله ﷺ توجه إلى تلك الناحية ولأن تذهب بذلك الأخبار، فمضت السرية في تحركاتها العلنية حسب الخطة المرسومة لها، ولم ترجع إلا بعد أن فصل النبي ﷺ بقواته الرئيسية من المدينة في اتجاه مكة، فالتقت به السرية في الطريق في مكان يقال له: السقيا<sup>(٤)</sup>، «طبقات ابن سعد الكرى ج ٢ ص ١٣٣».

حراسة الطرق ومنع السفر إلى مكة واحتجاز المشتبه بهم: كما أن الرسول ﷺ لكي يجلب أبناء تحركاته بجيشه عن المشركين في مكة أمر بمراقبة الطرق المؤدية إلى مكة واحتجاز كل من يشبهه في أمره، وكان الذي أوكلت إليه مهمة حراسة الطرق ومراقبتها عمر بن الخطاب.

فقد ذكر المؤرخون أن عمر بن الخطاب - بأمر من رسول الله ﷺ - كان يطوف على الأنقاب (الطرق) قِيماً بهم فيقول للحرس: لا تدعوا أحداً يمر بكم تنكرونه إلا رددتموه - وكانت الأنقاب مسلمة - إلا من سلك إلى مكة فإنه يُحتفظ به ويسأل عنه<sup>(٥)</sup>.

(١) معجم البلدان ج ١ ص ٢١٤.

(٢) انظر ترجمة أبي قتادة الأنصاري في كتابنا (غزوة أحد).

(٣) ذو خشب (بضم أوله وثانيه) قال ياقوت: من أودية اليمامة.

(٤) انظر تحديد مكان السقيا في كتابنا (غزوة بدر الكبرى).

(٥) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٧٩٦ والسيرة الحلية ج ٢ ص ١٩٩.

البوليس الحربي يشدد الحراسة على الطرق : وبالحراسة المشددة على المسالك والطرق نجحت خطة الكتمان إلى أبعد الحدود حيث منع الحرس الإسلامي (وهو ما يعبر عنه اليوم بالبوليس الحربي) منع السفر إلى مكة لأي إنسان يشتهه في أمره، فعميت لذلك الأنبياء تماماً على المشركين بمكة، الذين لم يشعروا إلا والجيش النبوي معسكراً بالقرب من مكة، فأسقط في أيديهم وبث الله الرعب في نفوسهم ففرروا الاستسلام ودخل النبي ﷺ بجيشه مكة فاتحاً دون أن يلقي أية مقاومة تذكر.

الصحابي الذي حاول إبلاغ قريش نبأ الغزو ففشل: غير أن أحد الصحابة من المهاجرين ارتكب خطأً كاد يفسد على النبي خطة الكتمان التي اتبعها في تحركاته العسكرية.

فقد حاول هذا الصحابي (وهو حاطب بن أبي بلتعة<sup>(١)</sup>)، كان من البدرين ومن السابقين الأولين في الإسلام، والفرسان المشهورين الذين ثبتوا يوم أحد إلى جانب الرسول ﷺ (ساعة الانتكاسة) حاول هذا الصحابي أن ينقل إلى قريش (وبطريقة سرية) أنباء اعتزام الرسول ﷺ غزوهم، فعندما علم بطريقه الخاص أن النبي ﷺ يريد بتحركاته المشركين في مكة قادة الضعف البشري - الذي مصدره العطف على أهله وأقاربه في مكة - إلى ارتكاب الخطيئة الكبرى التي لولا سابقته في الإسلام وكونه من أهل بدر لأنزل به عقاب شديد هو عقاب الجاسوس الذي قد يصل إلى حد الإعدام - عقوبة الخيانة العظيمة - .

فقد ذكر أصحاب الحديث والمغازي والسير، أن حاطب بن أبي بلتعة كتب إلى ثلاثة من زعماء المشركين في مكة: صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، وعكرمة بن أبي جهل، يخبرهم فيه أن الرسول ﷺ يحشد الجيوش لغزو قريش، وكتب إلى هؤلاء الزعماء المشركين كتاباً جاء فيه: «إن رسول الله قد أذن في الناس بالغزو، ولا أراه يريد غيركم، وقد أحببت أن تكون لي عندكم يد بكتابي إليكم» واستأجر - لإيصال كتابه إلى قريش - امرأة يقال لها سارة<sup>(٢)</sup>، وجعل لها ديناراً على أن تبلغ الكتاب إلى سادات مكة،

(١) انظر ترجمة حاطب بن أبي بلتعة في كتابنا (غزوة أحد).

(٢) سارة هذه، مولاة لبعض بني عبد المطلب بن عبد مناف، وكانت مغنية بمكة، قال في السيرة الحلبية. قدمت على رسول الله ﷺ المدينة وأسلمت، وطلبت منه الميرة وشكت الحاجة : فقال لها رسول الله ﷺ ما كان في غنائك ما يغنيك؟ فقالت: إن قريشاً منذ قتل منهم من قتل بيدركوا الغناء، فوصلها رسول الله ﷺ وأوفر لها بعبراً طعاماً، فرجعت إلى قريش وارتدت عن الإسلام، ولهذا كانت ضمن من أهدر النبي ﷺ دمه يوم الفتح.

وقال لها: اخفيه ما استطعت، ولا تمرِّي على الطريق فإن عليها حرساً، فسلكت مسالك مهجورة ليس عليها حرس، عن يسار المحجة في فُلُوق<sup>(١)</sup> الحرة حتى خرجت إلى الطريق الرئيسي بالعقيق<sup>(٢)</sup>، وبذلك لم يظن لها أحد من حرس الطرق حتى وصلت ذا الحليفة «أبيار علي» على بعد سبعة أميال من المدينة.

وقد بدأت المرأة سارة في تنفيذ المهمة التي كلفها بها حاطب، فلجأت لإخفاء كتابه إلى قريش إلى أسلوب غاية في التعمية، فقبل أن تغادر المدينة نَفَسَتْ شعر رأسها ثم دست الكتاب فيه ثم قتلت عليه إحدى جدليتها، ثم أرسلتهما بعد أن اختفى فيهما الكتاب تماماً، ثم انطلقت في اتجاه مكة لإكمال المهمة.

وقد نجحت في مغادرة المدينة دون أن يراها أحد من الحراس (البوليس الحربي) المكلفين بحراسة الطرق ومراقبة من يمر بها.

غير أن هذه الجاسوسة لم تكد تصل إلى ذي الحليفة حتى اكتشف الرسول ﷺ أمرها وأمر مرسلها حاطب، وذلك عندما جاءه الوحي ينذره بذلك، فسارع الرسول ﷺ فاستدعى علي بن أبي طالب والزبير بن العوام بأن يلحقا بالمرأة الجاسوسة ويأخذا منها الكتاب الذي كان حاطب قد دفعه إليها لتسلمه زعماء قريش حيث قال ﷺ: أدركا امرأة قد بعث معها حاطب بن أبي بلتعة بكتاب إلى قريش يجردهم ما قد أجمعنا له في أمرهم<sup>(٣)</sup>.

فأسرع علي والزبير يتبعان الجاسوسة (سارة)، ولم يطل بهما البحث فقد وجداها راكية جملًا لها في مكان قريب من المدينة يقال له: الخليفة (بضم الخاء) خليفة بني أبي حمد<sup>(٤)</sup> فاستوقفاها ثم طلبا منها النزول، فنزلت، وهنا قاما بتفتيش رحلها تفتيشاً دقيقاً فلم يجدا أي أثر للكتاب الذي ذكر رسول الله ﷺ، فسألها عن الكتاب المذكور فأنكرت أن يكون لها أي علم به، فشددا عليها وحلفا بالله: ما كذب رسول الله ﷺ ولا

(١) الفلوق: جمع فلق: وهو الشق في الأرض.

(٢) العقيق هو الوادي الشهير الذي يقع غربي المدينة.

(٣) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٤١.

(٤) البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٨٣.

كُذِّبنا، ثم أنذراها بأنها إذا لم تعطهما الكتاب الذي معها سيضطران إلى تفتيشها حتى ولو أدى الأمر إلى تكشيفها قائلين: لتخرجن هذا الكتاب أو لنكشفنك، فلما رأت منهما الجذ انهارت فاعترفت، ثم طلبت منهما أن لا ينظرا إليها قائلة: أعرضوا عني - لتلا ينظرا إلى شعر رأسها - فأعرضا عنها، وهنا حلت قرون رأسها ثم استخرجت الكتاب فدفعته إليهما، فعادا به إلى رسول الله ﷺ، أما هذه المرأة الجاسوسة فقد جاء في كتب السيرة أن علياً والزيير خليا سبيلها ولم يلقيها عليها القبض وذلك حسب تعليمات الرسول ﷺ<sup>(١)</sup>، وبهذا أحبطت عملية التجسس الخطيرة التي شرع في ارتكابها حاطب بن أبي بلتعة ضد نبيّه وضد أمته، وهي عملية لو نجحت لتنبهت قريش واستعدت لمواجهة الغزو الذي أراد الرسول ﷺ أن يفاجئها به، الأمر الذي قد يؤدي إلى نشوب معارك ضارية وإزهاق أرواح كثيرة من الفريقين يحرص الرسول ﷺ على أن لا يراق منها شيء.

النبي يحقق مع حاطب بن أبي بلتعة : وقد استدعى الرسول ﷺ حاطب بن أبي بلتعة لاستجوابه والتحقيق معه بشأن تلك الرسالة التي كتبها لقريش وضبطها الزبير وعلى مع الجاسوسة سارة.

فعندما مثل حاطب بين يدي الرسول ﷺ أبرز الرسول ﷺ الرسالة التي كتبها حاطب وقال له: أتعرف هذا الكتاب فلم ينكر بل قال: نعم، فقال له الرسول ﷺ: ما حملك على هذا؟ فقال: والله إنني لمؤمن بالله ورسوله ما غيّرت ولا بدلت ولكني كنت امرأ ليس لي في القوم من أصل ولا عشيرة، وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابة يحمون أموالهم وأهلهم بمكة، ولم يكن لي قرابة، فأحببت أن أتخذ فيهم يداً أحمي بها أهلي، فما فعلت ذلك كفرأ بعد إسلام، وقد علمت أن الله تعالى منزل بهم بأسه لا يغني عنهم كتابي شيئاً<sup>(٢)</sup>.

النبي يأمر بحفظ القضية ويعفو عن حاطب : وكان عمر بن الخطاب حاضراً التحقيق، فاغتاض على حاطب وطالب بإعدامه قائلاً: يا رسول الله دعني فلاضرب عنقه فإن الرجل قد نافق<sup>(٣)</sup>.

(١) انظر مغازي الواقدي ج ٢ ص ٧٩٨ وصحيح البخاري ج ٥ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ١٩٩ والبداية والنهاية ج ٢ ص ٢٨٣.

(٢) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٠٠.

(٣) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٤١.

إلا أن النبي ﷺ لم يوافق على اقتراح عمر بل أتبع سبيل الصفح والعفو عن حاطب لما له من مواقف مشرفة في السبق إلى الإسلام والذود عنه، لذلك أمر بحفظ القضية. فقد أنهى النبي التحقيق مع حاطب بالعفو عنه قائلاً: إنه قد صدقكم ولا تقولوا له إلا خيراً<sup>(١)</sup>.

ثم وجه الرسول ﷺ حديثه إلى ابن الخطاب مؤكداً العفو عن حاطب لأنه ممن حضروا بدرًا مع الرسول ﷺ (وما يدريك يا عمر، لعل الله قد اطلع إلى أصحاب بدر يوم بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم!!!)<sup>(٢)</sup>.

وقد أنزل الله تعالى في حادثة حاطب بن أبي بلتعة: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوِّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جِهَدًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ الآية<sup>(٣)</sup>.

وفي هذه الآية تأكيد وشهادة بإيمان حاطب بن أبي بلتعة؛ لأن هذا التنبيه موجه إليه خصوصاً وإلى المؤمنين عامة.

لأن حاطباً هو الذي ألقى إليهم بالمودة حينما كتب إليهم ذلك الكتاب. استمرار خطة كتمان الزحف على مكة: ويأحباط محاولة حاطب بن أبي بلتعة وباستعادة خطاب التحذير الذي كتبه لقريش من الجاسوسة سارة؛ ظلت خطة الكتمان معمولاً بها، وعميت أنباء تحركات الرسول الحربية الواسعة عن قريش، حتى وصل بجيوشه إلى وادي مر الظهران القريب من مكة.

وكذلك عامة الصحابة وسواد الجيش الذي يقوده والذي بلغ عشرة آلاف محارب لم يعلموا على وجه التحديد إلى أين يريد التوجه بهم وعلى من يريد بهم أن يغبر، وطريق الكتمان والتعمية والتورية في العمليات العسكرية هي دائماً (إلا في النادر) طريقة الرسول القائد ﷺ. وهي خطة من أهم وسائل تحقيق الظفر بالعدو.

(١) صحيح البخاري ج ٥.

(٢) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٤٩.

(٣) المتحنة آية ١.

وقد كان بعض قادة القبائل (وخاصة الأعراب) يحاولون التعرف على الجهة التي يريد الرسول ﷺ فيسألون فلا يجدون جواباً شافياً لهم.

فهذا عيينة بن حصن الفزاري (وقد أسلم) عندما وصل الجيش قديداً<sup>(١)</sup> سأل الرسول ﷺ عندما رآه يعبئ الجيش ويوزع الرايات على قادة الكتائب: فأين وجهك يا رسول الله؟ فلم يزد الرسول في إجابته على أن قال: حيث يشاء الله<sup>(٢)</sup>. وهذا كعب بن مالك فارس رسول الله ﷺ وشاعر الإسلام المفلق حاول أن يستكشف للصحابة ويحصل من الرسول على علم بالجهة التي يريد بها الجيش الكبير فلم يفلح.

فقد جاء في كتب السير والمغازي ما يفيد أن الرسول ﷺ ظل ملتزماً الصمت لا يدري أصحابه إلى أين يتحرك بهم حتى بعد أن وصل قرب حدود الحرم. يدل على ذلك أن الرسول ﷺ لما نزل بالجيش في وادي العرج<sup>(٣)</sup> وهو من وديان الطائف، قال كعب بن مالك لمجموعة من سادات المهاجرين والأنصار - وكانوا تواقين إلى معرفة الجهة التي يريد الرسول الزحف عليها أيقصد ثقيفاً أم هوازن أم قريشاً - : آتى رسول الله ﷺ فأعلم لكم على وجهه فجاء كعب فبرك بين يدي رسول الله ﷺ على ركبته، ثم قال:

قضيئا من تهامة كل ريب	وخير ثم أجمعنا السيوفاً
نسائلها ولو نطقت لقات	قواطعهن دوساً أو ثقيفاً
فلست لحاضر إن لم تروها	بساحة داركم منها ألوفاً
فنتزع الخيام ببطن وجج <sup>(٤)</sup>	ونترك دورهم منها خلوفاً

فتبسم رسول الله ﷺ ولم يزد على ذلك، فجعل الصحابة يقولون: والله ما بين لك رسول الله ﷺ شيئاً، ما ندري بمن يبدأ بقريش أو ثقيف أو هوازن<sup>(٥)</sup>.

(١) قديد (بضم أوله وفتح ثانيه) قال ياقوت: موضع قرب مكة.

(٢) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٨٠٣.

(٣) العرج (بفتح أوله وسكون ثانيه) قال في معجم البلدان، قرية جامعة في واد من نواحي الطائف وهي لبني نصر ابن معاوية قوم قائد هوازن في حنين مالك بن عوف.

(٤) وج (بكسر أوله) واد شهير من وديان الطائف الرئيسية، وهو اليوم يشق مدينة الطائف بعد أن اتسع عمرانها فانتشرت فيها البيوت والعمارات الحديثة على ضفتي هذا الوادي.

(٥) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٨٠٢.

عدد قوات الجيش النبوي المتحركة من المدينة : لقد أجمع المؤرخون وأصحاب السير على أن الجيش الذي زحف به الرسول ﷺ على مكة لم يكن أقل من عشرة آلاف مقاتل، وبعضهم يقول: إنه بلغ اثني عشر ألفاً.

غير أنه من المؤكد أن القوات المتحركة من المدينة ليست كل الجيش؛ لأن بعض القبائل المسلمة البعيدة من المدينة، مثل سُلَيْم<sup>(١)</sup> الحجاز، لم تنضم إلى الجيش النبوي إلا بعد أن خرج من المدينة.

نسبة عدد الأنصار والمهاجرين في الجيش المتحرك من المدينة : أما القوات الرئيسية التي تحرك بها الرسول ﷺ من المدينة فقد بلغت سبعة آلاف وأربعمائة (٧٤٠٠) مقاتل وتفصيل نسبة الأنصار والمهاجرين والقبائل الأخرى فيها هي على النحو التالي:

أ- الأنصار : أربعة آلاف ٤٠٠٠

ب- المهاجرون: سبعمائة ٧٠٠

ج- مُزَيْنَة<sup>(٢)</sup>: ألف ١٠٠٠

د- أسلم<sup>(٣)</sup>: أربعمائة ٤٠٠

هـ- جُهَيْنَة: ثمانمائة ٨٠٠

و- بنو كعب بن عمرو<sup>(٤)</sup>: خمسمائة ٥٠٠

وزعم الواقدي أنهم لم يخرجوا من المدينة وإنما لقوا الرسول ﷺ بقديد التي هي من منازلهم.

(١) اسم سليم (بضم أوله) اسم لعدة قبائل عدنانية وقحطانية، ولكن سُلَيْمًا هؤلاء: هم القبيلة العظيمة المشهورة، وهم بنو سليم بن منصور بن عكرمة بن خفصة بن قيس بن غيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان تنتشر بطون سليم هؤلاء من عالية نجد حتى تلامس حدود بني نصر بن معاوية من هوازن.

(٢) انظر ترجمة مُزَيْنَة فيما مضى من هذا الكتاب.

(٣) أسلم اسم لعدة قبائل قحطانية: ولكن هؤلاء، مقصود بهم: أسلم بن أقصى بن حارثة بن عمرو بن عامر: تقع منازلهم بوبرة قريباً من المدينة.

(٤) كعب اسم لعدة قبائل من العدنانية والقحطانية، غير أن هؤلاء مقصود بهم بطن من خزاعة وهم بنو عمرو ابن خزاعة بن ربيعة بن حارثة بن عمرو مزيقيا بن ماء السماء ملك مأرب.

هذه هي القوات الرئيسية التي تحركت من المدينة بقيادة الرسول ﷺ<sup>(١)</sup>.

المنضمون إلى الجيش النبوي أثناء التحرك: أمّا بقية القوات الإسلامية التي بها اكتمل الجيش النبوي عشرة آلاف مقاتل فهي من مختلف القبائل التي كانت تنضم إلى الرسول ﷺ، تبعاً في الطريق وهو يتحرك بالجيش نحو مكة، ومن هذه القبائل، قبيلة سليم التي انضم منها إلى النبي ﷺ - وهو بقديد في طريقه إلى مكة - ألف مقاتل - وغفار وأشجع وغيرهم.

سلاح الفرسان في الجيش النبوي: أما سلاح الفرسان في الجيش النبوي الزاحف على مكة، فقد دلت إحصاءات المؤرخين على أنه بلغ (بعد أن اكتمل الجيش عشرة آلاف مقاتل) ألفين وثمانين فارساً تقريباً، ونسبة هؤلاء الفرسان بين القبائل على النحو التالي.

أ- بنو سليم: ألف فارس ١٠٠٠

ب- الأنصار: خمسمائة فارس ٥٠٠

ج- المهاجرون: ثلثمائة فارس ٣٠٠

د- مُزينة: مائة فارس ١٠٠

هـ- جُهينة: خمسون فارس ٥٠

و- عشائر أخرى: مائة فارس تقريباً ١٠٠

ز- أسلم: ثلاثون فارساً ٣٠<sup>(٢)</sup>

سلاح الثقليات في الجيش: أما سلاح الثقليات من الجمال، فلا شك أنه كثير. غير أنني لم أر أحداً من المؤرخين (فيما لدي من مصادر) حدد عدد هذا السلاح. وكذلك سلاح الوقاية من الدروع فلم أعر (فيما بين يدي من مصادر) على إحصاء الكمية منه في هذا الجيش، ما عدا ما ذكره الواقدي من أن قوات قبيلة مُزينة كان فيها مائة دارع<sup>(٣)</sup> فقط.

(١) انظر مغازي الواقدي ج ٢ ص ٨٠٠.

(٢) انظر السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٠١ ومغازي الواقدي ج ٢ ص ٨٠٠ وإمتاع الأسماع ص ٣٦٤.

(٣) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٨٠٠.



حاكم المدينة بالنيابة : وعندما استكمل الحشد في المدينة وأتم الرسول ﷺ إعداد الجيش وتجهيزه، وتحدد ميعاد التحرك، أصدر الرسول ﷺ - كما هي عادته المتبعة - مرسوماً نبوياً عين بموجبه ابن أم مكتوم<sup>(١)</sup> أميراً على المدينة يصلي بالناس ويدير شئونها نيابة عن الرسول ﷺ حتى يعود من هذه الغزوة، وقال الطبري: استخلف النبي ﷺ على المدينة أبا رهم كلثوم ابن حصين الغفاري.

تاريخ تحرك الجيش في المدينة : وهكذا ، وفي أوائل شهر رمضان المبارك من السنة الثامنة للهجرة بدأت عقارب الساعات في تاريخ الإسلام الحاسم تتحرك في مدادها زاحفة نحو الصفر الذي بوصولها إليه تحول مجرى الصراع بين الإسلام والوثنية تحولاً نهائياً لصالح الإسلام، حيث تمت السيطرة لجيوش التوحيد على مكة في أواخر هذا الشهر المبارك. وباستيلاء المسلمين على العاصمة المقدسة انهار أعظم معقل للوثنية في جزيرة العرب. وبانهياره أخذت بقية الجيوب الوثنية في الجزيرة تتساقط الواحد بعد الآخر دونما أي عناء حربي يذكر، ما عدا الصدام العنيف الذي جرى بين المسلمين وهوازن في وادي حنين في شهر شوال من السنة الثامنة للهجرة.

ففي اليوم العاشر من شهر رمضان المبارك فصل النبي ﷺ بالقوات الإسلامية الرئيسية من المدينة.

وكانت أول الأمر - كما ذكرنا - حوالي سبعة آلاف مقاتل فقط، انضم إليها تباعاً أثناء التحرك من القبائل المسلمة ما جعل عددها يبلغ عشرة آلاف مقاتل، وقال بعضهم اثني عشر ألف مقاتل<sup>(٢)</sup>.

خروج الجيش على غير تعبئة : والأكثر ترجيحاً أن النبي ﷺ خرج بجيشه من المدينة على غير تعبئة، وأنه لم يعبئه ويكتب كتائبه ويوزع راياته على قادة الألوية والفرق إلا عندما وصل إلى قديد بديار حلفائه خزاعة.

(١) انظر ترجمة ابن أم مكتوم في كتابنا (غزوة أحد).

(٢) إمتاع الأسماع ص ٣٦٤.

لأن الجيش لم يكتمل عدده إلا في قديد حيث وافت النبي ﷺ بنو سليم في ألف فارس يقودهم سيدهم عباس بن مرداس السلمي<sup>(١)</sup>، وهم آخر قوة من قوات البادية التي انضمت إلى الجيش النبوي وهو في طريقه إلى مكة.

الترخيص للجيش بالإفطار في رمضان: وعندما غادر النبي ﷺ بالجيش المدينة أعلن الترخيص للعسكر بالإفطار إذ أمر منادياً أن ينادي من أحب أن يصوم فليصم، ومن أحب أن يفطر فليفطر، وصام رسول الله ﷺ<sup>(٢)</sup>، إلا أنه ﷺ لما وصل مر الظهران - قريباً من مكة - أمر الجيش بأن يفطر واعتبر من لم يفطر عاصياً لله ورسوله.

طلیعة الجيش النبوي: وبالرغم من أن النبي ﷺ تحرك بجيشه من المدينة على غير تعبئة (لأن أكثر القبائل التي سيمر بها مثل غفار وخزاعة وسليم قد دخلوا في الإسلام). فقد انتخب مائتي فارس أمرهم أن يكونوا أمامه طليعة يقومون بالاستكشاف، وقد أسند قيادة هذه الطليعة من الفرسان إلى الزبير بن العوام. الذي استمر يستطلع أمام الجيش حتى دخلوا مكة المكرمة.

قال الواقدي: وخرج المسلمون وقادوا الخيل وامتطوا الإبل، وكانوا عشرة آلاف، وقدم رسول الله ﷺ أمامه الزبير بن العوام في مائتين من المسلمين.

سيد غطفان يلتحق بالرسول بعد خروجه من المدينة: وكان عيينة بن حصن الفزاري<sup>(٣)</sup> من ألد أعداء رسول الله ﷺ، فقد كان قائد غطفان القبيلة العظيمة المحاربة التي قادها عيينة في كل موطن ضد الإسلام والمسلمين، قادها في معركة الأحزاب وقادها في معارك خيبر مسانداً لليهود ضد الرسول ﷺ، وحاول الهجوم على المدينة عدة مرات، في عيينة هذا بعد أن خضدت جيوش الإسلام شوكة قومه غطفان دخل في الإسلام، إلا أن النبي ﷺ عندما أرسل رسله لاستنفار القبائل المجاورة للمشاركة في غزو قريش لم يستنفر قبائل غطفان، إلا فخيذة أشجع منها، حيث كان فيها رجال من السابقين الأولين، مثل نعيم بن مسعود، ومعقل بن سنان اللذين بعث بهما النبي ﷺ لاستنفار فخيذة أشجع.

(١) هو عباس بن مرداس بن أبي عامر السلمي من مضر قال الزركلي: كنيته أبو الهيثم، شاعر فارس من سادات قومه، أمه الحنساء الشاعرة الشهيرة أسلم قبيل فتح مكة، ويدعى فارس العبيد - بالتصغير - وهو فرسه، كان بدوياً قحاً، لم يسكن مكة ولا المدينة، وإذا غزا وحضر الغزو مع الرسول ﷺ لم يلبث أن يعود إلى منازل قومه بالبادية، وكان راجح العقل، وهو من حكماء العرب القلائل الذين حرموا الخمر على أنفسهم في الجاهلية مات في خلافة عمر.

(٢) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٨٠١.

(٣) انظر ترجمة عيينة بن حصن في كتابنا (غزوة بدر).

عينته هذا عندما بلغه أن الرسول ﷺ قد استنفر المسلمين لغزو قريش سارع من بلاده لينضم إلى الجيش النبوي، فقدم المدينة، ولكنه وجد الرسول ﷺ قد غادرها بجيشه قبل أن يصل إليها بيومين، فأسرع مختصراً الطريق فالتقى برسول الله ﷺ في العرج التي لم يصلها النبي ﷺ حتى وجد عينته ينتظره فيها في نفر من غطفان، فأبدى عينته بن حصن اعتذاره للرسول ﷺ قائلاً: يا رسول الله بلغني خروجك، ومن يجتمع إليك، فأقبلت سريعاً ولم أشعر فأجمع قومي فيكون لنا جلبة كثيرة (وكانت غطفان قوة حربية هائلة يزيد عددها على عشرة آلاف مقاتل ولكن النبي ﷺ لم يستنفرها مثلما استنفر بقية القبائل) ثم قال عينته: ولست أرى حياة حرب، لا أرى ألوية ولا رايات! فالعمرة تريد؟ فلا أرى حياة إحرام! فأين وجهك يا رسول الله؟ قال: حيث يشاء الله.

وكان عينته أعرابياً جلفاً أحمقاً ولكنه كان محارباً ممتازاً وهو الذي يكنى بالأحمق المطاع، إلا أنه لما كان سيداً عظيماً في قومه اصطحبه الرسول ﷺ معه وجعله ضمن هيئة أركان حربه؛ لأن من سياسة الرسول الحكيمة تألف أمثال هؤلاء السادة المطاعين في قومهم. لأن كسب أمثالهم فيه قوة للإسلام.

والأقرع بن حابس أيضاً ينضم للجيش: كذلك كان الأقرع بن حابس التميمي سيداً عظيماً في قومه، التحق في عشرة من أصحابه بالرسول ﷺ بعد أن خرج من المدينة، فالتقى به في منطقة السقياء<sup>(١)</sup>، وكان النبي ﷺ كذلك لم يستنفر بني تميم فيمن استنفر من القبائل، ويظهر أن ذلك راجع إلى أن تميمًا لم يدخلوا في الإسلام «ككل» إلا عام الوفود (تسع للهجرة) عندما قدم وفدهم المدينة، وكذلك لما كان الأقرع بن حابس<sup>(٢)</sup> سيداً عظيماً مطاعاً في قومه جعله الرسول ﷺ رغم حداثة إسلامه - ضمن هيئة أركان حربه مثل عينته بن حصن. حتى أن الرسول ﷺ لما دخل مكة يوم الفتح كان بين عينته بن حصن والأقرع بن حابس.

(١) السقياء (بضم السين) انظر تحديدها في كتابنا (غزوة بدر).

(٢) هو الأقرع بن عقال المجاشعي الدارمي التميمي قال في الأعلام: صحابي من سادات العرب في الجاهلية، قدم على رسول الله ﷺ في وفد من بني دارم (من تميم) فأسلموا، وشهد حينئذ وفتح مكة والطائف وسكن المدينة، وكان من المؤلفات قلوبهم ورحل إلى دومة الجندل في خلافة أبي بكر وكان مع خالد بن الوليد في أكثر وقائعه حتى الإمامة واستشهد بالجوزجان وكان حكيماً في الجاهلية ومن حرم الخمر على نفسه.

قصة أبي سفيان بن الحارث ابن عم النبي وعدوه : واستمر الرسول في التحرك بجيشه عبر الطريق الرئيسي التقليدي، وكانت طلائع استكشاف الجيش وأجهزة استخباراته التي كانت تنتشر في المقدمة، قد أمر رجالها باعتقال كل من يلتقون به في الطريق ممن لم يكن من المسلمين، وذلك تمثيلاً مع الخطة التي قرر الرسول اتباعها، وهي منع وصول أي نبا إلى قريش عن تحرك النبي بأصحابه، وذلك ليأخذهم بغتة ويدهمهم فجأة.

وكان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ابن عم النبي ﷺ وأخوه من الرضاعة على حليلة السعدية من أشد الناس عداوة لرسول الله ﷺ وكان شاعراً يهجو النبي ﷺ وأصحابه استمر على شدة عداوته لرسول الله ﷺ عشرين سنة، وكان قبل ذلك ترباً لرسول الله ﷺ ، فلما بُعث النبي ﷺ عاداه عداوة لم يعاد أحد مثلها قط، وكان مثل أبي هب لم يدخل الشعب مع بني هاشم حينما حاصرتهم قريش في مكة، وكان شديد الإيذاء والمضايقة والتنكيد على رسول الله ﷺ، وما تخلف عن موطن قاتلت فيه قريش النبي ﷺ

وأبو سفيان بن الحارث هذا هو الذي قال للنبي ﷺ وهو يدعو قومه إلى الإسلام: يا محمد لن نؤمن لك حتى ترقى في السماء ويكون لك بيت من زخرف وتفجر لنا الأنهار. فأنزل الله تعالى في عناده وكفره الشديد هذا قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ۖ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَعَيْنٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۚ أَوْ تَسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتِ عَلَيْنَا كَيْسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ۚ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ بِرُؤْيَاكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ (١).

وكان الرسول ﷺ قد أهرق دم أبي سفيان بن الحارث فيمن أهدر دمهم من كبار مجرمي مكة الذين كانوا شديدي العداوة والعناد لله والرسول ﷺ.

ولما رأى أبو سفيان هذا، أن دين ابن عمه محمد ﷺ قد بسط سلطانه على أكثر أنحاء الجزيرة العربية، وأن مسألة وقوع مكة في قبضة الإسلام، هي مسألة وقت فقط، لم يمتثل ذلك، ولم يكن هذا الانتصار لدعوة أخيه وابن عمه النبي حافزاً له على الإسراع إلى الدخول في الإسلام، بل كان عاملاً في رفع نسبة الكره لهذا الدين والنفور منه.

لذلك - وقد أيقن أن احتلال المسلمين مكة أمر لا مفر منه - قرر مغادرة الجزيرة العربية كلها، فهرب إلى ملك الروم<sup>(١)</sup>.

كيف دخل الإسلام قلب أبي سفيان بن الحارث؟ غير أن أبا سفيان بن الحارث لما التجأ إلى هرقل (قيصر الروم) وسمع من قيصر بعض الحديث عن الرسول ﷺ دخل الإسلام في قلبه، فقرر العودة إلى مكة ليعلن إسلامه.

فقد حدث أبو سفيان نفسه: لما هرب من مكة إلى قيصر - قبل أن يتحرك الرسول ﷺ من المدينة - قال له قيصر: ممن أنت؟ فأخبره أنه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب. فقال له ملك الروم: أنت إذن ابن عم محمد بن عبد الله، إن كنت صادقاً؟ قال: قلت: نعم، أنا ابن عمه، قال أبو سفيان: فقلت (في نفسي): لا أراني عند ملك الروم وقد هربت من الإسلام، لا أعرف إلاً بمحمد!! فدخمني الإسلام وعرفت أنّ ما كنت فيه باطلاً من الشرك، ولكننا كنا مع قوم أهل عقول باسقة، وأرى فاضل الناس يعيش في عقولهم ورأيهم، فسلكوا فجاً فسلكناه. ولما جعل أهل الشرف والسن يقتحمون عن محمد، وينصرون آهتّهم ويغضبون لأبائهم، فاتبعناهم<sup>(٢)</sup>.

قالوا: ثم عاد أبو سفيان من بلاد الروم إلى مكة وعلم أن رسول الله ﷺ قد أهدر دمه. ولكنه رغم ذلك صمم على أن يقابل رسول الله ﷺ ليحصل على عفو عام منه لأنه قرر الدخول في الإسلام، وكان عبد الله بن أبي أمية<sup>(٣)</sup> صديقاً لأبي سفيان بن الحارث، وكان مثله شديد العداوة لرسول الله ﷺ فاتفقا على أن يذهبا معاً ويتحينا الفرص للدخول على رسول الله ﷺ عسى أن يعفو عنهما.

وتفيداً لهذا العزم خرج أبو سفيان بن الحارث وعبد الله بن أبي أمية في اتجاه المدينة

(١) مغازي الواقدي ج ٢ ص ١١.

(٢) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٨١٢.

(٣) هو عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة المخزومي القرشي صهر النبي ﷺ وابن عمته عاتكة وأخو أم سلمة أم المؤمنين، أسلم عام الفتح، كان من أشد الناس على رسول الله ﷺ في مكة، وهو الذي قال للرسول ﷺ مكابراً ﴿لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً﴾ شهد فتح مكة وحين مع رسول الله ﷺ وحسن إسلامه، وأصح الأقوال أنه استشهد في حصار الطائف عام ثمان للهجرة.

(وكان أبو سفيان متنكراً خوف القتل لأنه ممن أهدر النبي ﷺ دمهم)، فلقيا رسول الله ﷺ بنيق العقاب<sup>(١)</sup>، فحدث أبو سفيان نفسه عن القصة فقال:

لقيت رسول الله ﷺ أنا وعبد الله بن أبي أمية، فطلبنا الدخول على رسول الله ﷺ فأبى أن يدخلنا عليه، فكلمته زوجته أم سلمة فقالت: يا رسول الله، صهرك وابن عمك وابن عمك وأخوك من الرضاعة.

وقد جاء الله بهما مسلمين، لا يكونان أشقى الناس بك، فقال رسول الله ﷺ: لا حاجة لي بهما، أما أخي فالقائل لي بمكة، لن يؤمن لي حتى أرقى في السماء! فقالت: يا رسول الله، إنما هو من قومك، وقد تكلم وكلُّ قريش قد تكلم ونزل القرآن فيه بعينه، وقد عفوت عمن هو أعظم جُرمًا، وابن عمك وقرابته بك، وأنت أحق الناس عفواً عن جُرمه، فقال ﷺ: «هو الذي هتك عرضي (يعني شتمني وهجاني) وكان أبو سفيان شاعراً يهجو رسول الله ﷺ ويحرض عليه».

فلما خرج إليهما الخبر، قال أبو سفيان بن الحارث ومعه ابنه: والله ليقبلني أو لأخذت بيد ابني هذا فلاذهبن في الأرض حتى أهلك عطشاً وجوعاً، وأنت (يعني الرسول ﷺ) أحلم الناس وأكرم الناس مع رحمي بك، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ مقالته فرق له.

أما عبد الله بن أبي أمية، فقد قال للرسول ﷺ - مسترحماً - : إنما جئتك لأصدقك، ولي من القرابة والصهر بك، وجعلت أم سلمة تكلمه فيهما، فرق رسول الله ﷺ لهما فأذن لهما ودخلا، فأسلما وكان جميعاً حسني الإسلام، قتل عبد الله بن أبي أمية بالطائف شهيداً، ومات أبو سفيان بن الحارث بالمدينة في خلافة عمر، لم يُغمصَ عليه في شيء.

وبعد أن قبل الرسول ﷺ أبا سفيان وزميله عبد الله بن أبي ربيعة وعفا عنهما، قال أبو سفيان شعراً يذكر إسلامه ويعتذر فيه مما كان منه في الماضي، وكان شاعراً مجيداً.

(١) نيق العقاب (بكسر النون) موضع على الطريق الرئيسي بين مكة والمدينة، بعد الأبواء لمن يريد مكة بالطريق القديم (طريق القوافل).

لعمرك إني يوم أحد راية  
لكالمدلج الحيران أظلم ليلهُ  
هذا بي هاد غير نفسي ونالي  
أصد وأناى جاهداً عن محمد  
هموا ما هم من لم يقل بهواهم  
أريد لأرضيهم ولست بلائط<sup>(١)</sup>  
فقل لثقيف لا أريد قتالها  
فما كنت في الجيش الذي نال عامراً  
قبائل جاءت من بلاد بعيدة

لتغلب خيل اللات خيل محمد  
فهذا أواني حين أهدى وأهدى  
مع الله من طردت كل مطرد  
وأدعى وأن أنتسب من محمد  
وإن كان ذا رأي يلم ويفند  
مع القوم ما لم أهد في كل مقعد  
وقل لثقيف تلك غيري أو عدى  
وما كان عن جرا لساني ولا يدي  
نزاع جاءت من سهام وسردد

فذكر المؤرخون أنّ النبي ﷺ لما قال أبو سفيان في شعره هذا: (مع الله من طردت كل مطرد) قال النبي ﷺ - وهو يضرب على صدر نفسه - أنت طردتني كل مطرد، وفي رواية: (بل طردك الله كل مطرد)، فقال أبو سفيان: يا رسول الله: هذا قول قلته بجهالة وأنت أولى الناس بالعفو والحلم<sup>(٢)</sup>.

الرسول ينهي عن قتل أبي سفيان بن حرب : وفي الوقت الذي أهدر فيه الرسول ﷺ دم أخيه وابن عمه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب أمر على وجه الخصوص بمحقتن دم أبي سفيان بن حرب سيد قريش وقائد جيوشها العام؛ لأن أبا سفيان بن حرب «على ما يظهر» رغم كونه زعيم المشركين في مكة وصاحب حربهم، فإنه كان ذا عقل راجح، ولم يكن في عداوته لرسول الله ﷺ من الشدة كالمطرفين مثل أبي جهل بن هشام وأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، والنضر بن الحارث وعقبة بن أبي مغيط، بل كانت له مواقف تاريخية تدل على بعد النظر والاعتدال، من ذلك نصحه قريشاً بأن تعود بجيشها وتتجنب الاصطدام المسلح مع النبي ﷺ في بدر التي دارت فيها المعركة التاريخية الفاصلة تحت ضغط أبي جهل الشديد على قريش، وعلى كرهه من عقلائها مثل أبي سفيان وعتبة

(١) لائط: أي ملصق، يقال: لاط حبه بقلبي أي لصق به.

(٢) انظر سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٤٢ وما بعدها، ومغازي الواقدي ج ٢ ص ٨١٠ وما بعدها، والبداية والنهاية ج ٤

ابن ربيعة وحكيم بن حزام، ومن ذلك استنكاره لمشاركة قريش في الغدر بخزاعة ولومه قريشاً على ذلك، وعدم تطاوله على الرسول معتدياً بيده أو شامئاً بلسانه أيام وجود رسول الله ﷺ في مكة قبل الهجرة، مثلما كان يفعل الزعماء الآخرون كعقبة ابن أبي معيط والنضر بن الحارث وأبي جهل بن هشام وأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب.

ولهذا ، فإن النبي ﷺ لم يهدر دم أبي سفيان بن حرب، بل أمراً لعامة جنده بأن لا يقتل أحد منهم أباً سفيان هذا إن لقيه.

فقد قال ﷺ وهو يتحرك بجيشه نحو مكة: «هم سائلوكم بأرحامكم - يعني قريشاً - وأنتم لا قون بعضهم، فإن لقيتم أباً سفيان فلا تقتلوه»<sup>(١)</sup> وأبو سفيان هنا، هو أبو سفيان ابن حرب، لا أباً سفيان بن الحارث؛ لأن الأخير قد أهدر الرسول دمه، فأمر بقتله أينما وجد، ثم عفا عنه بعد أن التقى به واسترحمه كما تقدم تفصيله.

القبائل المنضمة إلى الجيش النبوي في الطريق إلى مكة: ذكرنا فيما مضى من هذا الكتاب أن القوات الرئيسية المتحركة من المدينة بقيادة الرسول ﷺ كانت حوالي سبعة آلاف وأربعمائة مقاتل، وأن عددها مازال يزداد بانضمام مختلف القبائل إليه وهو يتحرك في طريقه نحو مكة حتى اكتمل عشرة آلاف مقاتل، وقد اكتمل هذا العدد في منطقة قديد من ديار خزاعة، وكانت آخر قوة قبلية انضمت إلى الجيش النبوي واكتمل بها عدد عشرة آلاف مقاتل هم بني سليم الذي كانوا ألف مقاتل كلهم من الفرسان.

قوات غفار في الجيش : وكانت غفار، أول قوة انضمت إلى الرسول ﷺ عقب خروجه من المدينة؛ لأن منازل هذه القبيلة تقع جنوب المدينة على الطريق الرئيسي إلى مكة ناحية الصفراء وبدر وودان<sup>(٢)</sup>.

فقد انضم من هذه القبيلة على الجيش النبوي أثناء تحركه (وعلى بعد حوالي ستين ميلاً من المدينة ثلثمائة مقاتل بقيادة أبي ذر الغفاري)<sup>(٣)</sup>.

(١) إمتاع الأسماع ص ٣٦٨.

(٢) إمتاع الأسماع ص ٣٧٣.

(٣) انظر ترجمة أبي ذر الغفاري في كتابنا (صلح الحديبية).



وكان الذي قام بتجنيدهم واستنفارهم أبو رهم، كلثوم بن الحصين<sup>(١)</sup>، وإيماء بن رخصة<sup>(٢)</sup> بعث بهما النبي ﷺ إلى غفار لاستنفارها للحرب قبل خروجه من المدينة، فوافياه بهم وهو في الطريق.

عدد قوات قبيلة أشجع في الجيش النبوي : كذلك من القبائل التي انضمت إلى الجيش النبوي فوافته في الطريق قبيلة أشجع النجدية وهي أحد الأجنحة الأربعة الرئيسية لقبيلة غطفان الشهيرة، انضم من مسلمي هذه القبيلة إلى الجيش ثلثمائة بقيادة الزعيمين معقل بن سنان<sup>(٣)</sup> ونعيم بن مسعود<sup>(٤)</sup> ، وكان رسول الله ﷺ قد بعث بهذين السيدين إلى قبيلة أشجع لاستنفارها للجهاد.

قوات بني سعد وضمرة بن بكر في الجيش : ومن القبائل التي وافت الرسول ﷺ في الطريق فانضمت إلى جيشه قبل أن يصل مكة: بنو سعد وبنو ضمرة، من كنانة ثم من بني بكر ، الذين كانوا سبباً في نقض صلح الحديبية انضم من هاتين القبيلتين إلى جيش النبي «وهو يتحرك بين مكة والمدينة» مائتا مقاتل، بقيادة أبي واقد الليثي<sup>(٥)</sup> .  
المنضمون من بني ليث إلى الجيش الزاحف : كذلك انخرط في سلك الجيش النبوي «وهو قريب من مكة» مائتان وخمسون مقاتلاً من قبيلة بني ليث بن سعد البكرية ثم الكنانية، وكان يقود هذه القوات الليثية الصعب بن جثامة<sup>(٦)</sup> ، وكان الرسول ﷺ -

(١) انظر ترجمة كلثوم بن الحصين (في هذا الكتاب).

(٢) انظر ترجمة إيماء بن رخصة (في هذا الكتاب).

(٣) انظر ترجمة معقل بن سنان (في هذا الكتاب).

(٤) انظر ترجمة نعيم بن مسعود في كتابنا (غزوة الأحزاب).

(٥) أبو واقد الليثي: اسمه عوف بن الحارث بن أسيد البكري من السابقين في الإسلام ولكنه لم يشهد بدرًا (على الصحيح) كان يحمل أحد الوية بني ليث يوم الفتح، ويوم حنين، وفي غزوة تبوك استنفر بني ليث لرسول الله ﷺ شهد معركة اليرموك، مات بمكة سنة ثمان وستين هـ وله خمس وسبعون سنة، ولد في السنة التي ولد فيها ابن عباس، ولهذا كانت بدر وهو غلام في الثانية عشرة من عمره، دفن بمكة بمقبرة المهاجرين (الإصابة ج ٤ ص ٢١٢).

(٦) هو الصعب بن جثامة بن قيس بن ربيعة الليثي: حليف قريش، أمه أخت أبي سفيان بن حرب الأموي. واسمها فاخنة وكان الصعب ينزل ودان أخى النبي ﷺ بينه وبين عوف بن مالك، كان الصعب من السابقين في الإسلام وكان فارسًا، ثبت يوم حنين ساعة الهزيمة المنكرة، وفيه قال النبي ﷺ يوم حنين: لولا الصعب بن جثامة لفضحت

قبل مغادرته المدينة - قد بعث برسله لاستنفار المسلمين من بني ضمرة وبني ليث وبني سعد<sup>(١)</sup> وكلهم من بكر بن كنانة، ويظهر أن الذي استنفرهم هو الحصين كلثوم بن الحصين وإيماء ابن رخصاء؛ لأن كليهما من بني بكر بن كنانة.

المنخرطون في سلك جيش النبي من بني كعب : ومن القوات المحاربة المسلمة التي وافت الرسول ﷺ وهو يتحرك بقواته الرئيسية في قديد - بنو كعب بن عمرو من خزاعة، انضم منهم إلى جيش الإسلام خمسمائة مقاتل، بقيادة بسر بن سفيان، وكان الرسول ﷺ بعث لاستنفارهم (وهو بالمدينة عندما قرر الزحف على قريش) بدليل بن ورقاء وبُسر بن سفيان.

بنو سليم أقوى قوة قبلية تنضم إلى الجيش النبوي : ولعل أقوى وأعظم قوة انضمت إلى القوات النبوية المتحركة في الطريق إلى مكة، هي قبيلة بني سليم. بقيادة سيدها وشاعرها وحكيمها عباس بن مرداس، فقد جاء عباس بن مرداس من جبال ووديان بني سليم يقود ألف مقاتل كلهم على متون الخيل ليس بينهم راجل واحد. وكان النبي ﷺ - عندما قرّ عزمه على غزو المشركين في مكة - بعث، وهو بالمدينة، الحجاج بن علاط السلمي، وعرباض بن سارية إلى قبائل بني سليم يستنفرهم لكي ينضموا إلى الجيش النبوي دون أن يعلمهم الوجهة التي يريد، تمسحاً مع خطة الكتمان التي انتهجها الرسول ﷺ منذ قرّ عزمه على غزو قريش.

النبي يستعرض الجيش في قديد : وقد جاء بنو سليم كاملي العتاد والعدة، فبالإضافة إلى كونهم جميعاً من الفرسان كانوا كلهم غائضين في الحديد مشرعة رماحهم. فأقبلوا على المعسكر النبوي، وهم ألف على صهوات الخيل تسرع بهم وكأنهم - برماحهم المشرعة - غابة متحركة، فكان منظرهم منظراً رائعاً، يهز المشاعر.

وزاد من روعة منظر فرسان بني سليم أن قاموا (وعددهم كما قلنا ألف فارس) باستعراض وقف الرسول القائد ﷺ وهيئة أركان حربه يشهدونه مما كان له أطيب الأثر في نفس الرسول ﷺ وقادة جيشه، فقد صف بنو سليم خيلهم صفوفاً أمام الرسول الأعظم ﷺ .

الخيل: شهد الصعب حروب الجهاد في فارس وكان ممن ساهم في فتح اصطرخ على الساحل الشرقي للخليج له أحاديث في الصحيح مات الصعب في آخر خلافة الفاروق.

(١) ضمرة وسعد وليث، أخوة ثلاثة وكلهم أبناء بكر بن كنانة، ولم يكن لبني ضمرة وليث وسعد هؤلاء يد في الغدر بخزاعة، وإنما الذي غدرهم بنو نفاثة قوم معاوية بن نوفل جيران الحرم.

أسف عيينة بن حصن لعدم اشتراك غطفان في الغزو: وقد هز منظر فرسان بني سليم مشاعر سيد غطفان عيينة بن حصن الفزاري، الذي كانت تتبعه في نجد عشرة آلاف رمح، فعندما رأى عيينة فرسان بني سليم يقومون باستعراضهم عض على أنامله. فلما سأله أبو بكر الصديق: علامَ تندم؟ قال علي قومي أن لا يكونوا نفروا مع محمد، وكان سيد غطفان عندما التحق بالنبي ﷺ لم يكن معه أحد من قومه غطفان، ما عدا ثلثمائة من أشجع الذين كان يقودهم معقل بن سنان ونعيم بن مسعود، أما فزارة الذين هم عشيرة عيينة بن حصن فلم يكن منهم أحد في الجيش النبوي الزاحف.

الشجار بين سيدي سليم وغطفان: وقد أعجب سيد غطفان عيينة بن حصن بالهيئة التي أقبل عليها فرسان بني سليم حيث كان ضمن هيئة أركان حرب النبي ﷺ في قديد يشهد الاستعراض العسكري الذي قام به خيالة بنو سليم في سهل قديد، ثم حدثت بعد ذلك مشادة وملاحاة بين عباس بن مرداس قائد فرسان سليم وعيينة بن حصن، وكان الاثنان أعرابيين لم تفارقهما خشونة الأعراب.

فقد حدثت عكرمة بن فروخ عن معاوية بن جاهمة بن عباس بن مرداس السلمي، قال: قال عباس لقيته وهو يسير؟ حتى هبط من المشلل في آلة الحرب، والحديد ظاهر علينا، فصففنا لرسول الله ﷺ، وإلى جنبه أبو بكر وعمر، فنادى عيينة من خلفه فقال: أنا عيينة (كأنه يشيد بنفسه)، هذه بنو سليم قد حضرت بما ترى من العدة والعدد والسلاح، وإنهم لأحلاس الخيل<sup>(١)</sup>، ورجال الحرب، ورعاة الحدق.

فقال العباس بن مرداس: أقصر أيها الرجل والله إنك لتعلم لنحن أفرس على متون الخيل وأطعن بالقنا، وأضرب بالمشرفية<sup>(٢)</sup>، فقال عيينة كذبت ولؤمت! لنحن أولى بما ذكرت منك، وقد عرفته لنا العرب قاطبة، فأوما إليهما النبي ﷺ بيده حتى سكتا<sup>(٣)</sup>.

وقال عبد الرحمن بن أبي بكر عن أبيه: خرجت بنو سليم على الخيول والقنا

(١) الأحلاس جمع حلس (بكسر الحاء وسكون اللام) هو الكساء الذي يلي ظهر البعير تحت القتب، والمراد هنا لزومهم لظهور الخيل.

(٢) السيوف المشرفية: هي من أجود السيوف كانت تصنع في مشارف الشام وإليها نسبت.

(٣) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٨١٤.

والدروع الظاهرة قد طووا ألويتهم وراياتهم، وليس معهم لواء ولا راية معقودة، فقالوا: يا رسول الله اعقد لنا وضع رايتنا حيث رأيت، فقال: يحمل رايتكم اليوم من كان يحملها في الجاهلية ما فعل فتى كان قدم مع وفدكم علي، حسن الوجه جيد اللسان؟ قالوا توفى حديثاً<sup>(١)</sup>.

فرسان بني سليم مقدمة الجيش: ولما كان الخيالة هم أحسن القوات المسلحة في ذلك العصر، وسلاح الفرسان هو أجود ما تحتاج إليه القوات المتقدمة، ولما كان بنو سليم (وعددهم ألف مقاتل) كلهم خيالة، جعلهم النبي القائد ﷺ مقدمة جيشه المتحرك من قديد نحو مكة.

قال الواقدي: لما نزل رسول الله ﷺ قديد لقيته سليم، وذلك أنهم نفروا من بلادهم، فلقوه على الخيول جميعاً، مع كل رجل رحه وسلاحه، وقدم معهم الرسولان اللذان كان أرسلهما رسول الله ﷺ إليهم.

فذكر أنهم أسرعوا إلى رسول الله ﷺ، وحشدوا ويقال: إنهم ألف، فقالت سليم: يا رسول الله إنك تقصينا وتستغشنا<sup>(٢)</sup> ونحن أحوالك - أم هاشم بن عبد مناف عاتكة بنت مرة بن هلال بن فالح بن ذكوان من بني سليم - فقدمنا يا رسول الله حتى تنظر كيف بلاؤنا، فإنا صبر عند اللقاء، فرسان على متون الخيل، فقال رسول الله ﷺ: سيروا فجعلهم مقدمته، وكان خالد بن الوليد على مقدمة النبي ﷺ حين لقيته بنو سليم بقديد حتى نزلوا مر الظهران وبنو سليم معه<sup>(٣)</sup>.

تعبئة الجيش وتوزيع الرايات والألوية: وحسب سياق المؤرخين والمرجع من أقوالهم، أن عشائر بني سليم كانوا آخر قوة تنضم إلى الجيش النبوي المتحرك نحو مكة.

وبالألف المقاتل من بني سليم وبقية العشائر التي انخرطت في سلك الجيش النبوي أثناء تحركه في الطريق، اكتمل عدد القوات الإسلامية الزاحفة على مكة عشرة آلاف.

(١) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٨١٣.

(٢) كانت بنو سليم ممن أعان قريشاً على المسلمين، إذ اشترك منهم إلى جانب قريش في معركة أحد حوالي سبعمائة مقاتل.

(٣) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٨١٣.

قديد معسكر تجمع الجيش كله: وكانت منطقة قُديد، من ديار بني المصطلق من خزاعة، وحيث دارت المعركة التاريخية التي فيها خضد النبي ﷺ شوكة بني المصطلق عندما كانوا مشركين عام فتنة المنافقين الذين جاءوا بالإفك<sup>(١)</sup>، ففي السهل من هذه المنطقة التي تقع بين رابغ وجدة كان التجمع الرئيسي والحشد النهائي للجيش النبوي، الذي بلغ مقاتلوه من مختلف القبائل عشرة آلاف محارب، وتدل الإحصاءات التفصيلية على أن هذا الجيش العرمرم أكثر جنوده من قبائل الحجاز، كما يدل على ذلك الجدول الآتي المبين لعدد القوات القبلية المشتركة في هذا الجيش.

تعبئة الجيش وتعيين القواد في قديد: وكما ذكرنا فيما مضى من هذا الكتاب فإن النبي ﷺ عندما فصل من المدينة بالقوات الرئيسية تحرك بهم على غير تعبئة. وذلك راجع (والله أعلم) إلى أن قبائل المناطق التي سيمر بها الجيش النبوي، موالية للإسلام. وإلى أن الرسول ﷺ ينتظر انضمام قوات جديدة إلى جيشه من مختلف القبائل المسلمة أثناء تحركه، كما حدث بالفعل حيث انضم إليه أثناء الطريق الممتد من المدينة (حتى قديد) ثلاثة آلاف ومائة مقاتل من مختلف القبائل على فترات.

وعندما اكتمل الجيش النبوي واحتشد منه في قديد عشرة آلاف مقاتل، عسكر الرسول ﷺ هناك، معطيًا قواته قسطًا من الراحة.

ثم قام بتعبئة الجيش تعبئة كاملة، وعين قادة الألوية وضباط الكتائب، ووزع الرايات والأعلام على القادة والضباط.

التعبئة كانت على أساس قبلي: وقد أجمع المؤرخون على أن تعبئة الجيش النبوي التي تمت في سهل قديد كانت على أساس قبلي، حيث عين لعساكر كل قبيلة ضابطًا من أبنائها، فقسم القبائل إلى عدة كتائب وكان عدد هذه الكتائب يتفاوت كثرة وقلة، تبعًا لعدد المحاربين من أبناء القبيلة نفسها.

كتائب الأنصار وضابطهم: والقبيلة الوحيدة التي جعل كل عشيرة فيها كتيبة مستقلة لها ضابطها الخاص من أبنائها، هي قبيلة الأنصار من الأوس والخزرج<sup>(٢)</sup> الذين بلغ

(١) انظر تفاصيل غزوة بني المصطلق وقصة الإفك في كتابنا (غزوة الأحزاب).

(٢) الأوس والخزرج هما جدا الأنصار، وهما أخوان وهما ابنا حارثة بن ثعلبة بن عمرو مزيقيا بن ماء السماء (عامر بن حارثة الغطريف) بن امرئ القيس بن ماذن بن الأزدي بن الغوث بن نبت بن مالك بن كهلان ابن سباء بن يشجب بن يعرب بن قحطان، والأوس والخزرج أهل منعة ونجدة وشجاعة، ومن أشهر المحاربين العرب، هاجروا إلى يثرب من منطقة مأرب بعد انهيار السد في أوائل القرن الأول للميلاد، وقد غلبوا اليهود الدخلاء في يثرب فانتزعوا منهم السيادة على يثرب قبل الإسلام بعدة قرون، وذلك بمساعدة أبي بجيلة ملك الغساسنة في الشام، ولما جاء الله بالإسلام كانوا أعظم سند له إبان ظهوره، إذ نصروا الرسول ﷺ أعظم نصر عندما هاجر إليهم في

عددهم المحاربين منهم وحدهم أربعة آلاف مقاتل، فقد قسمهم الرسول القائد إلى اثني عشرة كتيبة على أساس عاشرى، إذ جعل كل عشيرة من الأوس أو الخزرج كتيبة أسند قيادتها إلى ضابط من أبناء العشيرة نفسها.

عدد ضباط الأوس وكتائبهم : فالأوس جعلهم الرسول القائد ست كتائب، حيث جعل كل عشيرة من عشائرهم كتيبة وعين لها ضابطاً من أبناء العشيرة نفسها، وأسماء العشائر هو كما يلي:

اسم العشيرة	عدد الكتيبة	اسم ضابطها
بنو عبد الأشهل <sup>(١)</sup>	١	أبو نائلة <sup>(٢)</sup>
بنو ظفر <sup>(٣)</sup>	١	قتادة بن النعمان <sup>(٤)</sup>
بنو حارثة <sup>(٥)</sup>	١	أبو بردة بن نيار <sup>(٦)</sup>
بنو معاوية <sup>(٧)</sup>	١	جبر بن عتيك <sup>(٨)</sup>
بنو خطمة <sup>(٩)</sup>	١	أبو لبابة بن عبد المنذر <sup>(١٠)</sup>
بنو أمية <sup>(١١)</sup>	١	مبيض، أو نبیض <sup>(١٢)</sup>

المدينة، وقد سماهم الله تعالى بالأنصار، وقد كانوا طيلة حياة الرسول الأعظم ﷺ العمود الفقري لقواته المسلحة التي خاض بها المعارك ضد الوثنيين في جزيرة العرب.

- (١) هم بنو عبد الأشهل بن جشم بن الحارث بن الخزرج
- (٢) أبو نائلة: هو سلكان بن سلامة بن وقش بن زغبة بن زعوراء بن عبد الأشهل بطل فدائي وهو الذي قتل اليهودي المرابي الخائن كعب بن الأشرف، شهد أحداً وما بعدها من المشاهد وكان شاعراً جيداً ورامياً ماهراً.
- (٣) قال في معجم قبائل العرب: ظفر بطن من الأوس وهم بنو ظفر وهو كعب بن الخزرج الأصغر بن عمرو.
- (٤) انظر ترجمته في كتابنا (غزوة أحد).
- (٥) هم بنو حارثة بن عامر بن جمح (بفتح ثالثة مع التشديد) بن عطاء بن ضبيعة بن زيد بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس.
- (٦) أبو بردة: اسمه هاني بن نيار بن عمرو من قبيلة بلي ثم من قضاة القحطانية حليفاً للأنصار، شهد بيعة العقبة وبدراً وسائر المشاهد وهو خال البراء بن عازب توفي سنة خمس وأربعين هجرية.
- (٧) هم بنو معاوية بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس.
- (٨) هو: جبر بن عتيك بن قيس بن الحارث بن هيشة بن الحارث بن أمية بن زيد بن معاوية بن مالك بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس وتوفي سنة إحدى وسبعين هجرية.
- (٩) قال في معجم قبائل العرب بنو خطمة (بفتح أوله وسكون ثانيه) قبيلة تتسب إلى عبد الله بن جشم بن مالك بن أوس.

(١٠) هو رفاعة بن عبد المنذر بن زبير بن زيد بن أمية بن زيد بن مالك بن عوف بن مالك بن الأوس شهد بيعة العقبة وكان أحد النقباء الاثني عشر من الأنصار يعد من البدرين وإن كان أرجعه الرسول ﷺ من الروحاء إلى المدينة وقد خرج مع الجيش، وأبو لبابة صاحب القصة المشهورة في حصار يهود بني قريظة حيث ارتكب خيانة كبيرة وهو يفاوض هؤلاء اليهود (حلفاء الأوس) ثم تاب الله عليه، (انظر قصة أبي لبابة هذه مفصلة في كتابنا غزوة بني قريظة) ١٨٧ توفي أبو لبابة في خلافة علي.

(١١) لم أجد له ترجمة فيما بين يدي من مصادر وإنما ذكره الواقدي في المغازي هكذا: (مبيض أو نبیض).

(١٢) هم بنو أمية بن عوف بن مالك بن الأوس.

عدد الضباط من الخزرج وعدد كتائبهم : أما الخزرج ، فقد قسمهم الرسول ﷺ إلى ست كتائب، إذ جعل كل عشيرة منهم كتيبة، عين لها أيضاً ضابطاً من أبناء العشيرة نفسها، وأسماء الضباط وعدد كتائبهم هو كما يلي:

اسم العشيرة	عدد الكتيبة	اسم ضابطها
بنو ساعدة <sup>(١)</sup>	١	أبو أسيد الساعدي <sup>(٢)</sup>
بنو الحارث <sup>(٣)</sup>	١	عبد الله بن زيد <sup>(٤)</sup>
بنو سلمة <sup>(٥)</sup>	١	قطبة بن عامر <sup>(٦)</sup>
بنو مالك بن النجار <sup>(٧)</sup>	١	عمارة بن حزم <sup>(٨)</sup>
بنو مازن <sup>(٩)</sup>	١	سليط بن قيس <sup>(١٠)</sup>
بنو دينار <sup>(١١)</sup>	١	( ) لم نعثر على اسم

الضباط الذي حمل راية هذه العشيرة.

عدد كتائب المهاجرين وأسماء ضباطهم : أما القوات المؤلفة من المهاجرين وعددهم (كما تقدم) سبعمائة مقاتل، فقد قسمها الرسول ﷺ إلى ثلاث كتائب، عين لكل كتيبة

- (١) بنو ساعدة: هم بنو ساعدة بن كعب بن الخزرج: تنسب إليهم سقيفة بني ساعدة التي شهدت مبايعة أول خليفة في الإسلام.
- (٢) أبو أسيد: اسمه مالك بن ربيعة بن البدن بن عامر بن عوف بن حارثة بن عمرو بن الخزرج بن ساعدة بن كعب بن الخزرج، (مشهور بكنيته) شهد بدرًا واحدًا وما بعدها، توفي أبو أسيد سنة ستين هجرية وهو في حوالي الثمانين من عمره.
- (٣) هم بنو الحارث بن الخزرج: من منازلهم السنع الواقع ضواحي المدينة.
- (٤) هو عبد الله بن زيد بن ثعلبة بن عبد الله بن ثعلبة بن زيد بن الحارث بن الخزرج، شهد بيعة العقبة. وشهد بدرًا قال الحاكم: إنه استشهد يوم أحد: وفي حلية الأولياء، دخلت ابنة عبد الله بن زيد بن ثعلبة على عمر بن عبد العزيز فقالت: أنا ابنة عبد الله بن زيد: شهد أبي بدرًا وقتل بأحد فقال: سليني ما شئت، فأعطاه.
- (٥) هم بنو سلمة بن سعد بن علي بن راشد بن سارة بن تزويد بن جشم بن الخزرج قبيلة كبيرة ينسب إليها كثير من الصحابة.
- (٦) هو قطبة بن عامر بن حديدة بن عمرو بن سواد بن غنم بن سعد بن سلمة الخزرجي، من السابقين الأولين في الإسلام كان أحد الطليعة المباركة الذين كانوا (وعدهم ستة) أول من أسلم من أهل يثرب على يد الرسول ﷺ في منى قبل الهجرة بثلاث سنوات.
- (٧) بنو مالك بن النجار: فخيذة من بني النجار من الخزرج.
- (٨) هو عمارة بن حزم بن زيد بن لوذان النجاري الخزرجي الأنصاري، شهد بيعة العقبة وبدرًا وكل المشاهد مع رسول الله ﷺ أخى رسول الله ﷺ بينه وبين محرز بن نضلة، كان من أبطال اليمامة واستشهد بها تحت قيادة خالد ابن الوليد.
- (٩) هؤلاء هم بنو مازن بن النجار بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج.
- (١٠) هو سليط بن قيس بن عمرو النجاري الأنصاري من السابقين الأولين في الإسلام، شهد بدرًا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ شهد حرب العراق واستشهد في معركة الجسر بالعراق تحت قيادة أبي عبيد الثقفي.
- (١١) بنو دينار ، بطن من بني النجار من الخزرج.

ضابطاً من كبار قادة المهاجرين القرشيين، والملاحظ أن الرسول القائد ﷺ لم يقسم القيادات والكتائب في قوات المهاجرين على أساس قبلي وإنما أعطى قيادة هذه الكتائب إلى ثلاثة من كبار سادات المهاجرين وكلهم من قريش، بينما كل المهاجرين ليسوا من قريش وحدها، بل يمكن القول: إن أكثر المهاجرين من غير القرشيين، بل من قبائل عربية شتى غير قرشية: عدنانية وقحطانية، وفيما يلي تفصيل الكتائب في جيش المهاجرين وأسماء ضباطهم وعددهم ثلاثة:

نوع المحاربين	عدد الكتيبة	اسم ضابطها
مهاجرون	١	علي بن أبي طالب
مهاجرون	١	الزبير بن العوام
مهاجرون	١	سعد بن أبي وقاص

كتائب قبيلة مزينة وأسماء ضباطها : أما قبيلة مزينة والتي يبلغ عدد المحاربين فيها ألف مقاتل، فقد قسمهم النبي القائد ﷺ إلى ثلاث كتائب، عين لكل كتيبة ضابطاً من أبناء مُزينة نفسها، كما يلي:

اسم القبيلة	عدد الكتيبة	اسم ضابطها
مُزينة	١	النعمان بن مقرن <sup>(١)</sup>
مُزينة	١	بلال بن الحارث <sup>(٢)</sup>
مُزينة	١	عبد الله بن عمرو <sup>(٣)</sup>

(١) هو النعمان بن مقرن بن عائد المزني، فارس مغوار، قديم الإسلام قدم قبل الفتح على رسول الله ﷺ المدينة في أربعمائة من مزينة (انظر ترجمة قبيلة مزينة الباسلة فيما مضى من هذا الكتاب) كان وقومه اليد اليمنى للخليفة الأول في صد هجوم المرتدين على المدينة عقيب وفاة النبي ﷺ له أخوة ثلاثة كلهم يعدون من فرسان الإسلام كان النعمان أحد قادة الفتح الإسلامي المشاهير في فارس، حضر معركة القادسية وهو الذي قدم الخليفة الفاروق بشيراً بانتصار المسلمين فيها، كان الفاروق يجله ويحبه لصلاحه وتقواه وشجاعته، ولاءه حرب الفرس في العراق العجمي، فقاد الجيوش هناك، ففتح (نهاوند) بفارس وكان فتحه لها يسمى فتح الفتوح، لأنه لم تقم للفرس قائمة بعد سقوط هذه المقاطعة في أيدي المسلمين، أكرمه الله بالشهادة في معركة (نهاوند) ولكن بعد أن حقق النصر في المعركة.

(٢) تقدمت ترجمة بلال هذا فيما مضى من هذا الكتاب.

(٣) تقدمت ترجمته في هذا الكتاب.



كُتِّبَتْ جِهِينَةٌ<sup>(١)</sup> وأسماء ضباطها : أما قبيلة جهينة، وعدد المحاربين منها في الجيش النبوي ثمانمائة، فقد قسمها الرسول ﷺ إلى أربع كتائب، عين لها أربعة ضباط من أبناء جهينة نفسها:

اسم ضابطها	عدد الكتيبة	اسم القبيلة
سويد بن صخر <sup>(٢)</sup>	١	جهينة
رافع بن مكيث <sup>(٣)</sup>	١	جهينة
أبو زرعة <sup>(٤)</sup>	١	جهينة
عبدالله بن بدر <sup>(٥)</sup>	١	جهينة

كُتِّبَتْ سُلَيْمٌ وأسماء ضباطها : كذلك قبيلة بني سُليم التي محاربوها في الجيش النبوي ألف مقاتل كلهم من الفرسان قسمهم الرسول القائد إلى ثلاث كتائب، وأعطى راية كل كتيبة إلى ضابط من أبناء بني سُليم كما يلي:

اسم ضابطها	عدد الكتيبة	اسم القبيلة
عباس بن مرداس <sup>(٦)</sup>	١	بنو سليم
خفاف بن ندبة <sup>(٧)</sup>	١	بنو سليم

(١) تقدمت ترجمة جهينة في هذا الكتاب.

(٢) قال في الإصابة ج ٢ ص ٩٨ هو سويد بن صخر الجهني - ذكر الطبري أنه أحد الأربعة الذين يحملون لواء جهينة: وشهد الحديبية (فهو من أصحاب الشجرة).

(٣) تقدمت ترجمة رافع فيما مضى من هذا الكتاب.

(٤) لم أقف له على ترجمة في الإصابة ولا الاستيعاب.

(٥) هو عبدالله بن بدر بن بعجة بن معاوية الجهني، كان اسمه عبد العزى فغير النبي ﷺ اسمه، شهد أحدًا. مات في خلافة معاوية.

(٦) تقدمت ترجمته في هذا الكتاب.

(٧) قال في الإصابة يلقب بابن ندبه، أما اسمه فهو خفاف بن عمير بن الحرب بن الشريد السلمي كان يحمل أحد ألوية بني سليم يوم الفتح كان شاعرًا مجيدًا مشهورًا، وشهد حينئذ ثبت على إسلامه في فتنة الردة، عاش حتى زمان الخليفة الفاروق.

بنو سليم ١ الحجاج بن علاط  
 كتائب خزاعة وأسماء ضباطها: أما خزاعة التي كان اعتداء قريش وحلفائها البكرين عليها سبباً في نقض صلح الحديبية، ثم في الزحف على مكة، والتي كان عدد المحاربين فيها خمسمائة مقاتل، فقد كتبها النبي ﷺ ثلاث كتائب وأسند قيادة هذه الكتائب إلى ثلاثة من سادات خزاعة، كما يلي:

اسم القبيلة	عدد الكتيبة	اسم ضابطها
خزاعة	١	بسر بن سفيان <sup>(١)</sup>
خزاعة	١	ابن شريح <sup>(٢)</sup>
خزاعة	١	عمرو بن سالم <sup>(٣)</sup>

كتائب أسلم وعدد ضباطها: كذلك قبيلة أسلم البالغ عدد المحاربين منها في الجيش النبوي أربعمائة، جعلها النبي ﷺ كتيبتين عين لهما ضابطين من القبيلة نفسها على النحو التالي:

اسم القبيلة	عدد الكتيبة	اسم ضابطها
أسلم	١	بريدة بن الحصيب <sup>(٤)</sup>
أسلم	١	ناجية بن الأعجم <sup>(٥)</sup>

كتائب غفار وأسماء ضباطها: أما قبيلة غفار التي تقع منازلها على الطريق بين المدينة ورابع والتي بلغ عدد المقاتلين فيها ثلثمائة، فقد جعلها الرسول القائد ﷺ كتيبة واحدة وهي:

اسم القبيلة	عدد الكتيبة	اسم ضابطها
غفار	١	أبو ذر الغفاري <sup>(٦)</sup>

(١) انظر ترجمة بسر بن سفيان في كتابنا الخامس من هذه السلسلة (صلح الحديبية).

(٢) لم أعر على اسمه وترجمته فيما بين يدي من مصادر.

(٣) انظر ترجمة عمرو بن سالم هذا في كتابنا الخامس من هذه السلسلة (صلح الحديبية).

(٤) انظر ترجمة بريدة بن الحصيب في كتابنا (غزوة الأحزاب).

(٥) انظر ترجمة ناجية بن جندب هذا في كتابنا الخامس (صلح الحديبية).

(٦) انظر ترجمة أبي ذر الغفاري في كتابنا الخامس (صلح الحديبية).

كتائب ضمرة وسعد : أما بنو ضمرة وسعد بن بكر<sup>(١)</sup> ، وجميعهم (مثل غفار) ينتسبون إلى كنانة، فقد كان عدد المحاربين منهم في الجيش مائتين، أسند الرسول القائد ﷺ قيادتهم إلى ضابط واحد منهم، والتفصيل كما يلي:

اسم الضابطها	كتيبة عدد	اسم القبيلة
أبو واقد الليثي	١	ضمرة وسعد

كتائب بني ليث : كذلك بنو ليث بن بكر من كنانة الذين بلغ عدد المقاتلين منهم مائتين وخمسين، جعلهم الرسول القائد ﷺ كتيبة واحدة، وعين لهم منهم ضابطاً كما يلي:

اسم الضابطها	كتيبة عدد	اسم القبيلة
الصعب بن جثامة	١	بنو ليث

كتائب أشجع وضباطها : أما قبيلة أشجع، والتي هي القبيلة النجدية الوحيدة التي اشتركت بقوة كبيرة في الجيش النبوي الزاحف على مكة، فقد كان عدد المحاربين فيها (كما تقدم) ثلثمائة، قسّمهم الرسول ﷺ إلى كتيبتين، عين لقيادتهما ضابطين هما من السابقين الأولين في الإسلام:

اسم الضابطها	كتيبة عدد	اسم القبيلة
نُعيم بن مسعود	١	أشجع
معقل بن سنان	١	أشجع

(١) تقدمت ترجمته قبائل ضمرة وسعد وليث في هذا الكتاب.

مفرزة بني تميم<sup>(١)</sup> وقائدها : أما بنو تميم، القبيلة النجدية العظيمة، فلم يكن في الجيش النبوي منها سوى مفرزة صغيرة قوامها عشرة من المحاربين، جاء يقودهم - والتقى بالرسول ﷺ أثناء الطريق - سيد بني تميم الأقرع بن حابس التميمي.

(١) بنو تميم قبيلة عظيمة شهيرة مضرية من العدنانية وهم بنو تميم بن مر بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان تفرع من تميم بطون كثيرة جداً، عد منهم الأستاذ عمر رضا كحالة في كتابه معجم قبائل العرب) عشرين بطناً، كانت منازلهم تمتد من نجد دائرة من هنالك على اليمامة والبصرة حتى يتصلوا بالبحرين، وانتشروا إلى العذيب من أرض الكوفة، كان بنو تميم قوة هائلة في الجاهلية وقوة عظيمة ذات أثر نافع فعال في الإسلام، ولا أدل على قوتهم في الجاهلية من أن الملك النعمان بن المنذر ملك الحيرة غزاهم بمساندة بكر بن وائل والصنائع من العرب فهزموه شر هزيمة أسلم عامة بني تميم سنة تسع للهجرة، وذلك عندما جاء وفدهم إلى المدينة المؤلف من سبعين رجلاً، عليهم الزبيرقان بن بدر، والأقرع بن حابس، وعمرو ابن الأهتم، وروى عن النبي ﷺ في بني تميم - عن أبي هريرة أنه قال: هم أشد أمتي على الدجال - فقال أبو هريرة: ما زلت أحب بني تميم لذلك: وعندما اشتعلت نيران فتن المرتدين في جزيرة العرب: ارتد بعض بني تميم عن الإسلام وهم بنو يربوع وثبت أكثرهم على الإسلام وقد أخضع خالد بن الوليد المرتدين منهم في البطاح وقتل سيدهم مالك ابن نويرة اليربوعي، وكان لتميم موقف بطولي مشرف في معركة القادسية فقد حضرها منهم ثلاثة آلاف: جاءوا مدداً لسعد بن أبي وقاص أمده بهم عمر بن الخطاب عام ١٤ للهجرة، وكان قائدهم يوم القادسية عاصم بن عمرو وعندما اشتد ضغط القبيلة على جيش المسلمين استغاث بهم القائد العام سعد فنادى قائدهم عاصم بن عمرو وقال: يا معشر تميم أستم أصحاب الإبل والخيول؟ أما عندكم هذه الفيلة من حيلة، قالوا: بلى والله ثم نادى عاصم بن عمرو في بني تميم: يا معشر الرماة ذبوا ركبنا الفيلة عنهم بالنبل: وقال: يا معشر أهل الثقافة استدبروا الفيلة وقطعوا وضننها ففعلوا: فكان ذلك سبباً (والله أعلم) في إحداث الفوضى في كتيبة الفيلة (انظر تاريخ الرسل والملوك للطبري ج ٤ ص ١٨) ومن فرسان تميم المشهورين القعقاع بن عمرو، ومن قادة الفتح الإسلامي فيهم، الأحنف بن قيس المشهور بالحكمة والحلم ومن حلماتهم المشاهير، قيس بن عاصم المنقري: ساهم بنو تميم (بصفة خاصة) في فتح خراسان، وفرغانة فيما وراء النهر (منطقة روسية اليوم) أما في العصور الأخيرة فقد قال: في معجم قبائل العرب (ج ١ ص ١٢٥) أصبح أفراد تميم من حاضرة نجد وجبل شمر، والدساكر النجدية تحوي عناصر من تميم، ونظراً لتحضرها فقد انعدمت من بينها المميزات التي تميز الأنفاذ والعشائر، ولم يعد بالإمكان تفريقها إلى فرق كما يفعل بالقبائل المحافظة على عصبيتها غير أنه يمكن القول: أن الموجود في نجد من تميم يمكن حصره في ثلاثة بطون، وهي أولاً: بطن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم، ثانياً بطن سعد ابن زيد مناة، ثالثاً: بطن عمرو بن تميم: فمن بنى حنظلة الوهبة (بضم الواو، وفتح الهاء والباء) وهم بيت الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الرياض، وآل بسام، والقضاة في عنيزة، وآل شبانة في الجمعة ووشى وظلم وجوى وآل معيوف في جلاجل وآل منيف في الحوطة وآل مفامس في الخطامة، وآل عبد الكريم في حرمة والخرشاء، وآل جاسر، وآل أبا حسين في الوشم، وفي شقير، وآل فايز، وآل مسند، وآل عمر في وتيشة، وآل عتيق، وآل مسعد في القصب، ومن الوهبة المعاضيد، آل ثاني أمراء قطر) انظر مزيداً من التفاصيل عن تاريخ هذه القبيلة في (معجم قبائل العرب، حرف التاء).

استمرار الكتمان في التحرك: هكذا عبأ الرسول القائد ﷺ جيشه في (قديد) وكانت التعبئة على أساس قبلي، ما عدا المهاجرين الذين كانت تعبئتهم على غير هذا الأساس. حيث عين لهم النبي ﷺ قادة ثلاثة من كبار المهاجرين القرشيين، لا يمكن أن ينافسهم أحد لسابقتهم، وهم: علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص الزهري.

ورغم اكتمال تعبئة الجيش في قديد، ورغم اقترابه من منطقة مكة المقصودة بالغزو. فقد ظل الرسول القائد ﷺ ملتزماً بخطة السرية والكتمان، لا يدري عامة أصحابه إلى أين هو متجه بالجيش وعلى من سيهجم، إلا أن الناس جميعاً أدركوا أن الرسول ﷺ يريد - ولا شك - إحدى فتيين فقط، إما قريشاً وإما هوازن، حيث تبين أنه لم يعد - بعد أن وصل بالجيش قديداً - من هو ذا شوكة قوية من المشركين في المنطقة سوى هوازن وقريش، ولكن الناس لا يدري أحد منهم: أيقصد بهم الرسول ﷺ قريشاً أم هوازن، ولم يعرف الجيش أنه زاحف للسيطرة على مكة وإنهاء الوجود الوثني فيها إلا بعد أن وصل به الرسول أعلى وادي مر الظهران (وادي فاطمة).

الجيش النبوي يتحرك من قديد: وبعد أن أكمل الرسول ﷺ تعبئة جيشه في سهل قديد، تحرك بالجيش في اتجاه وادي عُسفان وهو وادي شهير لخزاعة يمر به من يقصد مكة أو الطائف من ناحية قديد القريبة من ساحل البحر الأحمر.

الطلائع ومقدمة الجيش: وكان الرسول ﷺ قد بعث أمامه مفارز من قواته الخاصة منذ خرج من المدينة، لتقوم بأعمال الاستخبار والاستطلاع ولديها أوامر باعتقال كل من تشبه به في أن يكون عيناً للمشركين، يلتقط أبناء المسلمين.

خالد بن الوليد قائد مقدمة الجيش النبوي: وعند التحرك بالجيش من قديد (مكان التجمع والحشد النهائي)، أسند الرسول ﷺ إلى الفارس والمحارب القرشي المشهور خالد بن الوليد قيادة مقدمة الجيش، وكلهم من الفرسان، غالييتهم من بني سليم، الذين كلهم من الفرسان وعددهم ألف فارس، وكان بنو سليم على راياتهم كل ضابط منهم قائد لكتيبته حسب التعيين النبوي في قديد، وخالد إنما عينه الرسول ﷺ قائداً عاماً للمقدمة ككل.

الرسول يسلك ناحية الطائف ثم يعرج على مكة لتضليل العدو: ويدل سياق المؤرخين (وذلك زيادة في التعمية على العدو) أن الرسول القائد ﷺ استمر في تحركه بالجيش حتى وصل مناطق تابعة لثقيف ناحية الطائف، وهذا يعني أنه انحرف في تحركه ذات اليمين تاركاً مكة عن يساره بعض الوقت، ثم عاد واستوى على الطريق الرئيسي متجهاً نحو

مكة عبر وادي الظهران، يدل على ذلك ما أكده المؤرخون أن الرسول ﷺ عسكر أثناء تحركه بمنطقة العرج، والعرج كما في معجم البلدان - ج ٤ ص ٩٨ - قرية جامعة في واد ناحية الطائف، ينسب إليها العرجي الشاعر المعروف.

فقد ذكر الواقدي، (كما تقدم) ، أن الرسول ﷺ لما عسكر بجيشه في العرج، والناس لا يدرون أين يتوجه: إلى قريش أو إلى هوازن أو إلى ثقيف، فقال كعب بن مالك (الشاعر المشهور): أنا آتي رسول الله ﷺ فأعلم لكم علم وجهه، فجاء كعب فبرك بين يدي رسول الله ﷺ، ثم قال شعراً، حاول الحصول به على معرفة أين يريد الرسول ﷺ الاتجاه بهم، غير أن الرسول - (بعد أن سمع شعر كعب بن مالك - لم يزد على أن تبسم<sup>(١)</sup> .

هوازن تستعد لمصادمة المسلمين: لم يعد في الحجاز - بل في جزيرة العرب كلها - من هو ذا شوكة من المشركين يحسب له النبي ﷺ حساباً سوى قريش وقبائل هوازن المنتشرة ديارها شرقي مكة على امتداد مسافات شاسعة تتاخم حدود نجد.

وإذا كانت قريش العدو الرئيسي للمسلمين تتوقع أن يغزوها المسلمون، فإن هوازن هي الأخرى كانت تستعد لحرب المسلمين، فتحشد الجيوش، وتبعث إلى خارج الجزيرة في شراء المعدات الحربية الثقيلة.

لماذا لم تتحالف قريش وهوازن على حرب المسلمين : والذي تجدر الإشارة إليه هنا هو أن قريشاً وهوازن - بالرغم من التقائهما عند مبدأ واحد وهو عداوة المسلمين والرغبة في القضاء عليهم، وبالرغم من أن إحداهما جارة للأخرى - فإننا لم نر في شيء من كتب التاريخ أنهما سعيا (بأي شكل من الأشكال) لإقامة أي نوع من أنواع الترابط العسكري، في اتحاد أو حلف يواجهون به عدوهم المشترك - النبي ﷺ وأصحابه - ولا يستبعد أن يكون ذلك راجعاً إلى اختلاف الفريقين في الأساليب التي يجب اتباعها لمواجهة أي غزو قد يقوم به المسلمون ضد أي منهما<sup>(٢)</sup> .

(١) انظر مغازي الواقدي ج ٢ ص ٨٠٢.

(٢) بل إن أكبر سبب لذلك (فيما يبدو) هو العداة القديم المستحكم بين هوازن وقريش والذي سبب الحرب الضارية (والمسماة بحرب الفجار) والتي دارت رحاها بين كنانة - قريش وبني بكر - من جهة وبين هوازن من جهة أخرى قبل خمسة عشر عاماً من بعثة الرسول ﷺ كما هو مفصل في كتب التاريخ (انظر سيرة ابن هشام البداية والنهاية والكامل لابن الأثير) مواضع حرب الفجار.

فقریش أصبحت غير ميالة للحرب (رغم نقضها صلح الحديبية)؛ لأنها تدرك أنه لا قبل لها بالمسلمين إذا ما تحركت قواتهم من المدينة للزحف على مكة، ولهذا قرر برلمانها (دار الندوة) أن أسلم وسيلة لإيقاف ما ينتظرون من غزو يقوم به المسلمون، هو التفاوض مع الرسول القائد ﷺ ليظفروا منه بتجديد الصلح الذي كانوا نقضوه فبعثوا من أجل هذه الغاية أبا سفيان بن حرب إلى المدينة، ولما فشل أبو سفيان في مهمته؛ قررت قریش بالأغلبية في برلمانها، تفويض أبا سفيان بن حرب (أيضاً) أن يخرج ويتحسس أخبار المسلمين، فإذا ما وجد أن جيشهم يزحف على مكة، عليه أن يفاوض الرسول ﷺ ليحصل على الأمان منه لجميع أهل مكة كما سيأتي تفصيله في السياق إن شاء الله.

أما هوازن (ويظهر أن ذلك راجع إلى كونها قوة ضاربة شرسة) فقد قررت عكس القرار الذي اتخذته سادات مكة وهو الاستعداد لمواجهة المسلمين، سواء كانت هذه المواجهة - من هوازن - هجوماً أو دفاعاً، فقد أخذت هوازن تستعد لمحاربة النبي ﷺ قبل أن يتحرك من المدينة، جاء ذلك في معلومات خطيرة أفضى بها جاسوس كان يعمل لحساب قبائل هوازن ألفت عليه القبض دورية من استخبارات الجيش النبوي بالقرب من الطائف.

جاسوس هوازن الذي وقع في أيدي استخبارات الجيش النبوي : ففي ما بين العرج والطلوب<sup>(١)</sup> وعلى بعد حوالي ثلاثين ميلاً من مكة ألفت وحدة عسكرية من طلائع استكشاف الجيش النبوي القبض على جاسوس كان يتجسس على العسكر الإسلامي لحساب هوازن الوثنية، وقد أتى به رجال الطليعة إلى الرسول ﷺ ولدى استجوابه - وبعد أن أعطى الأمان إن هو صدقهم الحديث وكشف عن حقيقته - اعترف بأنه جاسوس بعثت به هوازن يجمع لها المعلومات عن تحركات الجيش النبوي، وهل يريد هوازن أم قریشاً.

وأثناء استجوابه أخبر الرسول ﷺ أن هوازن تستعد لحربه، بقيادة مالك بن عوف النصري، وأنهم قد بعثوا بخبراء منهم إلى جُرَش في الأردن لشراء معدات حربية ثقيلة مثل الدبابات والمنجنيق، وقد أخذ الرسول ﷺ بأقوال هذا الجاسوس وصدقه فيما يقول: إلا أنه زيادة في الاحتياط أمر القائد خالد بن الوليد بالتحفظ عليه، لئلا يكشف للعدو أمر تحرك المسلمين. فاعتقله خالد حتى دخل الجيش النبوي مكة، وهناك أسلم هذا الجاسوس باختياره، وقتل شهيداً في معركة حنين.

(١) الطلوب (بفتح أوله) قال في معجم ما استعجم، ماء بين مكة والمدينة.

قال الواقدي: حدثني معاذ بن محمد ، عن عبد الله بن سعد، قال: لما راح رسول الله ﷺ من العرج تقدمت جريدة<sup>(١)</sup> من خيل (طليعة)، تكون أمام المسلمين، فلما كانت بين العرج والطلوب أتوا بعين<sup>(٢)</sup> من هوازن إلى رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله رأيناه حين طلعتنا عليه وهو على راحلته، فتغيب عنا في وَهْدَة<sup>(٣)</sup> ثم جاء فأوفى على نشز<sup>(٤)</sup> فقعده عليه، فركضنا إليه فأراد يهرب منا، وإذا بعيره قد عقله أسفل من النشز وهو يغيبه فقلنا: ممن أنت؟ قال: رجل من بني غفار، فقلنا: هم أهل هذا البلد، فقلنا من أي بني غفار أنت؟ فعبي<sup>(٥)</sup> ولم ينفذ لنا نسباً، فازددنا به ريبة، وأسأنا به الظن، فقلنا: فأين أهلك؟ فقال: قريباً وأوماً بيده إلى ناحية. قلنا: على أي ماء، ومن معك هناك؟ فلم ينفذ لنا شيئاً، فلما رأينا ما خلط، قلنا لتصدقنا أو لنضربن عنقك، قال: فإن صدقتكم ينفعي ذلك عندكم قلنا: نعم.

قال: فإني رجل من هوازن من بني نصر، بعثني هوازن عيناً، وقالوا: أئت المدينة حتى تلقى محمداً فتستخبر لنا ما يريد في أمر حلفائه، أيبعث إلى قريش بعثاً أو يغزوهم بنفسه؟ ولا نراه إلا يستغورهم، فإن خرج سائراً وبعث بعثاً فسيرُ معه حتى تنتهي إلى بطن سرف<sup>(٦)</sup>، فإن كان يريدنا أولاً فيسلك في بطن سرف حتى يخرج إلينا، وإن كان يريد قريشاً فسيلزم الطريق.

الرسول يستجوب الجاسوس الهوازي : وبعد هذا التقرير الشفوي الذي قدمه إلى الرسول القائد ﷺ جهاز استخباراته العسكرية عن هذا الجاسوس شرع الرسول ﷺ في استجوابه فسأله أولاً عن مكان هوازن الذي فيه يحتشدون، وقد كان الاستجواب على النحو التالي:

الرسول ﷺ: أين هوازن؟

(١) قال في أساس البلاغة: الجريدة من الخيل، وهي التي جردت من معظم الخيل لوجه.

(٢) العين هنا هو الجاسوس.

(٣) الوهد (بفتح أوله وسكون ثانيه) المنخفض من الأرض.

(٤) النشز (بفتح أوله وثانيه) المرتفع من الأرض.

(٥) عبي في كلامه لم يفصح والعي (بكسر العين) ضد البيان.

(٦) سرف (بفتح أوله وكسر ثانيه) موضع على ستة أميال من مكة من طريق مرو.



الjasوس: تركتهم ببقعاء<sup>(١)</sup> وقد جمعوا الجموع، وبعثوا إلى الجرش في عمل الدبابات والمنجنيق، وهم سائرون إلى جمع هوازن فيكونون جمعاً.

الرسول ﷺ: وإلى من جعلوا أمرهم؟

الjasوس: إلى فتاهم مالك بن عوف.

الرسول ﷺ: وكل هوازن قد أجاب إلى ما دعا إليه مالك.

الjasوس: قد أبطأ من بني عامر أهل الجد والجلد.

الرسول ﷺ: من؟

الjasوس: كعب وكلاب<sup>(٢)</sup>.

الرسول: ما فعلت هلال<sup>(٣)</sup>؟

الjasوس: ما أقل من ضوى إليه منهم، وقد مررت بقومك أمس بمكة وقد قدم عليهم أبو سفيان بن حرب فرأيتهم ساخطين لما جاء به، وهم خائفون وجلون. فقال رسول الله ﷺ: حسبنا الله ونعم الوكيل، ثم أخبر أصحابه أنه يصدق الرجل فيما قال قائلاً: ما أراه إلا صدقي.

قال الجاسوس: فلينفعي ذلك؟

فأمر الرسول ﷺ خالد بن الوليد قائد مقدمة الجيش أن يجسه، وخافوا أن يتقدم ويحذر الناس، فلما نزل العسكر مرّ الظهران أفلت الرجل، فطلبه خالد بن الوليد فأخذه عند الأراك<sup>(٤)</sup> وقال: لولا وليت عهدك لك لضربت عنقك، وأخبر رسول الله ﷺ فأمر به يجبس حتى يدخل مكة، فلما دخل رسول الله ﷺ مكة وفتحها أتى به إلى رسول الله ﷺ فدعاه إلى الإسلام فأسلم، ثم خرج مع المسلمين إلى هوازن فقتل بأوطاس<sup>(٥)</sup>.

(١) بقاء (بفتح أوله وسكون ثانيه) اسم لعدة مواضع ولكنه هنا اسم لموضع في ديار هوازن.

(٢) كعب هنا، هم بنو عامر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن، وكلاب أيضاً، هم بنو كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن.

(٣) هم بنو هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن.

(٤) الأراك: موضع بعرفة، كذا قال في معجم ما استعجم.

(٥) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٨٠٦.

الاستفادة من الاستخبارات : وهكذا استفاد الرسول القائد ﷺ من بث الطلائع والأرصاد والعيون من جهاز استخباراته أمامه استفادة كبرى، فقد حصل عن طريق الجاسوس الهوازني على معلومات ذات قيمة كبرى، عن أقوى عدو بقي للإسلام في جزيرة العرب. وهو قبائل هوازن التي خاض منها ضد الإسلام - عشرون ألفاً - معركة حنين التي هي أعنف معركة يخوضها المسلمون في العهد النبوي.

الرسول يفطر ويأمر الجيش بالفطر في رمضان : كان الرسول ﷺ عند خروجه بالجيش من المدينة قد خير العسكر بين الفطر والصيام، وقد كان خروجه في شهر رمضان، قد قال ﷺ: من أحب أن يصوم فليصم، ومن أحب أن يفطر فليفطر<sup>(١)</sup>، غير أن الرسول القائد ﷺ لما وصل بالجيش مرَّ الظهران، وفي مكان لا يبعد عن مكة أكثر من مرحلة واحدة (حوالي عشرة كيلو مترات) أمر الجيش بأن يفطروا، لأنهم على أبواب معركة حربية. والصوم يضعف من قوة المحارب، كما أن الفطر يمد جسمه بالقوة والنشاط؛ لذلك أمر الرسول ﷺ كل الجنود بأن يفطروا، واعتبر من صام منهم ولم يفطر عاصياً.

فعن جابر بن عبد الله<sup>(٢)</sup> قال: لما كنا بالكديد<sup>(٣)</sup> بين الظهر والعصر أخذ رسول الله ﷺ إناء من ماء في يده حتى رآه المسلمون، ثم أفطر تلك الساعة. وقال أبو سعيد الخدري<sup>(٤)</sup> قال رسول الله ﷺ - لما وصل مرَّ الظهران<sup>(٥)</sup> - إنكم مصبحو عدوكم، والفطر أقوى لكم، وبلغ الرسول ﷺ أن قوماً من الجيش صاموا، فقال: أولئك العصاة<sup>(٦)</sup>.

قريش تقرر عدم المقاومة وتفوض أبا سفيان لطلب الأمان من الرسول : وكما أراد الرسول ﷺ طمس الله عن قريش أخبار تحركاته بجيشه فلم يعلموا عنه شيئاً حتى بات معسكراً عند الأراك على بعد حوالي أربعة أميال فقط من مكة المكرمة.

(١) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٨٠١.

(٢) انظر ترجمة جابر بن عبد الله في كتابنا (غزوة أحد).

(٣) الكديد (بفتح أوله) موضع على بعد ٤٢ ميلاً من مكة المكرمة.

(٤) انظر ترجمة أبي سعيد الخدري في كتابنا (غزوة أحد).

(٥) مر الظهران (بفتح الميم) قال في مراصد الإطلاع: موضع على مرحلة من مكة.

(٦) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٨٠٢.

ورغم انغلاق باب أخبار تحركات الجيش النبوي عن قريش فإنها ظلت «منذ ارتكبت خطيئة الغدر بمخزاعة» وهي تتوقع أن يقوم الرسول ﷺ بغزوها تأديباً لها على ارتكابها هذه الخطيئة.

وظل زعماءها (ومنذ عاد إليهم أبو سفيان من المدينة) يتشاورون في الأمر، وأخيراً وبعد مشاورات متعددة اتخذ سادات قريش قراراً بعدم مقاومة الجيش النبوي إذا جاءهم غزياً. وقرروا أن ينتدبوا أبا سفيان بن حرب ليكون المفاوض عنهم، يأخذ لأهل مكة جميعاً الأمان من الرسول ﷺ ويبلغه رغبة قريش في أن يُسلموا له مكة، على أن تكون مدينة مفتوحة يأمن فيها أهلها على أنفسهم وأموالهم، إلا أن قريشاً فوضت أبا سفيان بن حرب (وبصورة استثنائية) أن يقبل التحدي ويعلن الحرب على المسلمين الزاحفين في حالة واحدة، وهي عندما يكون النبي ﷺ في قوات قليلة يمكن للجيش القرشي أن يتغلب عليها ويدحرها بسهولة.

وبعد اتخاذ هذا القرار في دار الندوة، كلفت قريش زعيمها أبا سفيان بن حرب، أن يخرج بنفسه لتحسس أخبار المسلمين، ولتنفيذ ما اتفقت عليه قريش في دار الندوة، وكلفت قريش حكيم بن حزام<sup>(١)</sup> أن يكون مساعداً لأبي سفيان بن حرب ومرافقاً له أثناء تأدية مهمته الخطيرة هذه.

قال الواقدي: واجتمع المسلمون بمر الظهران، ولم يبلغ قريشاً حرف واحد من مسير رسول الله ﷺ إليهم، فقد اغتموا وهم يخافون أن يغزوهم رسول الله ﷺ، فأجمعت قريش بعثة أبي سفيان بن حرب يتحسس الأخبار، وقالوا: إن لقيت محمداً خذ لنا منه جواراً إلا ترى رقة (أي ضعفاً) في أصحابه فأذنه<sup>(٢)</sup>.

لقد أراد الله خيراً بقريش: لقد نجحت خطة الكتمان التي اتبعها الرسول ﷺ لمباغثة قريش في مكة بجيشه، فلم يستطع أحد أن ينقل إليها أي شيء من أنباء تحركات الجيش النبوي منذ خرج من المدينة حتى وصل على أميال قليلة من مكة، حيث لم تشعر قريش إلا وعشرة آلاف من أصحاب محمد تفرغ أبواب مكة.

وقد كانت مفاجأة ذهلت لها قريش، ويمكن القول: إن ما حدث كان خيراً أرادته الله لقريش حين فاجأها الجيش النبوي الذي لا رغبة لقائده الأعلى النبي ﷺ في أن تراق

(١) انظر ترجمة حكيم بن حزام في كتابنا (غزوة بدر الكبرى).

(٢) أذنه: أي أعلن الحرب عليه.

قطرة دم واحدة في الحرم الآمن مكة.

فرغم أن قريشاً قد قرر برلمانها «دار الندوة» عدم مقاومة الجيش النبوي، فإنها أعطت زعيمها أبا سفيان بن حرب «كما تقدم» حق إعلان الحرب على محمد، إذا رأى ذلك «فخذ لنا منه جواراً إلا أن ترى رقة في أصحابه فأذنه»<sup>(١)</sup>.

من هنا يمكن القول: إن هذه المفاجأة كانت عاملاً كبيراً في حقن دماء كثيرة كان يمكن أن تراق من الفريقين، لو أن قريشاً علمت بتحركات النبي ﷺ ساعة خروجه من المدينة بجيشه، إذ أن ذلك قد يجعلها تتأهل للحرب فتحشد كافة قواها، وقد يحملها ذلك على أن تعقد حلفاً عسكرياً مع قبائل هوازن ذات العداوة الشديدة للرسول ﷺ، وذات العدد الضخم من المحاربين الأشداء، فيتحد الجميع في جيش وثنى واحد يلاقون به الجيش النبوي الزاحف. ولكن كتمان أبناء تحرك الجيش النبوي عن قريش جعلها «رغم توقعها التعرض للغزو» في حيرة من أمرها لا تدري ماذا تصنع إلى أن وصل النبي بجيشه على مقربة، حيث اتخذت قريش قرارها بتكليف أبي سفيان بأخذ الأمان لها من الرسول القائد ﷺ<sup>(٢)</sup>.

العباس بن عبد المطلب يتخوف على قريش فينذر سادتها وينصحهم بالاستسلام: كان العباس بن عبد المطلب، عم الرسول ﷺ ظل مقيماً بمكة مشركاً منذ أن فدَى نفسه من أسر المسلمين عقب انتصارهم في معركة بدر الكبرى، وكان مع بقاءه على الشرك بين قومه بمكة موالياً لابن أخيه الرسول ﷺ وهو الذي أبلغ الرسول ﷺ نوايا قريش المبيتة لغزو المدينة في السنة الثالثة للهجرة التي دارت فيها معركة أحد التاريخية. ومع إخلاص العباس لابن أخيه النبي ﷺ كان في الوقت نفسه حريصاً على حقن دماء أهله وعشيرته من قريش، وبذل لتحقيق ذلك مجهوداً كبيراً انطلاقاً من هذا الحرص، فنجح في مسعاه الذي به نجت مكة من كارثة حربية.

كان العباس - كما ذكر أصحاب السير - قد خرج من مكة مهاجراً في الوقت الذي خرج فيه الجيش النبوي من المدينة، فلقي العباس رسول الله ﷺ يقود الجيش ببعض الطريق. فصحبه راجعاً مع الجيش إلى مكة.

(١) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٨١٤.

(٢) وجاء في السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٠٤ أن النبي ﷺ أثنى على أربعة من قريش وهم عتاب بن أسيد وجبير بن مطعم وسهيل بن عمرو وحكيم بن حزام، فقال أربأ بهم عن الشرك وأرغب بهم في الإسلام، وكلهم أسلموا وحسن إسلامهم.

وعندما عسكر الرسول ﷺ بجيشه في مر الظهران ورأى العباس بن عبد المطلب ضخامة هذا الجيش خشي منه على قومه في مكة، فتحركت في نفسه عوامل الشفقة عليهم، وخاف أن يجتاح الجيش النبوي مكة عنوة فيبيد خضراء قريش، وقد عبر العباس عن هذا الفزع والخوف على قومه بقوله: (وهو يلقي بنظره على ذلك الجيش اللجب المنتشرة كتابه في وادي مر الظهران): واصباح قريش والله لئن دخل رسول الله ﷺ مكة عنوة قبل أن يأتوه ويستأمنوه، إنه هلاك قريش إلى آخر الدهر<sup>(١)</sup>.

العباس يسعى لإيجاد مخرج لقريش من الهلاك: ولم يقف العباس عند الإعراب عن التخوف على قريش من أن يجتاحها الجيش النبوي فيبيدها بجد السيف، بل لقد فكر في أنه لا بد من أن يصنع شيئاً ينقذ به قريشاً من كارثة محققة باتت وشيكة الوقوع على يد الجيش الذي بات يتحفز للهجوم على مكة والذي كانت لديه التعليمات لسحق كل من يعترض سبيله، وهو يقوم بعملية إنهاء الوجود الوثني فيها.

ولم يطل التفكير بالعباس بن عبد المطلب. فبعد أن تكونت لديه القناعة الكافية بأن لا نجاة لقومه قريش من الكارثة المحيقة بهم إلا بأن يسارعوا بالخروج إلى النبي القائد ﷺ ويطلبوا منه الأمان بعد أن يعلنوا الاستسلام الكامل كي يعتبر الجيش النبوي مكة مدينة مفتوحة فلا يتعرض لأحد من أهلها، بعد أن تكونت لدى العباس هذه القناعة، قرر أن يسعى بنفسه لإبلاغ قومه في مكة هذه الحقيقة، وينصحهم بأن يسارع وفد من زعمائهم لمفاوضة الرسول ﷺ على أساس الاستسلام وطلب الأمان قبل أن يشرع جيشه في اقتحام مكة عنوة.

التقاء العباس بصديقه أبي سفيان عند الأراك : ورغم أن الوقت الذي اتخذ فيه العباس فيما بينه وبين نفسه، هذا القرار كان ليلاً، فإنه لم ير بدأ من المسارعة لإنذار قومه ونصحهم بأن يسارع زعمائهم إلى مفاوضة النبي ﷺ ليحقق دماء أهل مكة قبل أن تطلع الشمس لذلك تحرك بنفسه - في غلس الظلام ودون إبطاء - نحو الأراك بضواحي مكة لعله يجد هناك من الخطابين أو بياعي اللبن من يحمل إنذاره ونصحهم إلى قريش ليسارع ساداتها بالخروج إلى المعسكر النبوي لأخذ الأمان من الرسول ﷺ لأهل مكة.

وقد كان من حسن الصدف أن سيّد قريش وزعيمها أبا سفيان بن حرب - بعد أن أعطاه سادات دار الندوة - التفويض الكامل كما تقدم، خرج في تلك الليلة يتحسس الأخبار وهو لا يعلم أن الرسول ﷺ أصبح مرابطاً بجيشه على بعد أربعة أميال (فقط) من مكة المكرمة.

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٨٩.

فكان الله تعالى - إنقاذاً لأهل مكة - ألهم أبا سفيان الخروج من تلك الليلة التي كانت حاسمة في تاريخ مكة، فقد كان خروج أبي سفيان في تلك الليلة سبباً في نجاة أهل مكة من حرب مدمرة لا قبل لهم بها، وهو الأمر الذي كان يفكر فيه بقلق بالغ وسعي في غلس الظلام لكي يحول دون حدوثه.

فبينما العباس يتجول حول الأراك باحثاً في الظلام الدامس لعله يجد من يحمل رسالته إلى زعماء قريش، إذا به يجد سيد قريش نفسه يتحسس الأخبار عند الأراك، فيشرح له حقيقة الموقف، ويقدم نصحه بأن يسارع أبا سفيان، كسيد لقريش - إلى طلب الأمان من الرسول ﷺ لأهل مكة فيجيبه أبو سفيان دونما أي تردد، فيركبه العباس خلفه على ظهر بغلة الرسول ﷺ ويذهب به إلى الرسول ﷺ حيث يؤمن أبا سفيان ثم يمنح قريشاً عفواً عاماً شريطة أن لا يعترض أحد الجيش وهو يدخل مكة.

فقد ذكر المؤرخون أن النبي ﷺ لما وصل مرَّ الظهران أمر أصحابه في الليل فأوقدوا عشرة آلاف نار، فكان منظراً كادت تنخلع له قلوب القرشيين.

فبينما أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام يتحسسان الأخبار التقياً ببديل بن ورقاء<sup>(١)</sup> فاستبعاها فخرج معهما، فلما بلغوا الأراك من مر الظهران رأوا الأبنية والعسكر والنيران، وسمعوا صهيل الخيل ورغاء الإبل، فأفزعهم ذلك فزعاً شديداً وقالوا: هؤلاء بنو كعب حاشتها الحرب، فقال بديل (وهو من بني كعب): هؤلاء أكثر من بني كعب، قالوا: فتنجعت هوازن<sup>(٢)</sup> على أرضنا، والله ما نعرف هذا إن هذا العسكر مثل حاج الناس<sup>(٣)</sup>.

وقال الإمام الطبري في تاريخه - يروي هذه القصة - : قال العباس - وقد رأى النبي في ذلك الجيش العظيم - : والله لئن بغتها (يعني قريشاً) فدخل مكة عنوة إنه لهلاك قريش آخر الدهر، فجلس على بغلة رسول الله ﷺ البيضاء، وقال: أخرج إلى الأراك لعلي أرى خطاباً أو صاحب لبن أو داخلا يدخل مكة، فيخبرهم بمكان رسول الله ﷺ فيأتونه ويستأمنونه، فخرجت فو الله إني لأطوف في الأراك ألتمس ما خرجت له

(١) بديل بن ورقاء هذا هو أحد سادات خزاعة، وكان يسكن مكة ويظهر أنه (كحليف للمسلمين) على علم بتحركات الجيش النبوي، فخرج يتحسس أخبارهم ولكن من غير المطلق الذي ينطلق منه أبو سفيان، انظر ترجمة بديل في ما مضى من هذا الكتاب.

(٢) التنجع والانتجاع والتنجعة قال في النهاية: تتبع الكلا ومساقت الغيث.

(٣) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٨١٤.

إذ سمعت صوت أبي سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء، وقد خرجوا يتحسسون الخبر عن رسول الله ﷺ، قال العباس: فسمعت أبا سفيان وهو يقول - وقد رأى نيران الجيش: والله ما رأيت كالיום قط نيراناً، فقال بديل: خزاعة حمشتها الحرب، فقال أبو سفيان: خزاعة الأم من ذلك وأذل، قال العباس فعرفت صوته (أي أبا سفيان).

فقلت: يا أبا حنظلة<sup>(١)</sup>. فقال: أبو الفضل؟ فقلت: نعم قال: لبيك فداك أبي وأمي، فما وراءك؟ فقلت له: هذا رسول الله ﷺ ورأيي قد جَلَفَ<sup>(٢)</sup> إليكم بما لا قبل لكم به بعشرة آلاف من المسلمين، وهنا صعق أبو سفيان وأسقط في يده، ولم يعد راجعاً إلى مكة لتنظيم مقاومة الجيش النبوي الزاحف لأن التخلي عن فكرة هذه المقاومة قد تقرر في آخر جلسة عقدها برلمان مكة، الذي أوفد أبا سفيان في تلك الساعات من الليل ليتحسس أخبار النبي ﷺ وجيشه.

أبو سفيان يطلب المشورة من العباس: ولما كان أبو سفيان لم يخرج في تلك الليلة إلا ليسعى جاهداً لتجنب قريش هذا الخطر المتمثل في عشرة آلاف من جند المسلمين يتأهبون لاجتياح مكة، فقد طلب أبو سفيان من صديقه العباس أن يدلّه على أسلم الطرق التي تضمن لقريش حقن دمائها، فيسلكه.

وقد أشار العباس على أبي سفيان بأن يقابل الرسول ﷺ شخصياً، فيطلب منه الأمان لأهل مكة، فإنه إن فعل أجابه الرسول ﷺ؛ لأنه لا يكره شيئاً كرهه لسفك الدماء «ما وجد إلى حقنها سبيلاً».

فقد قال أبو سفيان للعباس - والقلق يأخذ منه كل مأخذ - فما تأمرني؟

فقال العباس: تركب عجز هذه البغلة، فأستأمن لك رسول الله ﷺ، فو الله لئن ظفر بك ليضربن عنقك<sup>(٣)</sup>.

(١) حنظلة هو أحد أبناء أبي سفيان وقد قتل مشرکاً يوم بدر.

(٢) دلف: مشى بسرعة وفوق الدبيب.

(٣) وجاء في السيرة الحلبية (ج ٢ ص ٢٠٣) أن وحدة من الحرس كان يقودها عمر بن الخطاب ليلة فتح مكة اعتقلت أبا سفيان بن حرب، وقالوا لابن خطاب: جئناك بنفر من أهل مكة، فقال عمر، وهو يضحك: والله لو جئتموني

فلم يتردد أبو سفيان في الموافقة على هذا الاقتراح لأنه ما كان يطمع في أكثر من النجاح في مقابلة الرسول ﷺ والحصول منه على الأمان.

بل لقد اعتبر أبو سفيان التقاءه بالعباس - وهو عم رسول الله ﷺ في تلك الساعات المصيرية الحاسمة في تاريخ قريش من أثنى الفرص التي كان يسعى جاهداً للظفر بأمثالها لإنقاذ مكة وأهلها من خطر الإبادة التي كانت قريش تتوقعها منذ ارتكبت حادث الغدر الشنيع، الذي به نقضت صلح الحديبية التاريخي، ومن كالعباس يستطيع تسوية ذلك الأمر الخطير في ذلك الظرف البالغ الخطورة؟

إذن فهي فرصة العمر، وعلى قائد جيوش قريش ووزير حربيتها وزعيمها أبي سفيان أن لا يضيعها.

أبو سفيان يتخوف القتل فيطمئنه العباس ويردفه خلفه على بغلة الرسول : كان الوقت ليلاً، وكان في إمكان - بل من حق أي رجل من المسلمين - أن يقتل أبا سفيان بن حرب لو ظفر به (وخاصة في تلك الليلة التي كان الجيش في حالة استنفار وطوارئ)؛ لأن المسلمين وقريش كانوا في حالة حرب، حيث لم يعد هناك عهد بين قريش والمسلمين، بعد الذي صنعت قريش من الخرق الفاضح لهذنة الحديبية بعدوانها الصارخ الآثم على خزاعة حليفة الرسول ﷺ الداخلة في عهده وعقده يوم الحديبية.

لذلك لم يكن وزير حربية مكة وزعيمها ما كان - وهو يرحب باقتراح صديقه العباس - يتصور أنه (وهو المشرك المطلوب سفك دمه من جميع الذين في المعسكر النبوي) سيتمكن من الوصول سالماً إلى مقر القائد الأعلى النبي ﷺ الذي تحيطه غابات من رماح عشرة آلاف مقاتل كلها يتوق إلى تمزيق رأس الكفر (يومذاك) أبي سفيان بن حرب.

وقد أفصح أبو سفيان لصديقه العباس عن شكه في اجتيازه هذه الغابات من الرماح إلى خيمة الرسول القائد سالماً ودون أن يتعرض لمكروه.

بأبي سفيان ما زدتم، فقالوا: والله أتيناك بأبي سفيان: فقال: احبسوه حتى أصبح، وهذا يعني (إن صح) أن العباس أجار أبا سفيان بعد أن استنقذه من يد وحدة الحرس التي تحت قيادة ابن الخطاب ثم أجاره.



غير أن العباس بدد كل تلك المخاوف من نفس أبي سفيان المضطربة حين أكد له أنه سيوصله بنفسه سالماً إلى خيمة ابن أخيه النبي ﷺ وعلى ظهر بغلته الخاصة، وأنه سيكون في جواره حتى يوصله إلى مقر قيادة الرسول ﷺ في قلب المعسكر.

وقد اطمأن أبو سفيان بن حرب إلى ضمانات ابن عمه العباس بن عبد المطلب، ووثق كل الوثوق بالكلمة التي أعطاه إياها فعمل بنصيحته حيث ركب خلفه بغلة رسول الله ﷺ. فاتجه الاثنان سوياً نحو مقر القائد الأعلى النبي ﷺ مخترقين مضارب الجيش المحيط بالمقر. وكان يصحبهما مساعد أبي سفيان حكيم بن حزام وبديل بن ورقاء اللذين أعلننا إسلامهما بمجرد أن وصلا إلى خيمة الرسول ﷺ<sup>(١)</sup>.

عمر بن الخطاب يحاول قتل أبي سفيان وهو في حماية العباس : في تلك الليلة كان الرسول ﷺ قد أسند حراسة المعسكر إلى عمر بن الخطاب<sup>(٢)</sup>، الذي صار يطوف بفصائل من الجند لحراسة المعسكر المنصوبة خيامه على مشارف مكة.

وكان عمر بن الخطاب من أشد الصحابة على قريش، لذلك كان توليه حراسة المعسكر تلك الليلة سبباً في إحداث بعض المتاعب للعباس بن عبد المطلب من حيث تعريض حياة أبي سفيان للخطر، بعد أن أخذه العباس في جواره وأعطاه عهداً شفوياً بالأمان حتى يصل إلى خيمة الرسول ﷺ.

فقد كان ركوب سيد قريش وقائد قواتها العسكرية أبي سفيان ظهر بغلة رسول الله ﷺ وكونه رديف عمه العباس بن عبد المطلب من أكبر الضمانات التي بها ضمن العباس لجاره أبي سفيان عدم إقدام أحد من جند الإسلام على التعرض لأبي سفيان بشراً.

فقد صار العباس بن عبد المطلب يمر بين مضارب وحدات الجيش النبوي وخلفه أبو سفيان مردفاً على بغلة رسول الله ﷺ فيعرفون أبا سفيان الذي يتوقون إلى قتله كزعيم من زعماء العدو المحارب، ولكنهم يكفون عن ذلك، لكون أبي سفيان في معية العباس ،

(١) انظر مغازي الواقدي ج ٢ ص ٨١٥ وتاريخ الطبري ج ٣ ص ٣٥ والبداية والنهاية ج ٤ ص ٢٨٩.

(٢) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٨١٥.

ويقولون: عم رسول الله ﷺ<sup>(١)</sup>، فيتركونه يمر دون أن يمسوا أبا سفيان بأذى، وحتى دوريات الحرس المستولة عن حراسة المعسكر النبوي يستوقفون الراكبين، وعندما يتبينون أنه العباس يسمحون له بالمرور داخل المعسكر.

وهكذا لم يعترض أحد من جند الإسلام العباس ورديفه أبي سفيان بن حرب إلا قائد الحرس عمر بن الخطاب الذي ما كاد يرى أبا سفيان بن حرب (على ضوء النار) حتى صاح: أبو سفيان عدو الله؟ الحمد لله الذي أمكن منك بلا عهد ولا عقد<sup>(٢)</sup>، وكان ابن الخطاب يعني أنه في الإمكان (وبسهولة قتل أبي سفيان بن حرب) ولكنه لم يتعجل في قتله (مع حرصه الشديد على ذلك) لأن أبا سفيان كان على بغلة رسول الله ﷺ وفي جوار عمه العباس، لذلك سارع ابن الخطاب فصار يعدو نحو مقر قيادة الرسول ﷺ ليحصل منه على إذن بضرب عنق أبي سفيان قبل أن يصل به العباس إلى المقر.

العباس ينجح في استصدار العفو عن أبي سفيان: غير أن العباس (وقد أصبح مسئولاً عن حياة أبي سفيان) أدرك ما يهدف إليه ابن الخطاب، فخاف أن يسبقه إلى رسول الله ﷺ فيحصل على إذن منه بقتل أبي سفيان، فأركض العباس البغلة ليسبق ابن الخطاب إلى خيمة الرسول ﷺ فيأخذ لأبي سفيان الأمان كما وعده.

وفعلاً، نجح العباس، فوصل خيمة ابن أخيه النبي ﷺ قبل أن يصل إليها عمر بن الخطاب.

أخرج ساعة في حياة أبي سفيان: وكانت تلك الساعات الحاسمة من أخرج ما مرّ بأبي سفيان في حياته، وخاصة بعد أن رأى عمر بن الخطاب يشتد عدواً على قدميه ليقنع الرسول ﷺ بإصدار قرار بإعدامه.

لقد وصل على الفور عمر بن الخطاب إلى خيمة الرسول ﷺ، والعباس وأبو سفيان لم يكادا يأخذا مقعدهما من أرض الخيمة، فاضطرب أبو سفيان لمراى الفاروق، وزاده اضطراباً أن الفاروق وصل الخيمة قبل أن يلتمس العباس من رسول الله ﷺ الأمان لابن

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٨٩.

(٢) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٤٥ وتاريخ الطبري ج ٣ ص ٥٣ ومغازي الواقدي ج ٢ ص ٨١٧.

عمه أبي سفيان وإنه كلم الرسول ﷺ في أن يسمح له بضرب عنق أبي سفيان قبل أن يتقدم العباس بالتماسه.

غير أن العباس، نجح في مسعاه، حيث حصل لأبي سفيان من الرسول ﷺ على الأمان الذي وعده به، حصل على هذا الأمان رغم إلحاح الفاروق على النبي ﷺ في أن يمنحه الإذن بقتل أبي سفيان.

**المشادة بين الفاروق والعباس في خيمة الرسول :** وقد حدثت مشادة كلامية بين العباس وعمر بشان أبي سفيان، فقد اتهم العباس بن عبد المطلب عمر بن الخطاب بأنه لم يلح في طلب إعدام أبي سفيان، إلا لأنه قريب للعباس، ولكن الفاروق أكد للعباس أن ذلك ليس هو دافعه للحرص على قتل أبي سفيان، وإنما لأنه رأس الكفر في مكة.

فقد جاء في كتب السيرة أن الفاروق عمر لما وصل إلى خيمة النبي ﷺ طلب في الحال منه أن يسمح له بضرب عنق أبي سفيان قائلاً: يا رسول الله، هذا عدو الله أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عهد ولا عقد، فدعني أضرب عنقه، فاعترض العباس على هذا الطلب. فقال: يا رسول الله إنني قد أجرته، فكرر عمر الطلب آملاً أن يأذن له الرسول في قتل أبي سفيان، وهنا غضب العباس؛ لأن إعدام أبي سفيان يعني خفر ذمة العباس الذي أخذ أبا سفيان في جواره - والجوار مكانه الخطير معروف بين العرب - وقال العباس لعمر «محتدًا» مهلاً يا عمر، فوالله ما تصنع هذا إلا لأن أبا سفيان رجل من بني عبد مناف، ولو كان من بني عدي بن كعب «عشيرة ابن الخطاب» ما قلت هذا.

وهنا رد الفاروق على اتهام عم النبي ﷺ له في صراحته المعهودة: مهلاً يا عباس فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إليّ من إسلام الخطاب لو أسلم، وذلك لأنني أعلم أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب لو أسلم.

لقد جرت هذه المجادلة بين الفاروق عمر والعباس بن عبد المطلب أمام الرسول ﷺ فلم ينح باللائمة على أحد منهما لعلمه بنبل قصد كل منهما فيما أتى من تصرف.

فالعباس حين حرص على سلامة ابن عمه أبي سفيان بن حرب إنما ينطلق من هدف نبيل، وهو أن تكون نجاته من القتل سبباً في إسلامه، وبالتالي سبباً في استمالة قومه قريش كلها للإسلام، وهو أمر يجعل مكة في مأمن من ويلات الحرب ومعرتها، حيث سيصبح بعد إسلام أبي سفيان «وهو سيد قريش ومفوضها المطلق» أي عنصر فيها غير قادر على إبداء أية مقاومة فعالة ضد الجيش النبوي عندما يدخلها وهو ما حدث بالفعل، عندما نجح العباس في الحصول على الأمان لأبي سفيان من الرسول ﷺ وعندما نجح

بالتالي في إقناع أبي سفيان نفسه باعتراف الإسلام قبل أن يعود إلى مكة. والفراروق عمر من ناحية أخرى، حين حاول الحصول على إذن من القائد الأعلى النبي بضرب عنق أبي سفيان، كان يهدف «مجتهداً مخلصاً» إلى تحطيم رأس كان حتى ذلك الوقت من أعظم رءوس الكفر التي ائتمرت بقتل النبي ﷺ وأخرجته من وطنه مكرهاً، بعد أن أباحت دمه وجعلت الجائزة الضخمة لمن يأتي به حياً أو ميتاً، وعدت وقاتلت الكثير ممن آمن به وثبت على دينه، كما أن ابن الخطاب كان سعيه لقتل أبي سفيان ذا أبعاد سياسية، وهو بث الرعب والفرع في نفوس أساطين الكفر الباقين في مكة بحيث يتحطم بقتل سيدهم أبي سفيان كل ما بقي لديهم من معنويات حربية، فتنهار نوازع مقاومة الجيش النبوي في نفوس الأشرار المتطرفين من أهل مكة، فيسهل على الجيش النبوي دخولها دون إراقة قطر دم واحدة.

كيف حصل أبو سفيان على الأمان من الرسول : غير أن النبي ﷺ مع تقديره لمشاعر الفراروق عمر بن الخطاب وتأكده من صدق نواياه الدافعة للحرص على السماح له بإعدام سيد قريش وزعيمها أبي سفيان بن حرب - فقد أجاب عمه العباس بن عبد المطلب إلى ما طلب من إعطاء الأمان لابن عمه أبي سفيان بن حرب الذي كان العباس قد وعده به عند الأراك حينما نصحه بأن يصحبه لمقابلة الرسول ﷺ في مقر قيادته. ولنترك الإمام الطبري يروي لنا هذه الحادثة التاريخية التي بنجاح مساعي العباس الخيرة فيها نجت مكة من ويلات حرب مدمرة كانت ستبدي خضراء قريش لولا أن الله ألهم أبا سفيان بن حرب فاستجاب لنصائح صديقه وابن عمه العباس بن عبد المطلب، فأسلم أولاً ثم ذهب إلى مكة فيما بعد يبحث قومه على إلقاء السلاح وعدم مقاومة الجيش الزاحف.

قال الطبري في كتابه المسمى «تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٥٣»: «إن أبا سفيان بن حرب بعد أن أخبره العباس «في ظلام الليل بضواحي مكة عند الأراك» أن الرسول ﷺ يربط في الضواحي بجيش لا قبل لقريش به «عشرة آلاف مقاتل» قال للعباس: فذاك أبي وأمي فما تأمرني؟ فقال العباس: قلت تركب عجز هذه البغلة أستأمن لك رسول الله ﷺ فو الله لو ظفر بك ليضربن عنقك، قال العباس فردفني فخرجت به أركض بغلة رسول الله نحو رسول الله ﷺ، فكلما مررت بنار من نيران المسلمين ونظروا إليّ قالوا: عم رسول الله ﷺ على بغلة رسول الله، حتى مررت بنار عمر بن الخطاب، فقال: أبو سفيان؟ الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد، ثم اشتد نحو النبي ﷺ، وركضت

البغلة، وقد أردفت أبا سفيان حتى اقتحمت على باب القبة وسبقت عمر بما تسبق به الدابة البطيئة الرجل البطيء، فدخل عمر على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، هذا أبو سفيان عدو الله، قد أمكن الله منه بغير عهد ولا عقد، فدعني أضرب عنقه، فقلت يا رسول الله إني قد أجرته ثم جلست إلى رسول الله ﷺ فأخذت برأسه فقلت: والله لا يناجيه اليوم أحد دوني، فلما أكثر فيه عمر، قلت: مهلا يا عمر فوالله ما تصنع هذا إلا لأنه رجل من بني عبد مناف، ولو كان من بني عدي بن كعب، ما قلت هذا، فقال عمر: مهلا يا عباس، فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إليّ من إسلام الخطاب لو أسلم؛ وذلك لأنني أعلم أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب لو أسلم، فقال رسول الله ﷺ للعباس اذهب فقد أمناه، حتى تغدو به على بالغدوة. أهـ.

أبو سفيان يبيت في خيمة العباس تحت الحراسة : في ذلك الوقت الذي أجاب الرسول ﷺ عمه العباس إلى ما طلب من إعطاء الأمان لأبي سفيان، لم يجر بين الرسول ﷺ وبين أبي سفيان أي حديث، فلم يتناولوا بالبحث أي جانب من جوانب القضية الرئيسية، وهي مسألة الحصول على أمان شامل كامل لجميع أهل مكة، الأمر الذي من أجل الظفر به أوفدت قريش سيدها أبا سفيان بن حرب في تلك الليلة التاريخية الحاسمة، كما أنه لم يجر أي بحث حول موضوع دعوة أبي سفيان نفسه إلى الدخول في الإسلام، وكل ما حدث في تلك الساعة المتأخرة من الليل هو أن الرسول ﷺ أعطى أبا سفيان شخصياً الأمان لنفسه كما طلب العباس بن عبد المطلب.

ذهب العباس في تلك الساعة من الليل بصديقه وابن عمه وجاره أبي سفيان إلى ونزله داخل المعسكر النبوي، وقد أقيمت حراسة مشددة حول الخيمة التي بات فيها أبو سفيان خشية أن يهرب إلى مكة؛ لأنه حتى تلك الليلة لا يزال مشركاً غير مأمون الجانب، والجيش النبوي في حالة طوارئ واستنفار، ويخشى قادة حرس المعسكر «وهم الحريصون على عدم تسرب أية أسرار للجيش إلى مكة» أن يتسرب شيء من هذه الأسرار على يد سيد قريش الذي يمروره داخل المعسكر حتى خيمة الرسول القائد يكون قد عرف ما يجب أن لا تعرفه قريش إلا بعد أن يكون الجيش النبوي قد سيطر على مكة؛ لذلك «والله أعلم» كان تكليف الرسول ﷺ عمه العباس أن يبيت معه أبو سفيان في خيمة واحدة فيه معنى من معاني الاعتقال أو الحجز التحفظي بل هو عينه، بدليل أن الرسول ﷺ قال لعمه: فليبت عندك حتى تغدو به علينا إذا أصبحت<sup>(١)</sup>.

(١) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٨١٨ وجاء في مغازي الواقدي ج ٢ ص ٨١٥ أن أبا سفيان سمع صباح تلك الليلة التي باتها في خيمة العباس، سمع المعسكر النبوي قد ارتج بأذان الصبح من كل ناحية، ففرغ من أذانهم فقال: ما

القلق والشائعات في مكة : كانت الطرق والمسالك بين مكة والمعسكر الذي يربط فيه الجيش النبوي مقطوعة تمامًا تحرسها فصائل من البوليس الحامي «الشرطة العسكرية» التابعة للجيش النبوي، فلا تسمح لأحد أن يخرج من مكة أو يدخل إليها، كما لا تسمح لأي إنسان «كائنًا من كان» أن يقترب من حدود المعسكر النبوي، والوحيدون من أهل مكة الذين سمحت لهم الشرطة العسكرية الإسلامية بدخول المعسكر تلك الليلة هم بديل بن ورقاء سيد خزاعة وحليف المسلمين وحكيم بن حزام ابن أخي أم المؤمنين خديجة بنت خويلد الأسدية وأبو سفيان بن حرب سيد قريش وزعيمها، كل هؤلاء سمحت له الشرطة العسكرية لأنهم كانوا في جوار وتحت ضمانه العباس بن عبد المطلب «وسيط السلام» الذي لعب دورًا هامًا وبذل مجهودًا كبيرًا لاختصار آلام الحرب، بل لإبعاده كليًا عن مكة وأهلها وكانت أولى مساعيه الكبرى الناجحة أن نجح في إيصال سيد قريش وصاحب حربها وقائد جيوشها أبي سفيان بن حرب إلى مقر قيادة الرسول الأعظم ﷺ ثم الحصول له من الرسول القائد على أمان خاص حقن به دمه الذي كان كثير من قادة الفيالق والفرق في الجيش النبوي يتوقون إلى سفكه كراس من رءوس الكفر.

وكان حصول سيد قريش أبي سفيان على الأمان « في حالة حرب قائمة بين الإسلام والوثنية» مكسبًا كبيرًا لقريش - التي كانت ترتعد داخل مكة فزعًا - تبعها مكاسب أعظم. كان آخرها حصول قريش كلها على عفو عام من الرسول القائد المنتصر، أسقط به كل الجرائر التي ارتكبتها قريش خلال إحدى وعشرين سنة ضد الإسلام والمسلمين، وقد كان هذا العفو العام الذي منحه الرسول ﷺ لأهل مكة بمثابة مزيل سريع لأغلفة الظلام التي تغلف البصائر فلا ترى الإسلام إلا من خلال منظار قاتم أسود، ولكن هاهي ترى الحقيقة مجسدة. ترى رسول الإسلام «وهو في مركز القوة وفي ذروة الانتصار» يعطي الصورة الحقيقية المشرقة للإسلام وتعاليمه وغاباته وأهدافه النبيلة، بذلك التسامح المتمثل في ذلك العفو العام الذي لم يسبق في التاريخ لقائد منتصر

---

يصنعون ! قال العباس: فقلت: الصلاة، قال أبو سفيان: كم يصلون في اليوم والليلة ! قال العباس: خمس صلوات: قال أبو سفيان: كثير والله قال: ثم رآهم يبتدرون وضوء النبي ﷺ فقال: يا أبا الفضل لم أر ملكًا هكذا قط، لا ملك كسرى، ولا ملك بني الأصفر، فقال العباس: ويحك آمن: قال: أدخلي عليه يا أبا الفضل، فأدخله العباس: فقال أبو سفيان: يا محمد استنصرت إلهي، واستنصرت إلهك، فلا والله ما لقيتك من مرة إلا ظفرت على، فلو كان إلهي محققًا وإلهك مبطلًا غلبتك ثم شهد أبو سفيان أن محمدًا رسول الله.

أن منح مثله لأعدائه المهزومين.

عودة إلى المنطلق : بات «تلك الليلة التاريخية»، أبو سفيان بن حرب تحت مراقبة العباس بن عبد المطلب في خيمته داخل المعسكر، ولم يذكر المؤرخون ما دار من أحاديث خاصة داخل الخيمة تلك الليلة الحاسمة بين العباس وصديقه أبي سفيان بن حرب، غير أنه مما لا شك فيه أن العباس «وقد أصبح وسيط السلام الأول والوحيد بين الرسول وبين قريش» قد بذل مجهوداً كبيراً في أحاديث خاصة تلك الليلة ليقنع سيد قريش وزعيمها لينخلع من الشرك ويصبح أحد أعضاء الأسرة الإسلامية الكبرى، ويكون بالتالي مبعوث خير وسلام وتهدئة وتطمين إلى قومه في مكة المكرمة.

القلق والشائعات في مكة : كانت الطرق والمسالك المؤدية من المعسكر النبوي إلى مكة تحت مراقبة شديدة من الشرطة العسكرية الإسلامية «كما قلنا» لا يدع رجال هذه الشرطة أحداً يدخل المعسكر أو يخرج منه إلى أي مكان منعاً لتسرب أي أنباء عما يجري داخل المعسكر إلى أهل مكة المشركين.

لذلك فشل جواسيس قريش في معرفة حقيقة ما يجري داخل المعسكر النبوي من إجراءات، وهل سيقتم الجيش النبوي مكة عنوة ويستبيحها قتلاً وأسرًا ومصادرة كما هي شرعة الحرب المعمول بها لدى القوات الغازية القوية المنتصرة بين مختلف الشعوب والأمم في ذلك العصر، أم سيعتبرها مدينة مفتوحة ممنوع على جند الإسلام سفك الدماء فيها؟

حنق قريش على أبي سفيان : والنبا الوحيد الذي علمته زعامة مكة «وقد يكون ذلك بتدبير وتيسير من جهاز الاستخبارات النبوية» هو مقابلة أبي سفيان بن حرب للنبي القائد ﷺ في مقر قيادة الجيش، ومنح الرسول ﷺ أبا سفيان أماناً خاصاً به نتيجة شفاعته ووساطة صديقه وابن عمه العباس بن عبد المطلب.

إن قريشاً قد أصبحت لديها القناعة الكاملة أنه ليس في إمكانها التصدي للجيش النبوي في مواجهة حربية، وأصبح كل همها «تقريباً» منحصرًا في الحصول على أمان كامل شامل لأهل مكة جميعاً، عندما يدخلها الجيش النبوي الذي لم يعد لدى الأغلبية الساحقة من سادات مكة أي شك في أنه سيدخلها لا محالة، ولهذا قرر برلمان مكة «دار الندوة» إيفاد أبي سفيان ابن حرب كما تقدم.

ولكن أبا سفيان ها هو يقابل الرسول القائد ﷺ ويحصل منه على أمان خاص لنفسه فقط، فيتتاب قريش القلق، ويظل أهلها عرضة للقلق والهواجس السوداء وتعمل وساوس الاتهام لأبي سفيان في نفوسهم فعلها الحاد.

فنواب العشائر في دار الندوة، لم ينتدبوا أبا سفيان - حين انتدبوه - لكي يحصل لنفسه فقط على الأمان، وإنما انتدبوه لكي يدخل مع محمد ﷺ في مفاوضات يحصل أبو سفيان بموجبها لأهل مكة على أمان كامل شامل يحقن دماءهم ويعفى نساءهم وذريتهم من السبي وأموالهم من المصادرة والاستباحة عندما يدخلها الجيش النبوي. إنهم «وقد قرّ في أنفسهم أنه لا قبل لهم بجيش الإسلام ولا قدرة لهم على مواجهته حربياً»، أصبحوا في حالة ذعر شديد وخوف أشد من أن يسفك هذا الجيش الإسلامي العرمرم دماءهم ويسبي نساءهم وذريتهم ويستولي على كل أموالهم وممتلكاتهم كغنيمة حرب، فيترك مكة خراباً يباباً تغطي شوارعها جثث القتلى منهم، وتردد جبالها عويل الثكالى من نساءهم وصراخ الصبيان من أبنائهم اليتامى.

التفكير النبوي الراجح : وبينما أساطين الكفر في مكة فريسة لهذه التصورات السوداء المخيفة التي كانت كابوساً ملازماً لا يفارقهم في منام أو يقظة، كان رسول الرحمة يفكر تفكيراته النبوية النبيلة المشرقة، كان يعد العدة ويضع الترتيبات لتكون مكة « عند سيطرة الجيش النبوي عليها» على غير الصورة المزعجة المخيفة التي تصورت قريش وخافت أن تكون عليها مكة عندما يسيطر عليها الجيش الإسلامي.

كان نبي المحبة ورسول الرحمة والتسامح أشد حرصاً من أهل مكة أنفسهم، على أن تتجنب هذه المدينة المقدسة ويلات الحرب ومآسي المعارك؛ لأنها مدينة مقدسة، مطلوب فيها التنزه عن سفك الدماء قدر الإمكان.

ثم إن أهل مكة أنفسهم، هم أهل محمد وعشيرته، ورغم ما ناله ونال أصحابه على أيديهم من صنوف الأذى والإرهاب، والتنكيل في مكة نفسها أيام بدء الإسلام وقلة المناصرين. ورغم المحاولات الحاقدة التي قام بها هؤلاء الأهل للقضاء على الإسلام وإبادة المسلمين عن طريق تجريد الجيوش وتحريض مختلف العناصر والفئات المعادية للإسلام للقضاء عليه كما حدث في (أحد) وعلى مشارف الخندق، رغم كل هذه الجرائر والآثام التي اقترفها هؤلاء الأهل والعشيرة من أهل مكة، فإن ابنهم البار الذي يجر وراءه عشرة آلاف مقاتل قادرين على إبادة كل إنسان في مكة خلال ساعات قلائل، لم تجد الضغينة والرغبة في الانتصار والانتقام للنفس أي سبيل إلى قلبه الكبير الطاهر طيلة حياته.

ولهذا فإنه (وكما دلت تصرفاته النبيلة) كان حريصاً كل الحرص على أن ينعم كل أهل مكة المغلوبين بالأمن والأمان والاطمئنان على أرواحهم وممتلكاتهم عندما يدخل



جيشه مكة فاتحاً ومنقذاً ومحوراً.

ولم لا؟ أليس هو الذي كان يدعو لقومه بالخير، والدماء تسيل على وجهه الكريم بفعل أيديهم الباغية: «اللهم اهد قومي فإنه لا يعلمون»؟ وأليس هو الذي قال يوم الحديبية - وقد خرجت قريش، وكانت قوية منيعة، خرجت بكل ما لديها من قوات لمحاربتة ومنعه بجد السيف وصدته عن البيت الحرام - ، «والله لا تدعوني قريش إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم؟؟».

محاولات إقناع أبي سفيان باعتماد الإسلام طوعاً: كان العباس بن عبد المطلب يحرص كل الحرص على أن يهدي الله صديقه أبا سفيان بن حرب فيعتنق دين الإسلام، لما في ذلك من فوائد عظيمة يعم نفعها لا أبا سفيان وحده، بل أهل مكة جميعاً؛ لأن أبا سفيان سيد قريش وصاحب الكلمة الأولى فيها، وخاصة بعد أن اختارته مندوباً عنها وجعلت مصيرها بيده حين كلفته أن يفاوض عنها الرسول القائد ﷺ.

وإسلام أبي سفيان سيكون ذا أثر حاسم في مجريات الأمور لصالح الجميع، لا سيما قريش التي يقف على أبواب مدينتها عشرة آلاف من المسلمين، كلهم مستعد لاقتحامها بجد السيف وقتل من يعترضه من أهلها.

واقترحام مكة عنوة أمر لا مفر منه إذا ما أصر المتطرفين في مكة على مقاومة الجيش الغازي بالسلاح.

والاقتحام عنوة يعني حدوث مجزرة رهيبة بين القرشيين لا يرغب رسول الرحمة ومخفف آلام البشرية أن تحدث، كما أن وسيط السلام العباس بن عبد المطلب قد أنتابه الفرع وخشي على قومه في مكة أن يكونوا عرضة لهذه المجزرة عندما خاطب نفسه «وهو يرى كتائب الجيش النبوي كالبحر ترابط على مشارف مكة»: «يا صباح قريش والله لئن بغتها رسول الله ﷺ في بلادها فدخل مكة عنوة، إنه لهلاك قريش آخر الدهر»<sup>(١)</sup>.

ولهذا كان العباس - منذ أن عبّر عن مخاوفه على قومه في مكة بتلك الجملة التي نمت عن حرصه الشديد على سلامة قومه في مكة - وهو يسعى سعياً حثيثاً، وعلى كل المستويات وبكل الأساليب الممكنة، لإيجاد مخرج لقومه بمكة عن طريقة ينجون مما يخشاه العباس عليهم من اقتحام الجيش النبوي مكة عنوة.

ومن أساليبه في السعي لتحقيق هذا الهدف ومحاولاته المتكررة لإقناع أبي سفيان بالدخول في الإسلام «أولاً» ليكون ذلك باعث تشجيع للعناصر الطيبة في مكة (وهي غير

(١) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٥٢.

قليلة) على المسارعة إلى الدخول في الإسلام وإقناع الآخرين من المتطرفين بالكف عن المقاومة.

التوتر في مكة يزداد : ظل كفار مكة في تلك الساعات الحرجة عرضة لموجات طاغية متزايدة من القلق والخوف نتيجة شعورهم الباطني بأنهم (وحسب مقاييسهم) بأنهم سيكونون عرضة لعقاب صارم دام رهيب على يد الرسول ﷺ وجيشه (الذي لا يشكون لحظة في انتصاره عليهم وسيطرته على مكة) لما اقترفته أيديهم من إجرام في حق الرسول ﷺ والقلة من أصحابه خلال ثلاث عشرة سنة قضاها بينهم وهو يتجرع وأصحابه على يد قريش كئوس الأسى والألم، دونما إقامة اعتبار لحق القرابة والمواطنة.

كان القرشيون في مكة (وهم يتخيلون حجم العقاب الذي سينزله المسلمون بهم) يظنون أن محمد بن عبد الله ﷺ من نوع الفاتحين القساة الذين أول ما يفكرون في عمله « عندما ينتصرون» هو الانتقام الفظيع الدامي الرهيب لأنفسهم من خصومهم الذين كانوا قد نالوا منهم أو سببوا لهم بعض المتاعب في الماضي.

وما دروا أن محمد بن عبد الله هو نبي رحمة ورسول محبة بعثه الله رحمة للعالمين، لا يحقد ولا يبغض بدافع من حب الانتقام والانتصار للنفس.

وإنما يسعى لإنقاذ البشرية، وهداية الضالين وإنقاذ المنحرفين، حتى وإن كانوا من الذين آذوه، وراموا قتله واتبعوا كل السبل للتكيل به وإرهابه لحملة على التخلي عن أمانة الرسالة العظمى.

النبي يدعو أبا سفيان إلى الإسلام فيتردد : فيما مضى ذكرنا أن الرسول القائد ﷺ بعد أن أجاز الأمان الذي أعطاه العباس بن عبد المطلب لزعيم قريش وقائد جيوشها أبي سفيان بن حرب، أمر العباس بالتحفظ عليه في منزله على أن يحضره إلى خيمة القيادة العليا في اليوم التالي.

وقد فعل العباس كما أمره ابن أخيه النبي، فقد أحضر أبا سفيان بن حرب إلى خيمة القيادة العامة، فمثل أمام الرسول القائد الذي كان حوله هيئة أركان حربه، مثل الصديق وابن الخطاب وابن أبي طالب.

وبينما كان أهل مكة في تلك الساعات الحاسمة من تاريخهم المصيري تجتاحهم،

«وخاصة الزعماء منهم» موجة طاغية من الخوف والذعر والقلق، تعصف بالإشاعات بعقولهم، وتذهب التكهينات والشائعات بألبابهم، ترى أيقتم جيش محمد اللجب مكة اليوم أم غدًا أم بعد غد؟ وماذا سيكون مصير أهل مكة؟ عندما يقتحمها هذا الجيش الذي لا قبل لأحد بمثله؟ لقد كان بعض كبار مجرمي الحرب من زعماء مكة يعدون العدة للهروب من مكة خوفًا من أن تنالهم يد العدالة على ما اقترفوا من جرائم يستحقون عليها العقاب الذي لا بد من إنزاله بهم.

بينما كان أهل مكة على تلك الحال التي لا يحسدون عليها، كان سيدهم وصاحب حربهم أبو سفيان بن حرب - بصحبة وسيط السلام العباس - يجري مع الرسول ﷺ مفاوضات التسليم في مقر القيادة العليا في الوادي خارج مكة.

لقد جرت محادثات ومناقشات كثيرة في المقر، وكان أول حديث جرى بين الرسول الأعظم ﷺ وبين سيد قريش أبي سفيان، أن دعا الرسول ﷺ أبا سفيان إلى ترك الشرك والوثنية واعتناق دين التوحيد، حيث قال له: ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟

فقال أبو سفيان: بأبي أنت وأمي، ما أوصلك وأحلمك وأكرمك، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله غيره لقد أغنى عني شيئًا.

فقال الرسول ﷺ: ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟ فقال أبو سفيان: بأبي أنت وأمي ما أوصلك وأحلمك وأكرمك، أمًا هذه ففي النفس منها شيء<sup>(١)</sup>.

كان هذا الحوار الهادئ يجري بين سيد البشر محمد ﷺ وسيد قريش أبي سفيان بن حرب، ووسيط السلام العباس بن عبد المطلب حاضر يسمع ويرى.

وكان - كما دلت تصرفاته (منذ بدأ الوساطة) - شديد الحرص على أن يسارع أبو سفيان بن حرب إلى اعتناق الإسلام لأن ذلك سيكون عاملاً حاسماً في إزالة شبح الحرب المخيف عن المدينة المقدسة التي يخاف العباس عليها وعلى أهلها من أن يجتاحها الجيش الإسلامي عنوة وبقوة السلاح.

(١) تاريخ الطبري ج ٥٤، ومغازي الواقدي ج ٢ ص ٨١٨.

فهناك عناصر في الجيش النبوي «من غير القرشيين» وهم الأغلبية الساحقة مثل الأنصار، لديها الرغبة الشديدة في الانتقام من مشركي مكة لتعتهم في الماضي في إيذاء الرسول ﷺ والتنكيل به أيام إقامته مع القلة من أصحابه بينهم.

وقد عبر عن هذه الرغبة الشديدة قائد أحد الألوية الخمسة التي دخلت مكة، سعد بن عباد الذي عزله الرسول ﷺ وأسند قيادة اللواء إلى ابنه قيس عندما بلغه أنه يهدد بإحداث مذبح بين مشركي مكة «اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الحرمة»<sup>(١)</sup>.

وانطلاقاً من قاعدة الحرص في نفس العباس على تجنب مكة ويلات الحرب - ولعلم العباس أن إسلام صديقه أبي سفيان سيكون من أهم عوامل إبعادها عن العاصمة المقدسة؛ لأنه سيد قريش ومفوضها وقائد حربها إذا أسلم ستسلم كل مكة، أو ستلاشى (على الأقل) الرغبة في المقاومة من نفوس الراغبين فيها، لذلك لما رأى العباس تردد صديقه أبي سفيان ومراوغته وتهربه من إعلان الدخول في الإسلام، بادر إلى نصحه، بل إلى زجره وتحذيره، فقد أخبره أن إسلامه سيكون عامل خير وبركة على نفسه وعلى أهل مكة كلها، وأن النبي ﷺ لن يجبره على الإسلام ولن يمسه بشر بعد أن أعطاه الأمان وما دام في جوارحه، ولكن عدم دخوله في الإسلام، سيكون من شأنه جلب المتاعب والويلات لنفسه ولقريش في مكة إذا ما أصروا على الكفر والتفكير في مقاومة الجيش الزاحف.

هكذا كان العباس يوجه صديقه أبا سفيان (بالتريغيب والترهيب) نحو الإسلام، حتى انتهت أخيراً توجهاته الخيرة بإقناع سيد قريش أبي سفيان بإعلان إسلامه، فشهد شهادة الحق «شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله»<sup>(٢)</sup>، وذلك بين يدي الرسول القائد ﷺ في مقر قيادته داخل المعسكر.

كيف كان إسلام أبي سفيان عاملاً في إحلال السلام بدل الحرب: وقد تنفس العباس ابن عبد المطلب الصعداء عندما أعلن صديقه أبو سفيان بن حرب إسلامه، فقد اقترب العباس من نهاية تحقيق ما يهدف إلى تحقيقه، وهو (في الدرجة الأولى) تجنب مكة معرة الجيش الغازي، فقد بدا واضحاً - بعد إسلام أبي سفيان - أن المسلمين سيدخلون مكة دون أن يضطروا إلى امتشاق الحسام وسفك الدماء، وهذا ما حدث بالفعل.

(١) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٤٩.

(٢) انظر تاريخ ابن عساکر ترجمة أبي سفيان بن حرب ومغازي الواقدي ج ٢ ص ٨١٨ والبدایة والنهاية ج ٤ ص

٢٩٠، وتاريخ الطبري ج ٣ ص ٥٤.

فقد كان إسلام أبي سفيان عاملاً حاسماً في تيسير فتح مكة أبوابها للجيش الإسلامي، دونما أية مقاومة تذكر، حيث ألقى كل القرشيين السلاح، فاستسلموا لجيش الإسلام، فضمنوا بذلك أرواحهم وأموالهم، ما عدا قلة من المتعصبين المتهورين مثل عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية، أبدوا شيئاً من المقاومة سحقها خالد بن الوليد قائد اللواء الخامس جنوبي مكة.

اتفاقية تسليم مكة للجيش النبوي : وبعد أن أسلم أبو سفيان، وأصبح أحد أفراد الأسرة الإسلامية الكبرى، سعى وسيط السلام العباس بن عبد المطلب لوضع الترتيبات النهائية لوضع الخطوط العريضة لاتفاقية نهائية بين الرسول ﷺ وبين أبي سفيان بن حرب، بصفته مندوب قريش ومفوضها المطلق، يتم بموجب هذه الاتفاقية تسليم مكة للجيش النبوي، ويمكن تلخيص اتفاقية التسليم في البنود الآتية :

- ١- حقن دماء أهل مكة وضممان أموالهم وممتلكاتهم من قبل الجيش النبوي.
  - ٢- امتناع القرشيين عن إبداء أية مقاومة مسلحة عندما يدخل الجيش النبوي مكة.
  - ٣- من حق الجيش النبوي أن يستخدم السلاح داخل مكة لسحق أية مقاومة مسلحة تقف في طريقه.
  - ٤- لكي يتحقق البند الأول يفرض منع التجول على جميع سكان مكة بأن يلتزم كل إنسان بيته أو يلجأ إلى المسجد أو إلى منزل أبي سفيان، حتى يتم الجيش النبوي احتلال مكة وينتهي من السيطرة على النقاط المحددة له السيطرة عليها .
- دبلوماسية العباس بن عبد المطلب : لقد كان العباس لبقاً دبلوماسياً ماهراً - إن صح هذا التعبير - فهو صاحب فكرة إعطاء أبي سفيان (ضمن اتفاقية التسليم) ما يرفع من شأنه ويعلي من منزلته بين قومه، فقد قال العباس: يا رسول الله إنك عرفت أبا سفيان وحبه الشرف والفخر، اجعل له شيئاً يكون في قومه، فقال: نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن<sup>(١)</sup> وفي رواية أن أبا سفيان قال حينئذ: وما تسع داري يا رسول الله، فقال ﷺ: ومن دخل الكعبة فهو آمن، فقال أبو سفيان: وما تسع الكعبة؟ فقال ﷺ: ومن دخل المسجد فهو آمن، قال أبو سفيان: وما يسع المسجد؟ فقال ﷺ: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، فقال أبو سفيان: هذه واسعة<sup>(٢)</sup>، وبعد إبرام هذه الاتفاقية شرع الفريقان في تنفيذها.

(١) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٤٦.

(٢) البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٩١.

الرسول يصدر أمره إلى الجيش بعدم استخدام السلاح في مكة إلا حالة الدفاع عن النفس :

فمن جانب الرسول الأعظم ﷺ فقد أصدر أوامره المشددة إلى عامة جيشه بأن لا يستخدموا السلاح عندما يدخلون مكة ضد أي إنسان، إلا من اعترضهم وقاومهم، كما أمر بأن لا يمس أفراد جيشه ممتلكات أو أموال أي إنسان من أهل مكة، وقد نفذ الجيش النبوي تعليمات قائده الأعلى تنفيذًا كاملاً، فلم يحدث من الجيش ما يعكر على أهل مكة صفو أمنهم. اللهم إلا الذين شهروا السلاح في وجه هذا الجيش، ضُربوا وسحقت مقاومتهم بعد أن فقدوا اثنين وعشرين قتيلًا كما سيأتي تفصيله إن شاء الله.

أما سيد قريش وزعيمها فقد قرر أن يذهب إلى مكة ويبلغ ساداتها مضمون اتفاقية التسليم هذه ويطلب من الجماهير القرشية أن تتقيد بها وتنفذها لئلا تكون عرضة لسيوف الجيش النبوي الذي لن يتردد في قتل من يُخل بهذه الاتفاقية ولا يعمل بمضمونها.

مكة مدينة مفتوحة: وهكذا، وبعد هذه الاتفاقية أصبحت العاصمة المقدسة مكة مدينة مفتوحة ممنوعٌ على الجيش الإسلامي استخدام السلاح فيها إلا في حالة الدفاع عن النفس، كما يحرم على أهل مكة حمل السلاح وإبداء أية مقاومة مسلحة في وجه الجيش النبوي.

أبو سفيان يشير على الرسول أن يؤجل احتلال مكة ويتحول لمحاربة هوازن: ويذكر المؤرخون أن أبا سفيان عقب نطقه بالشهادتين أشار على الرسول ﷺ بأن يؤجل احتلال مكة ويغيّر وجهة زحف جيشه نحو قبائل هوازن لضربها، باعتبارهم أبعد قرابة من قريش، ولكن الرسول ﷺ لم يعمل بمشورة أبي سفيان، بل أخبره بأنه يأمل في أن يجمع الله له فتح مكة والتغلب على هوازن.

فقد ذكر المؤرخون، أن أبا سفيان بن حرب وحكيم بن حزام «أسلم يوم أسلم أبو سفيان، قالاً: يا رسول الله: لو كنت جعلت حدثك ومكيدتك بهوازن، فهم أبعد رحماً وأشد لك عداوة.

فقال رسول الله ﷺ: إني لأرجو من ربي أن يجمع لي ذلك كله بفتح مكة، وإعزاز الإسلام بها، وهزيمة هوازن وأن يعثمني الله أموالهم وذرايهم، فإني راغب إلى الله تعالى

في ذلك<sup>(١)</sup> .

الرسول يزجر أبا سفيان لمقالة قالها في أصحابه : ولما كان أبو سفيان حديث العهد بالإسلام، فقد دفعته رواسب الجاهلية المتبقية في نفسه إلى أن يقول كلاماً يتنقص به أصحاب الرسول ﷺ، الأمر الذي غضب له الرسول ﷺ وزجر له أبا سفيان. فقد قال أبو سفيان - وهو لما يزل في المعسكر النبوي - : يا محمد جئت بأوباش الناس، من يُعرف ومن لا يُعرف، إلى عشيرتك وأصلك، إنني أرى وجوهاً كثيرة لا أعرفها لقد كثرت هذه الوجوه عليّ.

فقال له الرسول ﷺ: أنت أظلم وأفجر، غدرتم بعهد الحديبية وظاهرتم على بني كعب (يعني خزاعة) بالإثم والعدوان في حرم الله وأمنه<sup>(٢)</sup> . ثم قال ﷺ لأبي سفيان - ردّاً على قوله - إنني لأرى وجوهاً كثيرة لا أعرفها، لقد كثرت هذه الوجوه على - : أنت فعلت هذا وقومك، إن هؤلاء صدّقوني إذ كذبتُموني، ونصروني إذ أخرجتُموني<sup>(٣)</sup> .

العرض العسكري أمام أبي سفيان: وبعد أن أسلم أبو سفيان وتم الاتفاق بين الرسول ﷺ وبين زعيم قريش أبي سفيان على أن تكون مكة مدينة مفتوحة تُحَقَّن فيها دماء قريش ويدخلها الجيش النبوي دون حرب، وقبل أن يتوجه أبو سفيان إلى قومه في مكة ليبلغهم فحوى الاتفاقية، ويطلب منهم تنفيذها ليحققوا دماءهم ويحرزوا أموالهم، رأى الرسول القائد ﷺ أن يجري عرضاً عسكرياً يستعرض فيه كل قواته الحربية أمام سيد قريش أبي سفيان بن حرب قبل أن يعود إلى مكة، لكي يعود إليها وهو يحمل الانطباع الحقيقي عن مدى قوة الجيش النبوي، وحسن تنظيمه وجودة تسليحه وكثرة عدده وشدة انضباطه، وأن لا قبل لقريش بمقاومته، إذا ما فكرت في المقاومة.

احتجاز أبي سفيان لفترة محدودة ليشهد العرض العسكري : فقد أمر النبي ﷺ بأن يحتجز أبو سفيان في مضيق الوادي لفترة محدودة تنتهي بانتهاء العرض العسكري الذي قرر الرسول القائد إجراءه قبل دخول الجيش مكة، وقد توجه أبو سفيان خيفة من هذا الإجراء، وظن أن احتجازه عند مضيق الوادي يحمل بادرة غدر يراد به، ولكن وسيط السلام طمأنه بأن المسلم لا يغدر ولا ينكث بعهد أعطاه، وإنما هو الرسول ﷺ أحب أن يرى أبا سفيان جنود الله (إخوانه) قبل أن يعود إلى مكة.

(١) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٨١٦.

(٢) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٨١٦.

(٣) البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٩١.

فقد ذكر المؤرخون أن أبا سفيان بعد أن خرج من مقر قيادة الرسول متجهًا نحو مكة، قال الرسول ﷺ لعمه العباس: احبس به مضيق الوادي إلى خطم الجبل<sup>(١)</sup> حتى تمر به جنود الله فيراها.

قال العباس: فعدلت به في مضيق الوادي إلى خطم الجبل، فلما حبست أبا سفيان قال: غدراً بني هاشم؟

فقال العباس: إن أهل النبوة لا يغدرون، ولكن لي إليك حاجة، فقال أبو سفيان: فهلا بدأت بها أولاً، فقلت إن لي إليك حاجة فكان أفرخ لروعي؟ فقال العباس: لم أكن أراك تذهب هذا المذهب<sup>(٢)</sup> «أي أن يبلغ بك الخوف والريبة هذا المبلغ».

تأثير الاستعراض العسكري في نفس أبي سفيان: وعقب وقوف العباس بأبي سفيان عند مضيق الوادي، أمر الرسول القائد ﷺ كل فرق الجيش وكتائبه أن يمشوا جميعهم أمام زعيم قريش أبي سفيان، فأقيم العرض العسكري في الوادي على أروع صورة دهش لها أبو سفيان الذي ما كاد يصدق ما يرى.

فقد مرت الأولوية والكتائب النبوية في الوادي في تعبئة دقيقة، وفي حالة انضباط أدق، ما كان يعرفه العرب في تاريخهم العسكري عبر العصور.

وقد أخذت الدهشة من نفس أبي سفيان كل مأخذ وأشد شيء دهش له، هذا التبدل الكامل الشامل الذي غير مجرى حياة المسلمين تغييراً جذرياً، حيث زال منهم كل قبيح وحل محله كل حسن، بسبب انسلاخهم عن الشرك، واعتقادهم عقيدة التوحيد التي كان اعتناقها مصدر كل هذه التحولات والتغيرات الجذرية في كيان هؤلاء الأعراب، الذين كانوا ضعافاً فقواهم الله، وكانوا أذلاء فبالإسلام أعزهم الله، وكانوا متفرقين متخاصمين، فجمعهم الله في إطار الوحدة الإسلامية التي ظهرها بهذا المظهر الرائع الذي له انعقد لسان سيد قريش وزعيمها أبي سفيان بن حرب الذي عبّر عن دهشته وتعجبه لما رأى بقوله: «ما رأيت يا أبا الفضل مُلكاً كهذا قط، لا مُلك كسرى ولا مُلك بني الأصفر<sup>(٣)</sup>، لقد أصبح مُلك ابن أخيك الغداة عظيماً<sup>(٤)</sup>».

(١) خطم الجبل: أنفه.

(٢) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٨١٩.

(٣) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٨١٥.

(٤) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٨٢٢.



بدء الاستعراض العسكري : وقد بدأ الاستعراض العسكري أمام زعيم قريش أبي سفيان في الصباح الباكر حسب أمر الرسول القائد، وكان الاستعراض حسب التعبئة التي تمت في منطقة قديد، فقد مرّت القبائل على قادتها والكتائب على راياتها أي أن الاستعراض كان (في جملته) على أساس قبلي، فقد مرت كل قبيلة في كامل هيئتها الحربية منفردة بشعارها الخاص وعلمها المميز.

فرسان خالد أول من بدأ العرض العسكري : وكان أول من افتتح العرض العسكري أمام أبي سفيان القائد خالد بن الوليد، قدمه الرسول في ألف من بني سليم وكلهم من الفرسان يحمل ألويتهم ثلاثة منهم، عباس بن مرداس السلمي، وخفاف بن ندبة، والحجاج بن علاط، وكانت الكتائب قد غاص رجالها في الدروع فصارت تمر أمام أبي سفيان: من هؤلاء؟ قال العباس: بنو سليم، فقال أبو سفيان: مالي ولسليم، ولما قال العباس وهذا قائدهم خالد بن الوليد، قال أبو سفيان: الغلام؟ قال: نعم، ولما حاذى خالد العباس وإلى جانبه أبو سفيان كبر ثلاثاً، ثم مضوا.

ثم مر الزبير بن العوام في خمسمائة من محاربي المهاجرين وأخلاق من العرب ومعه راية سوداء، فلما حاذى أبا سفيان كبر ثلاثاً.

وكان أبو سفيان يعرف الزبير حق المعرفة، ولكنه لما كان غائصاً في الدرع والمغفر، لم يعرفه، فقال : من هذا قال: الزبير بن العوام.

قال ابن أختك؟ (وكان الزبير بن صفية بنت عبد المطلب).

فقال العباس: نعم.

ثم مر بنو غفار في ثلثمائة، يحمل رايتهم أبو ذر الغفاري فلما حاذوه كبروا ثلاثاً.

فقال: من هؤلاء يا أبا الفضل؟ قال: بنو غفار: فيقول أبو سفيان: مالي ولبنى غفار.

ثم استعرض بنو أسلم قواتهم أمام زعيم قريش، وكانوا أربعمائة يحمل لواءهم بريدة بن الحصيب، وناجية بن جندب فلما حاذوه كبروا ثلاثاً.

قال: من هؤلاء؟

فيجيبه العباس: أسلم.

فيقول أبو سفيان (متدمراً): مالي ولأسلم: ما كان بيننا وبينها مرة قط، قال العباس: هم قوم مسلمون دخلوا في الإسلام.

ثم مر بنو عمرو بن كعب من خزاعة في قواتهم المسلحة وعددهم خمسمائة، يحمل رايتهم بُسر بن سفيان الخزاعي فقال أبو سفيان: من هؤلاء؟ فقال العباس: بنو كعب بنو عمرو.

فيقول أبو سفيان: نعم، هؤلاء حلفاء محمد، فلما حاذوه كبروا ثلاثاً.

ثم مرت قبيلة مُزينة في ألف محارب، بقيادة النعمان بن مقرن، وبلال بن الحارث، وعبد الله بن عمرو، فلما حاذوا أبا سفيان كبروا ثلاثاً، فقال: من هؤلاء؟

قال العباس: مُزينة، فقال: يا أبا الفضل، مالي ولمزينة قد جائتني تقعقع من شواهقها<sup>(١)</sup>.

ثم جاءت جهينة، فاستعرضت قواتها أمام أبي سفيان، وعددها ثمانمائة مقاتل، يقودهم أربعة من ساداتهم: رافع بن مكيث، وعبد الله بن بدر، وسويد بن صخر، وأبو زرعة معبد بن خالد، وكما هي التعليمات، كبر الجُهينيون أمام سيد قريش، وقد عرفهم.

ثم مرت ثلاث فخائد من كنانة التي كانت بنو نفاثة السبب في نقض صلح الحديبية - بني ضمرة وبني ليث وبني سعد بن بكر بن كنانة - في مائتين، يقودهم أبو واقد الليثي، فلما حاذوا أبا سفيان وكبروا ثلاثاً، قال للعباس: من هؤلاء؟ فقال له: بنو بكر.

فعادت الذكريات الأليمة بأبي سفيان إلى الأيام التي ساندت فيها قريش بني بكر في غدرهم بخزاعة، فقال: نعم، أهل شوّم والله، الذين غزانا محمد بسبيهم، أما والله ما شوورت فيه ولا علمته، ولقد كنت له كارهاً، حيث بلغني، ولكنه أمر حُم، فقال العباس: قد خار لك الله في غزو محمد ﷺ، ودخلتم في الإسلام كافة.

ثم مرت قبيلة أشجع النجدية في ثلثمائة مقاتل، يقودهم معقل بن سنان، ونعيم بن مسعود، فقال أبو سفيان: وقد عرفهم - هؤلاء كانوا أشد العرب على محمد - لأنهم من غطفان الذين حاولوا احتلال المدينة في غزوة الأحزاب الرهيبة.

فقال العباس: أدخل الله الإسلام في قلوبهم، فهذا من فضل الله عز وجل، فسكت أبو سفيان، ثم قال: ما مضى بعد محمد؟ قال العباس: لم يمض بعد، لو رأيت الكتيبة التي فيها محمد ﷺ رأيت الحديد، والخيل والرجال، وما ليس لأحد به طاقة، قال: أظن والله يا أبا الفضل، ومن له بهؤلاء طاقة؟

(١) قال في الصحاح: الشواق، جمع شاق، وهو الجبل المرتفع.

الرسول يختتم العرض العسكري: وبعد أن أكملت القبائل العربية استعراض قواتها أمام أبي سفيان، أقبل الرسول القائد ﷺ يمتطي ناقته القَصْوَى في المهاجرين والأنصار الذين كانت قواتهم حوالي خمسة آلاف مقاتل.

وقد كان عامة الجيش من المهاجرين والأنصار، يقدمون رسول الله ﷺ، فلما طلعت كتيبته الخضراء<sup>(١)</sup> طلع سواد وغبرة من سنايك الخيل، وجل الناس يرون، وأبو سفيان يقول: ما مرَّ محمدًا؟ فيقول له العباس: لا، حتى إذا ظهر رسول الله ﷺ على ناقته القَصْوَى، قال العباس لأبي سفيان: هذا رسول الله ﷺ.

وكان الرسول القائد ﷺ يسير على ناقته تحيطه هيئة أركان حرب، وهو بين سيد الأنصار أسيد بن حُضير ووزيره الأول أبي بكر الصديق، يتحدث إليهما حديث القائد لكبار ضباط جيشه.

وكانت كتيبته الخضراء الخاصة قد انتظمت كل قوات الأنصار وعددهم أربعة آلاف مقاتل وكذلك انتظمت بعض المهاجرين، وبعض سادات وزعماء القبائل العربية، في الأنصار الرايات والألوية، مع كل بطن من الأنصار راية، وكانوا كلهم غائصين في الحديد، لا يرى منهم إلا الحدق، وكان في الكتيبة عمر بن الخطاب له زجل، وعليه الحديد، وقد لفت ارتفاع صوت ابن الخطاب في الكتيبة نظر أبي سفيان فقال للعباس: من هذا المتكلم؟ فقال: عمر بن الخطاب، قال أبو سفيان: لقد أمر أمرُ بني عدي بعد - والله - قلة وذلة، فقال العباس: يا أبا سفيان، إن الله يرفع من يشاء بما يشاء، وإن عمر ممن رفعه الإسلام.

سعد بن عبادة يهدد قريشًا باستباحة حرمتها فيشتكيه أبو سفيان: كان رسول الله ﷺ أثناء المرحلة الأخيرة من الاستعراض العسكري قد أعطى رايته الخاصة سيد الأنصار سعد بن عبادة فصار يتحرك بها أمام كتيبة رسول الله ﷺ. وعندما مر بأبي سفيان صرخ في وجهه: يا أبا سفيان، اليوم يوم الملحمة، اليوم تُسْتَحْلُ الحرمة، اليوم أذل الله قريشًا.

ففرغ أبو سفيان لذلك فرغًا شديدًا، إذ أن تهديد سعد هذا فيه تصريح بأن الجيش النبوي سيستبيح مكة وسيقتل أهلها، وهذا خلاف ما اتفق عليه الرسول ﷺ وأبو سفيان أثناء مفاوضات التسليم التي انتهت بالاتفاق على أن يلقي القرشيون السلاح وأن تكون مدينتهم مفتوحة يأمن فيها أهلها على أرواحهم وأموالهم وممتلكاتهم وذرائعهم.

(١) سميت هذه الكتيبة بالخضراء؛ لكثرة ما فيها من الحديد الذي جعل لونها لونًا أخضر.

ولذلك فإن الرسول ﷺ لما مر (في هيئة أركان حربه من خاصة أصحابه) ناداه أبو سفيان (محتجاً على تهديدات سعد بن عبادة): يا رسول الله، أمرت بقتل قومك؟ زعم سعد ومن معه حين مر بنا قال: «يا أبا سفيان، اليوم يوم الملحمة، اليوم تُسْتَحَلُّ الحُرْمَةُ، اليوم أذل الله قريشاً» وإني أنشدك الله في قومك، فأنت أبر الناس، وأرحم الناس، وأوصل الناس.

وقد ضم كبار المهاجرين القرشيين مثل عبد الرحمن بن عوف وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان، ضموا أصواتهم إلى صوت أبي سفيان مستنكرين قولة سعد بن عبادة، ومعلنين تخوفهم على قريش من سعد وجنوده الأنصار، حيث قالوا: يا رسول الله ما نأمن سعداً أن يكون منه في قريش صولة، فاستنكر الرسول ﷺ مقالة سعد، وطمان الجميع قائلاً: اليوم يوم الرحمة، اليوم يعظم الله فيه الكعبة، اليوم أعز الله فيه قريشاً، ولم يكتف الرسول ﷺ بهذا القول بل - ليزيل المخاوف التي علقته بنفس أبي سفيان والمهاجرين من قريش - أمر بعزل سعد بن عبادة من منصبه، وعيّن مكانه في القيادة ابنه قيس بن سعد وقيل علي بن أبي طالب، وقد أبى سعد أن يعتزل منصبه ويسلم علم الجيش لخلفه إلا بأمرة (أي علامة) من الرسول ﷺ، فأرسل إليه الرسول ﷺ بعمامته (أمرة) فعرّفها فدفَع علم الجيش إلى ابنه سعد واعتزل القيادة.

وبعد أن أكملت آخر مجموعة من القوات الإسلامية استعراضها أمام أبي سفيان. وانتهى ذلك العرض العسكري الرائع الذي تعمد الرسول القائد الحكيم أن تقوم به قواته أمام سيد قريش وزعيمها أبي سفيان بن حرب، قبل أن يعود إلى قومه في مكة - قال أبو سفيان للعباس الذي ظل واقفاً إلى جانبه طوال المدة التي أجرت فيها القوات الإسلامية المسلحة استعراضها - : سبحان الله، ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة، والله يا أبا الفضل، لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً، فقال العباس: ويحك يا أبا سفيان، ليس بملك ولكنها نبوة، قال: فنعم إذن<sup>(١)</sup> ..

تأثير العرض العسكري في نفس أبي سفيان : وقد تركت الاستعراضات العسكرية التي قامت بها مختلف الأسلحة في الجيش النبوي أمام سيد قريش وزعيمها أبي سفيان بن

(١) انظر البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٩٠ وما بعدها، ومغازي الواقدي ج ٢ ص ٨١٨ وما بعدها، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٠٥ وما بعدها وسيرة ابن هشام ج ٤ ص ٤٦ وما بعدها، وطبقات ابن سعد ج ٢ وتاريخ الطبري ج ٣ ص ٥٤ وزاد المعاد ج ٤ وتاريخ ابن عساکر ترجمة أبي سفيان.

حرب في الوادي بضواحي مكة، أحدثت في نفس أبي سفيان آثارها العميقة التي أرادها الرسول القائد ﷺ أن تحدث، حينما أمر بإقامة هذا الاستعراض التاريخي الذي قامت به مختلف الوحدات في الجيش النبوي وعلى أروع صورة.

فقد هدف الرسول القائد ﷺ من وراء القيام بهذا الاستعراض العسكري الكامل، إلى أن يرى زعيم قريش بنفسه مدى قوة الجيش النبوي عددًا وتسليحًا وتنظيمًا وانضباطًا وقوة إرادة وحسن طاعة وقدرة على سحق أية مقاومة (مهما كانت) قد يفكر المتهورون من قريش في القيام بها عندما يشرع هذا الجيش في السيطرة على مكة وتحريرها، فينقل أبو سفيان إلى قومه في مكة الانطباعات الحقيقية عن مدى قوة الجيش النبوي ومدى قدرته على إبادة أية قوة تعترض سبيله وهو يدخل مكة، فلا يتهور أحد منهم فيفكر في المقاومة.

عودة أبي سفيان إلى مكة : فبعد أن رأى سيد قريش وقائد جيوشها أبو سفيان بن حرب، رأى العين، حقيقة ما عليه الجيش النبوي من ضخامة في العدد وجودة في التسليح وانضباط في السلوك وقوة في العقيدة وتصميم في الإرادة، قر في نفسه بأنه من الانتحار أن يحاول أحد من القرشيين في مكة مقاومة هذا الجيش، وقد عاد أبو سفيان إلى مكة وهو يحمل إلى قومه هذا الانطباع الذي لم يستطيع أحد محوه من نفسه، بل ظل هذا الانطباع ملازمًا له، ومُلبحًا عليه بأن يُفنع كل الفئات من قومه قريش بأن يلقوا بأسلحتهم ويستسلموا للجيش الزاحف لأنه لا قبيل لأحد منهم بهذا الجيش.

المتطرفون يحاولون المقاومة : وقد حاول المتطرفون من قريش (وعلى رأسهم زوجة القائد العام نفسه هند بنت عتبة) أي يشككوا فيما يقوله أبو سفيان عن مدى قوة الجيش النبوي ويقنعوا قوات قريش المسلحة بالاحتشاد لاعتراض الجيش النبوي في مواجهة مسلحة لصدده عن دخول العاصمة المقدسة، ولكن هؤلاء المتطرفين فشلوا، ونجح أبو سفيان في إقناع الجماهير القرشية باللقاء السلاح والاستسلام لجيش الرسول ﷺ، فدخل الجيش النبوي مكة دونما مقاومة تذكر وبهذا نجت العاصمة المقدسة من مجزرة رهيبة كاد المتطرفون من أعيان مكة يتسببون في حدوثها.

أبو سفيان في مكة يدعو قومه لإلقاء السلاح : فعقب انتهاء العرض العسكري الذي قام به الجيش النبوي من مختلف الوحدات أمام أبي سفيان عند مضيق الوادي، أبلغ وسيط السلام العباس ابن عبد المطلب، صديقه وقريبه أبا سفيان بأن في إمكانه الآن أن يذهب إلى قومه في مكة، ليخبرهم بما رأى، ويبلغهم نهاية محادثاته التي أجراها مع

الرسول ﷺ والاتفاقات التي توصل إليها نتيجة هذه المحادثات، بل لقد نصح العباس صديقه أبا سفيان بأن يسارع إلى قومه في مكة، لإنقاذهم حيث قال له: «فانج ويحك فأدرك قومك قبل أن يدخل عليهم»<sup>(١)</sup>.

استجابة أهل مكة لنداء أبي سفيان بإلقائهم السلاح : عمل أبو سفيان بن حرب بتوجيه صديقه العباس بن عبد المطلب، فانطلق بأقصى سرعة إلى قومه بمكة، ليطلب منهم الهدوء وتنفيذ الاتفاقية التي أبرمها مع الرسول القائد ﷺ ليحرزوا دماءهم وأموالهم.

وما كاد أبو سفيان يصل مكة حتى تجمهر عليه الناس من كل حذب وصوب، وأخذوا يمحطرونه بالأسئلة عما حدث له في المهمة التي أنتدبته قريش من أجلها، وعمما يجب أن يفعلوه في تلك الساعات الحاسمة الحرجة من تاريخ قريش، فقد استبدت بهم الحيرة والقلق، لا يدرون ماذا يصنعون.

وقد أخبرهم أبو سفيان بكل شيء، وكان صريحاً معهم إلى أبعد الحدود. أبلغهم أنه قرر (وبموجب اتفاقية عقدها مع محمد ﷺ) على أن تكون مكة مدينة مفتوحة لا يشهر فيها أصحاب محمد سلاحاً، شريطة أن يلقي أهل مكة سلاحهم، ويمتنعوا عن إبداء أية مقاومة للجيش النبوي عندما يدخل مكة، وأن يلتزموا بقرار حظر التجول في المدينة الذي سيكون ساري المفعول منذ وصول أول جندي إسلامي حدود مكة، وذلك بأن يلزم كل إنسان داره ويغلق على نفسه بابه، أو يدخل دار أبي سفيان نفسه أو يعتصم بالمسجد، وتلك هي الوسيلة الوحيدة لنجاة أهل مكة من التعرض لسيوف المسلمين، الذين كانت التعليمات صريحة لديهم بأن يقتلوا كل من يحاول اعتراض سبيلهم، وأن يكفوا (من جهة أخرى) عن قتل أي إنسان من أهل مكة لا يعترض سبيلهم.

أبو سفيان يدعو أهل مكة إلى الإسلام : وقد أخبر أبو سفيان أهل مكة أن التزامهم بهذه القرارات وتنفيذهم لهذه الأوامر، سيكون مقابله أن أرواحهم وأموالهم وكل ممتلكاتهم مضمونة لهم من قبل الجيش النبوي.

كما أن أبا سفيان (وقد رأى بأم عينيه حقيقة القوة الجبارة التي عليها الجيش الإسلامي) صارح أهل مكة والمتطرفين منهم على وجه الخصوص، بأن أية مقاومة يديها القرشيون في وجه الجيش الزاحف سيكون مصيرها التلاشي السريع، وأن أسلم طريقة هي عدم التفكير في المقاومة - بل إن أبا سفيان (وقد أصبح مسلماً) دعا أهل مكة إلى الدخول في الإسلام ذاته.

(١) مغازي الواقي ج ٢ ص ٨٢٢.

المعارضون لأبي سفيان من قريش : وقد لقي أبو سفيان بعض المعارضة عندما ألقى بيانه الصريح على الجماهير القرشية حول المسجد، وصارحها بالحقيقة، ودعاها إلى اتباع داعي العقل الراجح لا العاطفة الفوارة، التي لا يقود اتباعها إلا إلى الويلات والكوارث.

هند تدعو جماهير قريش إلى قتل زوجها أبي سفيان: وكان أشد المعارضين لما قاله وجاء به ودعا إليه سيد قريش أبو سفيان، وزوجه هند ابنة عتبة بن ربيعة بن عبد شمس التي ما كادت تسمع دعوة زوجها قومه إلى الاستسلام للجيش الإسلامي الغازي حتى قبخته وهجمت عليه تجرّه من شنبه داعية أهل مكة إلى قتله، وقد أيدها في معارضتها فئة من القرشيين مثل عكرمة بن أبي جهل.

غير أن المعارضة لأبي سفيان كانت (على عنفها) قليلة بحيث ضاع صوتها وسط أصوات الأغلبية الساحقة من أهل مكة الذين استجابوا لسيدهم أبي سفيان، بعد أن استصوبوا رأيه وعلموا إخلاصه وصدقه فيما نصحهم به، فسارعوا إلى تنفيذ كل التعليمات والأوامر التي ألقى بها إليهم، قبل أن يصل الجيش النبوي مكة.

فقد أفاد المؤرخون، أن أبا سفيان لما عاد من المعسكر النبوي (وكان على بعد أربعة أميال من مكة) صرخ في قريش بأعلى صوته: يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، فقامت إليه زوجته هند بنت عتبة فأخذت برأسه، فقالت: ما وراءك؟ قال: ما ورائي؟ هذا محمد في عشرة آلاف عليهم الحديد، جعل لي: من دخل داري فهو آمن، فقال له بعضهم: قبحك الله، وما تُغني عنا دارك؟ قال: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن ألقى سلاحه فهو آمن.

فكانت زوجته هند تقول وقد أخذت بشاربه: قبحك الله رسول قوم، يا آل غالب اقتلوا الشيخ الأحق الذي لا خير فيه، قبحك من طليعة قوم، ثم حرضت قريشاً على المقاومة قائلة: هلا قاتلتم ودافعتم عن أنفسكم وبلادكم، فقال أبو سفيان: ويحك اسكتي وادخلي بيتك، ثم خاطب الجماهير القرشية قائلاً: ويلكم، لا تغرنكم هذه من أنفسكم، رأيت ما لم تروا، رأيت الرجال والكراع والسلاح، فلا لأحد بهذا طاقة، فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به<sup>(١)</sup>.

أهل مكة يلقون السلاح ويستعدون للإسلام: بعد أن استمع الناس في المسجد إلى

(١) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٤٧ تاريخ الطبري ج ٣ ص ٥٤ ومغازي الواقدي ج ٢ ص ٨٢٢ وما بعدها، والبداية والنهية ج ٤ ص ٢٩٠ وما بعدها، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٠٥ وما بعدها وتاريخ ابن عساکر. ترجمة أبي سفيان بن حرب وصحيح البخاري ج ٥ وزاد المعاد ج ٤ وجوامع السيرة.

بيان أبي سفيان الذي ألقاه على جماهير قريش، تفرق الناس ولدى كل منهم الاقتناع الكامل بأنه من العبث إبداء أية مقاومة للجيش النبوي، وأن الحكمة والصواب تكمنان فيما قاله ودعا إليه أبو سفيان الجماهير القرشية، وهو الكف عن القتال وإلقاء السلاح.

وانطلاقاً من هذا الاقتناع سارع القرشيون إلى إخلاء الطرقات واعتصموا، إماماً بمنزلهم وإماماً بالمسجد وإماماً بدار أبي سفيان بن حرب، بعد أن ألقوا بأسلحتهم في الطرقات وأمام المنازل وعند مداخل المسجد، تقيداً بالاتفاقية التي أبرمها زعيمهم أبو سفيان بن حرب مع الرسول القائد ﷺ لتجنيب مكة ويلات الحرب، ولتكون أرواح القرشيين وأموالهم وكل ممتلكاتهم مصونة.

وبهذا طبق القرشيون نظام منع التجول وأصبحت شوارع مكة (قبل دخول الجيش النبوي إليها) خالية من الناس.

الشاذون الذين قاوموا فهزموا: وإذا كانت الأغلبية الساحقة من أهل مكة قد استجابوا لنداء العقل فقررروا الاستسلام لجيش الإسلام الغازي الذي لا قبل لهم بمقاومته فألقوا السلاح وأخلوا الشوارع والترموا منازلهم أو المسجد أو بيت أبي سفيان حتى أتم الجيش النبوي السيطرة على مكة، فإن أقلية من قريش خرجوا على الإجماع، وعصوا زعيمهم أبا سفيان بن حرب، فحملوا السلاح وقرروا مقاومة الجيش النبوي الزاحف، ولكن مقاومتهم سُحقت خلال عدة دقائق، وكان من سوء حظهم أن كانت مقاومتهم في وجه أميرهم قريش بن عكرمة (بعد الرسول ﷺ) وهو خالد بن الوليد.

وكان من بين الذين خرجوا على الإجماع فقاوموا الجيش النبوي فتسببوا فيما لم يرغبه الرسول القائد ﷺ من سفك الدم في الحرم الآمن - رجال صاروا فيما بعد من الأبطال الذين رووا شجرة الإيمان بدمائهم الزكية الطاهرة مجاهدين في سبيل الله، مثل صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل اللذين استشهدا في معارك الشام التي نشبت بين جيوش الإسلام وجيوش الإمبراطورية الرومانية في عهد الفاروق عمر.

توزيع القيادات استعداداً لدخول مكة: ذكرنا فيما مضى من هذا الكتاب أن الرسول القائد ﷺ عبأ جيشه في قديد على أساس قبلي، وقد تحرك الجيش من قديد في اتجاه مكة وهو في حالة تعبئة تامة، وعلى الأساس القبلي المشار إليه والمذكور تفصيلاً فيما مضى من هذا الكتاب.



غير أن الرسول ﷺ لما وصل (ذي طوى) - وهو المنطقة المسماة اليوم في مكة (بالزاهر) قَسَمَ جيشه البالغ عشرة آلاف مقاتل إلى خمس فرق، كان هو ﷺ قائد الفرقة الأولى التي ضمت هيئة أركان حربه من كبار المهاجرين والأنصار وشيوخ القبائل العربية وساداتها.

أما الفرق الأربع الأخرى التي كُلفت بالسيطرة على مكة واحتلالها وسحق أية مقاومة مسلحة يبيدها أي من القرشيين فقد أسندت قيادتها إلى أربعة من كبار الصحابة، ثلاثة من المهاجرين، وواحد من الأنصار.

الجهات التي دخلت منها فرق الجيش مكة: وهؤلاء القادة الأربعة، هم:

- ١- الزبير بن العوام، كُلفت فرقته بأن تستولي على الناحية الشمالية من مكة، عند منطقة يقال لها كُدَيْ<sup>(١)</sup> (وهي غير كُدَا).
- ٢- خالد بن الوليد، وكُلف بأن يدخل مكة من ناحية الجنوب من منطقة يقال لها: اللَّيْط<sup>(٢)</sup>، وهي المسماة اليوم بمحلة المسفلة.
- ٣- أبو عبيدة بن الجراح، وقد كلفه الرسول ﷺ أن يدخل بفرقته من الناحية الشمالية الغربية<sup>(٣)</sup>.
- ٤- قيس بن سعد بن عبادة<sup>(٤)</sup> الأنصاري كلفت الفرقة التي يقودها

(١) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٨٢٥.

(٢) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٤٩.

(٣) الرسول القائد ص ١٣١.

(٤) هو قيس بن سعد بن عبادة بن دليم الأنصاري الخزرجي أبوه سيد الخزرج كان من شباب الأنصار الشجعان، وكان مثل أبيه ذروة في السخاء والكرم والجود، ومن أمثلة سخائه وجوده أن رجلاً استقرض منه ثلاثين ألفاً، فلما ردها عليه أبى أن يقبلها (الإصابة في تمييز الصحابة ج ٣ ص ٢٣٩) وفي صحيح البخاري عن أنس كان قيس ابن سعد من النبي ﷺ بمنزلة صاحب الشرطة من الأمير، وقال ابن عبد البر: كان قيس أحد الفضلاء الجللة من دهاة العرب من أهل الرأي والمكيدة في الحرب مع النجدة والسخاء والشجاعة، وكان شريفاً في قومه غير مدافع وكان أبوه وجده كذلك (انظر قصة سخائه وكرمه في غزوة الخيبر من هذا الكتاب) كان قيس حامل لواء الأنصار وقائد إحدى الفرق الأربع التي حررت مكة يوم الفتح، وقال ابن عيينة: كان قيس بن سعد ضخماً حسنًا طويلًا، إذا ركب خطت رجلاه الأرض، ساهم في فتح مصر تحت قيادة عمرو بن العاص، شهد أكثر المشاهد مع رسول الله ﷺ كان من أنصار على في نزاعه مع أصحاب الجمل ومعاوية وكان والياً لعلی على مصر فاستبدله بمحمد بن

(وكلها من الأنصار) أن تدخل مكة من جنوبها الغربي<sup>(١)</sup> وكان من المقرر أن يقود هذه الفرقة سعد بن عبادة سيد الأنصار، ولكن الرسول ﷺ عزله من القيادة لتفوهه بكلام أغضب المهاجرين لأنه يتضمن التهديد بأن الأنصار سيستبيحون مكة، فعزله الرسول ﷺ تأديباً له على قوله ذلك<sup>(٢)</sup>. إلا أن الرسول ﷺ تعمّد أن يخلف سعداً في القيادة ابنه قيس تطييباً لنفسه، ولثلاثاً تخرج قيادة الأنصار (وهم العمود الفقري للجيش) منهم إلى غيرهم.

من أين دخل الرسول مكة؟ : أمّا الرسول القائد ﷺ فالمرجح (حسب سياق المؤرخين) أنه دخل مكة من الناحية التي دخل منها أبو عبيدة بن الجراح، بدليل أن ابن إسحاق ذكر أنّ أبا عبيدة كان ينصبُّ بالصف من المسلمين لمكة بين يدي رسول الله ﷺ<sup>(٣)</sup> وهذا يعني أن الرسول ﷺ دخل مكة من ناحيتها الشمالية الغربية واتجه على خطٍ مستقيم وبين يديه أبو عبيدة حتى وصل ناحية الحجون، ومن هناك انحدر جنوباً نحو المسجد، بعد أن استراح ناحية الحجون في قُبّة ضُربت له هناك<sup>(٤)</sup>.

وبالرغم من أن الرسول ﷺ قد قسم الجيش إلى خمس فرق عند دخوله، فقد ظل الجيش على تعبئته الأساسية، حيث دخلت القبائل مكة على راياتها وتحت قيادات ضباطها حسب التنظيمات والتعبئات التي أجراها الرسول ﷺ في قُدَيْد، وعلى النحو الذي فصلناه فيما مضى من هذا الكتاب.

وبعد أن قسّم الرسول ﷺ جيشه في ذي طوى وعرف كلُّ قائد من القادة الأربعة المكلفة فرقهم بالسيطرة على مكة، الجهة التي عليه أن يدخل مكة منها، وقفت مختلف فرق الجيش على أهبة الاستعداد في ذي طوى لاقتحام مكة.

أبي بكر الصديق، شهد صفين مع أمير المؤمنين على ولما انفرد معاوية بالأمر وبايعه المسلمون عام الجماعة وقدم قيس على معاوية ذكره بمواقفه مع علي في صفين فأغلظ لمعاوية وكرر ثباته على تأييده لعلي، فاحتمل ذلك منه معاوية وأكرمه توفي قيس في أواخر خلافة معاوية بالمدينة.

(١) الرسول القائد (خريطة فتح مكة أجزاء ص ١٣٣).

(٢) البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٦٥.

(٣) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٤٩.

(٤) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٤٩.

الأوامر المشددة بعدم استخدام السلاح في مكة عند دخولها: وقد أصدر الرسول القائد ﷺ إلى قادة جيشه الأوامر المشددة بان لا يستخدموا السلاح في مكة ولا يقاتلوا إلا من اعترض سبيلهم وقاتلهم، فقال: لا تقاتلوا إلا من قاتلكم<sup>(١)</sup>.

وقد نفذ قادة القطاعات في الجيش أوامر الرسول القائد فلم يحدث منها أي قتال عند دخولها مكة، ما عدا القطاعات التي يقودها خالد بن الوليد وهي أهم القطاعات من الناحية الحربية حيث كان كلُّها من الفرسان وسلاح الفرسان هو من أهم ما تعتمد عليه الجيوش في ذلك العصر.

ففي المنطقة التي كلف سلاح الفرسان بقيادة خالد بن الوليد باحتلالها حدث (فقط) القتال حيث قاوم قلة من القرشيين بمساندة البكرين جيرانهم، والذين كانوا سبباً في نقض صلح الحديبية، ثم في قيام الرسول ﷺ بهذا الغزو الشامل.

العرض العسكري في ذي طوى: بعد أن أعطى الرسول القائد ﷺ الأوامر إلى قادة الفرق الأربع المكلفة باحتلال مكة، وتحريرها قامت قطعات الجيش النبوي باستعراض في المنطقة التي فيها تجتمع الجيش وهي سهل يقع في الناحية الشمالية الغربية خارج أبنية مكة إزاء الحجون والخندمة.

فقد ذكر المؤرخون أن الرسول لما أكمل جيشه الاستعداد لدخول مكة اغتسل ثم دعا براحلته القصوى فادنيت له على باب قبته، ودعا لبس السلاح والمغفر على رأسه وقد صف له الناس والحليل تمعج<sup>(٢)</sup> بين الحجون والخندمة.

وقد شهد أهل مكة بأم أعينهم تجمع الجيش النبوي وهو يتهيأ للانطلاق، كل فرقة نحو المنطقة التي حددت لها من مكة، وقد رأى أهل مكة هذا الحشد والاستعراض والاستعداد والتنظيم من رءوس الجبال.

فقد ذكر ابن هشام هذا المشهد الرائع للجيش النبوي (كما وصفه شاهد عيان من قمة جبل أبي قبيس) فقال: (لما وقف رسول الله ﷺ بذي طوى) قال أبو قحافة (والد أبي بكر الصديق لابنة من أصغر بناته<sup>(٣)</sup>)، أي بنيت، اظهري بي على أي قبيس، قالت وقد (كف بصره) قالت فأشرفت به عليه، فقال أي بنيت ماذا ترين؟

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٠٧.

(٢) معج، أي أسرع.

(٣) قال الواقدي: واسمها قرية (بضم القاف).

قالت : أرى سوادًا مجتمعًا قال: تلك الخيل، قالت: وأرى رجلا يسعى بين يدي ذلك مقبلا ومدبرًا، قال: أي بنية، ذلك الوازع<sup>(١)</sup> يعني الذي يأمر الخيل ويتقدم إليها، ثم قالت: قد والله انتشر السواد، قالت: فقال، قد والله دفعت الخيل، فأسرعي بي إلى بيتي، فأسرعت به، وتلقاه الخيل قبل أن يصل إلى بيته<sup>(٢)</sup>.

وذكر الواقدي أن الفتاة قريبة بنت أبي قحافة كانت ترعب من الخوف، فقال لها أبوها - حين رأى ما بها من الخوف - : يا بُنية لا تخافي، فو الله إن أخاك عتيقًا (يعني أبا بكر) لأثر أصحاب محمد عند محمد<sup>(٣)</sup>.

اعتدال ميزان التاريخ: أكمل الرسول ﷺ في ذي طوى تهيئة جيشه للانطلاق الأخيرة التي بها تصبح المدينة المقدسة، مكة المكرمة محررة تمامًا من دنس الشرك ورجس الوثنية، وأخذت آلاف الخيل وكأنها ترقص تضرب الأرض بجوافرها تتمايل وتنازع راكبيها الأعتة تريد الانطلاق.

ووقفت جميع الفرق الأربع على أهبة الاستعداد، كل فرقة قد انحازت في ميدان الحشد الأخير بذي طوى، وقائد كل فرقة يتجول بحصانه أمام صفوفها يلقي عليها الأوامر بالتزام النظام والانضباط في انتظار إشارة الهجوم من الرسول القائد ﷺ.

وفي تلك اللحظات الحاسمة اعتدل ميزان التاريخ وحقق الله لعباده الصابرين المؤمنين الوعد الذي وعدهم به ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ زُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾<sup>(٤)</sup>.

وتهيأت مكة الحبيبة وكادت جبالها تزحف (فرحًا) لاستقبال ابنها الأمير البار الصابر المحتسب، وجيشه الباسل المظفر المؤمن ليخلصها من رجس الوثنية وانحطاط الجاهلية، وجيشه الباسل المظفر المؤمن ليخلصها من رجس الوثنية وانحطاط الجاهلية، ويعيد إلى

(١) الوازع هنا: هو الذي ينظم الجيش ويضبط صفوفه فكانه يكفه عن التفرق والانتشار الفوضوي استعدادًا للانطلاق بعد الأمر من القائد.

(٢) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٤٨.

(٣) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٨٢٤.

(٤) الفتح ٢٧.

ربوعها أشعة أنوار دين إبراهيم عليه السلام، ليضيء معالمها التي عاشت آلافًا من السنين في ظلمات من الشرك والجهل والتخلف، حالكة وأخذ التاريخ يسجل (في زهو) تلك المفارقة العجيبة الرائعة، التي تتجسد فيها أعظم العظات والعبر، وتستقطب الفكر كله للدرس والتأمل والنظر.

هكذا تكون ثمار الثبات على العقيدة: إن ما شهدته مكة في صباح ذلك اليوم التاريخي الأغر من مفارقات عجيبة رائعة، إنما هو إحدى ثمار الثبات على العقيدة السليمة الدافعة التي تفتت (متمثلة في حاملها الثابت عليها) كل شيء يعترض سبيلها حتى ولو كان الجبال الراسيات.

وأية مفارقة أروع وأعظم مما كتبه التاريخ في ذلك اليوم الأغر، من قصة كفاح هذا الرجل العظيم محمد بن عبد الله الهاشمي، الذي كان ولسبع سنوات فقط، أهون على قومه في مكة، من أي شيء لديهم.

أجمعوا على قتله وهو بين ظهرانهم بمكة، وهم يعرفون كلهم، أنه أبر واشرف وأطهر وأنبل من عرفته بطحاؤهم منذ كانت هذه البطحاء.

أجمعوا مع ذلك على التخلص منه بالقتل جزاء سعيه المخلص لإنقاذهم من برائن الشرك المهلكة، فأحاطوا بمنزله لينفذوا فيه جريمة القتل التي أجمعوا على تنفيذها في برلمانهم العشائري (دار الندوة)، انتصارًا للباطل ومعاندة للحق.

وعندما نجاه الله من شرهم، واكتشفوا فشل مؤامرتهم الدنيئة صبيحة تلك الليلة الليلية حين لم يجدوا محمدًا في فراشه بمنزله كما توقعوا أن يجده لتمزقه سيوفهم، أهدروا دمه، وحرّضوا على سفكه وأغروا كل سكان مكة والمناطق المجاورة لها، بأن خصصوا أعظم مكافأة من أعز ما يتوق العربي إلى امتلاكه من مال (مائة ناقة) لمن يعيد إليهم محمدًا ﷺ حيًّا أو ميتًا، ولكنهم فشلوا فشلًا كاملاً إذ نجي الله رسوله ﷺ من مكرهم: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينِ﴾ (١).

اليوم الذي فتحت فيه مكة : أية مفارقة رائعة عظيمة تلك التي تغطي التاريخ في عليائه ليسجلها صبيحة ذلك اليوم التاريخي الخالد المشهود يوم الفتح الأعظم (يوم الاثنين لعشر بقين من شهر رمضان المبارك عام ثمان للهجرة ) (١)، قصة محمد بن عبد الله الذي خرجت مكة كلها، قبل سبع سنوات فقط تبحث عنه في مطاردة جنونية مسعورة، وكل فرد من المطاردين يمينى نفسه بقتل هذا الرجل أو إلقاء القبض عليه حياً ليلقي به مكتوفاً بين أيدي زبانية دار الندوة، فيحصل على المكافأة الضخمة التي سال لها لعاب كل إنسان في مكة يومها، والتي خصصتها خزينة برلمان الشرك لمن يمنح محمداً من الهجرة إلى المدينة، بأية وسيلة كانت، القتل أو الاعتقال، كأن محمداً قد ارتكب أعظم جناية تبيح دمه، نعم إنها في نظر الجاهلين المشركين من قومه، جناية.

مع أنها في واقعها، كانت أعظم عملية إنفاذ حاول إنسان القيام بها لإخراجهم من ظلام الشرك إلى نور التوحيد، ومن ضيق الجهل إلى سعة العلم والمعرفة، ومن استعباد الوجدان والفكر إلى حرية الضمير والتفكير، ومن عبادة المخلوق إلى عبادة الخالق.

آية موعظة وعبرة ، وأي عجب أعجب من تلك المفارقة التي سجلها التاريخ ضمن قصة كفاح ذلك الإنسان الكامل ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم ، الذي تذكر مكة ولا تنسى (وهي تقف اليوم يرفج كبار مجرميها تحت رحمة عشرة آلاف محارب، يقودهم هذا الرجل الذي أراد أهل مكة أن يجعلوا منه طريداً لا عودة له) تذكر مكة ولا تنسى أن هذا الرجل إياه خرج منها وحيداً خائفاً يترقب، يترصده الموت في كل مكان ليس معه من البشر من يشاركه تلك الأخطار سوى رجل واحد هو صاحبه الأكبر أبو بكر الصديق.

وها هو اليوم يعود إلى مكة الحبيبة مرفوع الرأس وضاح الجبين، قد أحاطه الله بالعزة والمنعة وألبسه رداء السيادة ووضع في يده مقابض كل القيادة، قد أحاط به بحر يموج بالآلاف الفرسان والآلاف المشاة من جنود الله، كلهم يفديه بمهجته.

حقاً إنه لأمر عجيب، ومفارقة أعجب، والمفارقة الرائعة (التي منها يستمد العاقل المتبصر العبر والمواعظ) تتجسد في أن هذه البلدة (مكة) التي خرج كل أهلها لمطاردة محمد بقصد الفتك به، يستقبلهم اليوم أهلها (أولئك أنفسهم) في ذل وانكسار، وأيدي كبار مجرميها تتحسس رءوسهم خوفاً من أن تفصلها عن كواهلهم سيوف الرجل الطريد بالأمس والفتاح العزيز المنتصر اليوم.

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٨٦، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢١٠.

إنهم لم يتركوا وسيلة للقضاء عليه والتخلص منه ومن دعوته إلاً واتبعوها غير متحرجين، ولكن ها هم اليوم قد أصبح مصيرهم جميعاً في يده بعد أن ألقوا السلاح وأعلنوا الاستسلام لجيوشه لعجزهم (فقط) عن مقاومتها، ولو قدروا على مقاومتها لفعلوا، ولكن ماذا فعل بهم عندما انتصر عليهم وسيطرت جيوشه على مكة؟

لاشيء، إلا العفو الشامل عند المقدرة الكاملة، خُلق لا يتحلى به إلا أولو العزم من الرسل الذين صفت نفوسهم وطهرت، فلم يوجد فيها مكان لحقد أو ضغينة.

كيف دخل الجيش النبوي مكة: كان المخطط الذي وضعه الرسول القائد ﷺ لجيشه للاستيلاء على المدينة المقدسة يقضي بأن تنعم هذه المدينة بالأمن والسلام، وأن لا يشعر أهلها بأي ترويع في النفس أو الأهل أو المال أو الولد.

ومن أجل تحقيق هذا الهدف النبيل أصدر الرسول القائد ﷺ إلى كافة القطعات في جيشه أوامره بأن لا يستخدموا السلاح عند دخولهم مكة إلا ضد الذي يشهره في وجوههم، أي أن الرسول ﷺ أمر الجيش بالامتناع عن القتال داخل مكة إلاً في حالة الدفاع عن النفس.

نظام منع التجول في مكة: ومن جهة أخرى، ولكي تتجنب المدينة المقدسة أي صدام دام الذي قد يثيره أصحاب العواطف العمياء من القرشيين، فرض الرسول القائد ﷺ - بالاتفاق مع سيد قريش أبي سفيان بن حرب - نظام منع التجول وحظر حمل السلاح على جميع سكان مكة، عندما يشرع الجيش النبوي في السيطرة عليها حتى ينتهي من تحريرها.

وقد التزم أهل مكة، بنظام منع التجول، فالتزموا منازلهم، أو المسجد أو دار أبي سفيان استجابة لنداء زعيمهم وقائدهم أبي سفيان، كما ألقوا بأسلحتهم خارج بيوتهم كعلامة على الاستسلام.

وبسبب تنفيذ أهل مكة لنظام منع التجول خلت الشوارع والطرق والميادين العامة من المارة، وأرهف القرشيون أسماعهم في انتظار الحدّث العظيم، وخيم الصمت على العاصمة المقدّسة، وتلاحقت ضربات القلب في الصدور الخائفة، صدور سادات مكة الذين صارت قلوبهم تركض بين جنوبهم، وكأنها تكاد تقفز من الصدور جزعاً، وهم يستعرضون ماضيهم الأسود، وكأنه شريط يقوم التاريخ بعرضه أمامهم ليروا فيه ذلك

الماضي الزاخر بجرائم العسف والظلم والبغي والاضطهاد التي ارتكبوها في حق ابن مكة الأمين النبيل البار، والقلة من أصحابه البررة يوم أن كانوا عزلاً من السلاح يدعونهم بالحكمة و الموعدة الحسنة إلى ما فيه إنقاذهم، يدعونهم إلى عبادة الله وحده ونبذ عبادة ما سواه من الأنداد.

الساعة الحاسمة في تاريخ مكة : ودنت الساعة الحاسمة وحُبس عقربها على الصفر، حين بدأ الجيش النبوي بفرقه الأربع يتحرك من ذي طوى للسيطرة على المدينة المقدسة. فقد تحرك قائد كل فرقة بفرقته في اتجاه الناحية التي كلفه الرسول والقائد الأعلى للجيش أن يدخل منها العاصمة.

خالد بن الوليد تحرك ليدخل مكة من جنوبها، «محلة المسفلة اليوم».

الزبير بن العوام تحرك رتلته ليدخلها من الشمال وقد أمره الرسول أن يتوقف بفرقته ويركز رايته عند الحجون.

أبو عبيدة بن الجراح تحرك بفرقته وكلهم من المشاة ليدخل العاصمة من شمالها الغربي.

قيس بن سعد بن عبادة اندفع رتلته ليدخل المدينة من غربها الجنوبي.

أما الرسول والقائد الأعلى للجيش فقد تحرك بهيئة أركان حربه من كبار المهاجرين والأنصار وزعماء القبائل ليدخل مكة من ناحية كدا (شمال غربي مكة) حيث كان قائد الفرقة الثالثة أبو عبيدة يتحرك أمامه بفرقته المشاة في الأبطح نحو الحجون.

منطقة القتال الوحيدة بمكة : وقد سيطر كلُّ قائد من القادة الأربعة على الناحية المكلف بالسيطرة عليها دونما أية مقاومة اللهم إلا ما حدث في الناحية التي دخل منها فرسان خالد بن الوليد ناحية الخندمة حيث لقي بعض المقاومة فسحقها في الحال.

فقد تجمع جنوبي مكة جماعة من القرشيين على رأسهم صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل، قرروا الصمود في وجه خالد بن الوليد الذي كان يقود أهم قطعات الجيش النبوي وهم الفرسان، يساند القرشيين في المقاومة هذه لفيف من قبيلة بكر وهذيل، وقد اختاروا للمقاومة مضيّقاً سيطروا عليه من مرتفعات تشرف عليه، وهو الطريق الرئيسي الذي ستمر به قطعات الفرسان بقيادة خالد بن الوليد.



خالد ينذر المقاومين ثم يسحقهم: فعندما وصلت قوات خالد بن الوليد على ذلك المضيق (الخندمة) وجدت في انتظارها (وعلى أهبة الاستعداد) أولئك نفر من قريش وبكر وهذيل الذين لم يمهلوا طلائع قوات خالد حتى أمطروها من المرتفعات ومن خلف الصخور بوابل من سهامهم.

وعندما أمر خالد قطعاته بالتوقف لعله يقنع المهاجمين لإلقاء السلاح والانصراف إلى منازلهم، فقد نادى خالد سهيل بن عمرو، وصفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل - وقد عرف أنهم قادة هذه المقاومة - وأبلغهم بأن لديه الأوامر من القائد الأعلى لجيش الرسول الأعظم ﷺ بالامتناع عن استخدام السلاح ضد أي إنسان إلا من شهره وقاتل، وأنه إذ ينذرهم بسحق مقاومتهم يمنحهم الفرصة الكافية ليكفوا عن القتال، ويلقوا بأسلحتهم وينصرفوا سالمين بمن معهم كل إلى منزله.

ولكن قادة هذه المقاومة كان جوابهم على إنذار خالد بأنهم قد أقسموا أن يقاتلوا، ولا يتركوا محمداً يدخل مكة عنوة، واستمر المقاومون في هجومهم على خالد ورجاله بالنبل.

وهنا اضطر خالد إلى استخدام السلاح ضدهم فأصدر أمره إلى قواته بالهجوم عليهم، ففعلوا وما هي إلا لحظات قليلة حتى مزقت فرقة خالد تلك المقاومة وسحقها، حيث انهزم القوم شر هزيمة، وفروا في كل ناحية، بعد أن تركوا وراءهم ثمانية وعشرين قتيلاً، من بينهم أربعة من هذيل، ولم يفقد خالد في هذه المعركة القصيرة أحداً من رجاله، اللهم إلا رجلين لم يقتلا في المعركة، وإنما قتلا على أيدي أعراب من بني بكر، بعد أن ضلا طريقهما، وهؤلاء الذين استشهدا هما: كرز بن جابر أحد بني محارب بن فهر، وحنيش بن خالد بن ربيعة بن أصرم حليف بني منقذ<sup>(١)</sup>.

وقد روى الواقدي والطبراني تفاصيل هذه المعركة الجزئية القصيرة التي اضطر القائد خالد إلى خوضها جنوبي مكة، فقال الواقدي: فلما دخل خالد بن الوليد وجد جمعاً من قريش وأحابيشها<sup>(٢)</sup> قد جمعوا له، فيهم صفوان بن أمية، وعكرة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو، فمنعوه الدخول، وشهروا السلاح، ورموا بالنبل، وقالوا: لا تدخلها عنوة أبداً فصاح خالد بن الوليد في أصحابه وقاتلهم، فقتل منهم أربعة وعشرين رجلاً من قريش،

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٩٦.

(٢) الأحابيش هم أخلاط من العرب دخلوا في قريش وليسوا منها.

وأربعة من هذيل، وانهمزوا أقبح الانهزام قتلوا بالحرورة<sup>(١)</sup> وهم مولون في كل وجه، وانطلقت طائفة منهم فوق رءوس الجبال، واتبعهم المسلمون، (فتدخل أبو سفیان بن حرب) فجعل هو، وحكيم بن حزام يصيحان، يا معشر قريش، علام تقتلون أنفسكم؟ من دخل داره فهو آمن ومن وضع السلاح فهو آمن، فجعل الناس يقتحمون الدُّور، ويغلقون عليهم، ويطرحون السلاح في الطرق حتى يأخذه المسلمون.

الرسول يستنكر القتال ويأمر بإيقافه: ثم قال الواقدي: لما ظهر الرسول ﷺ على ثنية أذاخر، نظر إلى البارقة (بارقة السيوف) فقال: ما هذه البارقة، ألم أنه عن القتل؟ قيل يا رسول الله، خالد بن الوليد قوتل، ولو لم يقاتل ما قاتل، فقال رسول الله ﷺ قضى الله خيراً<sup>(٢)</sup>.

هل كان قتلى معركة الخندمة سبعين؟ وذكر الطبراني أن قتلى معركة الخندمة من المشركين في مكة كانوا سبعين، فقد قال الطبري: حدثنا علي بن سعيد الرازي، حدثنا أبو حسان الذايبي، حدثنا شعيب بن صفوان عن عطاء بن سالم عن طاوس عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال: إن الله حرم هذا البلد (أي مكة) يوم خلق السموات والأرض وصاغه يوم صاغ الشمس والقمر وما حياله من السماء حرام، وإنه لا يحل لأحد قبلي وإنما حل لي ساعة من نهار ثم عاد كما كان<sup>(٣)</sup>. قيل: هذا خالد يقتل؟ فقال ﷺ: «قم يا فلان فأت خالد بن الوليد فقل له فليرفع يديه من القتل» فأتاه الرجل فقال: إن النبي ﷺ يقول، اقتل من قدرت عليه فقتل سبعين إنساناً، فأتى النبي فذكر ذلك له، فأرسل إلى خالد فقال: ألم أنك عن القتل؟ فقال جاءني فلان، فأمرني أن أقتل من قدرت عليه، فأرسل إليه: (ألم أمرك؟) قال: أردت (يا رسول الله) أمراً وأراد الله أمراً، فكان أمر الله فوق أمرك وما استطعت إلا الذي كان، فسكت عنه النبي ﷺ فما رد عليه شيئاً<sup>(٤)</sup>.

(١) قال ياقوت في معجمه ج ٣ ص ٣٧١ الحرورة (بفتح الحاء وسكون الراء) سوق مكة وقد دخلت في المسجد لما زيد فيه.

(٢) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٨٢٦.

(٣) وقد فسر ابن برهان الدين بأن هذه الساعة التي أحل فيها الله القتال لبني خزاعة على بني بكر المشركين الذين غدروا بهم وتسببوا في غزو مكة فقال: قال رسول الله ﷺ كفوا السلاح إلا خزاعة عن بني بكر إلى صلاة العصر،

وهي الساعة التي أحلت لرسول الله ﷺ أه السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٠٩.

(٤) البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٩٧.

النبي يستجوب خالد بن الوليد : وفي بعض المصادر أن رجلاً من قريش جاء إلى الرسول ﷺ - محتجاً على تصرف خالد - فقال : يا رسول الله هلكت قريش، لا قريش بعد اليوم، قال: ولم؟ قال: هذا خالد بن الوليد لا يلقي أحداً من الناس إلا قتلته، فاستدعى رسول الله ﷺ خالدًا واستجوبه قائلاً موجهاً اللوم عليه: لم قاتلت وقد نهيت عن القتال؟ قال: هم يا رسول الله بدأونا بالقتال، ورمونا بالنبل ووضعوا فينا السلاح، وقد كففت ما استطعت ودعوتهم إلى الإسلام فأبوا حتى إذا لم أجد بداً من أن أقاتلهم، فظفرنا الله بهم، فهربوا من كل وجه<sup>(١)</sup>.

قصة ابن حماس الديلي الطريفة: وكان رجل من بني الدليل، يقال له حماس بن قيس ابن خالد الديلي، لما سمع برسول الله ﷺ جلس يصلح سلاحه، فقالت له امرأته لمن تعد هذا؟ قال: لمحمد وأصحابه، فإني أرجو أن أخدمك منهم خادماً فإنك إليه محتاجة، قالت (ناصحة بأن لا يقاتل): ويحك لا تفعل ولا تقاتل محمداً، والله ليضلن هذا عنك لو رأيت محمداً وأصحابه، قال: سترين<sup>(٢)</sup>.

وقد اشترك حماس بن قيس فعلاً في القتال ضد خالد بن الوليد إلى جانب المقاومين في الخدمة، ولكنه عاد إلى منزله وهو يرتعد من الخوف فسخرت منه امرأته قائلة: أين الخادمة؟

قالوا، وأقبل حماس بن خالد منهزماً حتى أتى بيته فدقه ففتحت امرأته فدخل، وقد ذهبت روحه، فقالت: أين الخادم الذي وعدتني؟ مازلت منتظرتك منذ اليوم، تسخر به. قال: دعني عنك أغلقني بابي فإنه من أغلق بابي فهو آمن، قالت: ويحك ألم أنهك عن مقاومة محمد؟ قلت: «ما رأيته يقاتلكم مرة إلا ظهر عليكم» وما بابنا؟ قال: إنه لا يفتح على أحد بابي. ثم قال شعراً.

وأنت لو شهدتنا بالخدمة	إذ فر صفوان وفر عكرمة
وأبو يزيد كالعجوز المؤتمة <sup>(٣)</sup>	إذ يلحقونا بالسيوف المسلمة
يَقْطَعْنَ كُلُّ سَاعِدٍ وَجَمِجِمَةٍ	ضرباً فلا يُسمع إلا غمغمة
لهم زئير خلفنا وهممة	لم تنطق في اللوم أدنى كلمة

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٠٩.

(٢) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٢٨٣.

(٣) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٥٠ ومغازي الواقدي ج ٢ ص ٨٢٧ والبداية والنهاية ج ٤ ص ٢٩٧.

وهكذا فالناحية الوحيدة التي حدث فيها اشتباك دام هي الناحية الجنوبية من مكة، والتي منها دخل القائد خالد بن الوليد الذي اضطر إلى القتال. النفر الذين أهدر الرسول دمهم ولو تعلقوا بأستار الكعبة: وكان الرسول ﷺ قد استثنى نفراً عشرة عندما حرم على جيشه القتال في مكة، وأمر بقتل هؤلاء العشرة حتى وإن تعلقوا بأستار الكعبة، وهم لجنايات ارتكبوها استحقوا بها القتل. عكرمة بن أبي جهل.

عبد الله بن خطل.

ومقيس بن صبابه.

وعبد الله بن سعد بن أبي سرح.

هبار بن الأسود.

الحويرث بن نقيذ.

هند بنت عتبة بن ربيعة.

سارة مولاة بني هاشم.

فرنثا: قينة لعبد الله بن خطل.

أرنبة: قينة أيضاً لعبد الله بن خطل.

وقد عفا الرسول ﷺ عن أكثر هؤلاء فلم يقتل منهم إلا القليل، وهم الذين قتلهم الجيش يوم دخوله مكة قبل أن يتمكنوا من تقديم طلب إلى الرسول ﷺ بأن يعفو عنهم. الذين أعدمهم الجيش بمكة: والذين تم إعدامهم بمكة يوم الفتح هم ثلاثة رجال فقط وهم:

١- عبد الله بن خطل، وهو من بني تيم بن غالب؛ وسبب هدر دمه ثم إعدامه أنه كان قد أسلم، ثم قتل رجلاً مسلماً، ثم ارتد عن الإسلام - فقد ذكر ابن إسحاق أن عبد الله بن خطل هذا - بعد أن أسلم - بعثه رسول الله ﷺ مصداً (أي يجمع الزكاة)، وبعث معه رجلاً من الأنصار، وكان معه مولى له يخدمه، وكان مسلماً فنزل منزلاً وأمر المولى أن يذبح له تيساً، فيصنع له طعاماً، فنام، فاستيقظ ولم يصنع له شيئاً فعدا عليه فقتله ثم ارتد مشركاً<sup>(١)</sup>.

(١) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٥٢.

وهكذا فإن إعدام عبد الله بن خطل إنما كان قصاصاً، ولأنه أيضاً مرتد، والمرتبد يقضي قانون الإسلام بإعدامه، ثم إن عبد الله بن خطل من الذين قاوموا الجيش النبوي يوم دخوله مكة.

مقتل ابن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة: أما كيفية مقتل عبد الله بن خطل، فقد قتل وهو متعلق بأستار الكعبة<sup>(١)</sup> اشترك في قتله سعيد بن حريث المخزومي<sup>(٢)</sup> وأبو برزة الأسلمي<sup>(٣)</sup> اشترك الاثنان في دمه<sup>(٤)</sup>.

وكان عبد الله بن خطل، قد خرج على فرس له ليشارك في مقاومة قطعات خالد بن الوليد في الخندمة، ولكنه انهزم مع المنهزمين.

فقد جاء في كتب السيرة أن ابن خطل هذا أقبل جائئاً من مكة مدججاً في الحديد على فرس ذنوب<sup>(٥)</sup>، بيده قناة. وبنات سعيد بن العاص قد ذكر هن أن رسول الله ﷺ قد دخل، فخرجن قد نشرن شعورهن يضربن بخمرهن وجوه الخيل، فضربهن ابن خطل جائئاً من أعلى مكة، فقال هن: أما والله لا يدخلها محمد حتى ترين ضرباً كأفواه المزداد، ثم خرج حتى انتهى إلى الخندمة، فرأى خيل المسلمين ورأى القتال، ودخله الرعب حتى ما يستمسك من الرعدة، حتى انتهى إلى الكعبة فنزل عن فرسه، وطرح سلاحه، فأتى البيت فدخل بين أستاره<sup>(٦)</sup>.

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٩٩.

(٢) هو سعيد بن حريث بن عمرو بن عبد الله بن مخزوم، والمخزومي القرشي أسلم قبل الفتح، قال الواقدي كان أسن من أخيه عمرو بن حريث روى عنه ابن ماجه عن أخيه سعيد بن حريث قال: قال رسول الله ﷺ من باع عقاراً أو داراً ولم يجعل ثمنها في مثلها لم يبارك له فيه (الإصابة في تمييز الصحابة ج ٢ ص ٤٣) مات بالكوفة وقيل قتل بالحرّة في عهد يزيد بن معاوية، قاله ابن عبد البر.

(٣) أبو برزة الأسلمي: اسمه نضلة بن عبيد الله بن الحرث، من السابقين في الإسلام شهد فتح خيبر وما بعدها وساهم في الفتوحات في عهد الخلفاء الراشدين، غزا خراسان - وكان ممن شهد قتال الخوارج مع علي، وشارك في قتالهم مع المهلب في الأهواز في عهد عبد الملك، توفي بخراسان سنة أربع وستين وله من العمر حوالي السبعين سنة.

(٤) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٥٣.

(٥) قال في الصحاح: الفرس الذنوب (بفتح الدال) الطويل الذنب.

(٦) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٨٢٧.

٢- الحويرث بن نقيذ بن وهب بن عبد قصي : وقد قتله علي بن أبي طالب، وهو يحاول الهرب من مكة يوم تحريرها فقد قال الواقدي: وأما الحويرث بن نقيذ فإنه كان يؤذي النبي ﷺ فأهدر دمه، فبينما هو في منزله يوم الفتح قد أغلق بابه عليه وأقبل على عليه السلام يسأل عنه، فقيل هو في البادية، فأخبر الحويرث أنه يطلب، وتنحى علي عن بابه، فخرج الحويرث يريد أن يهرب إلى بيت آخر، فتلقاه علي فضرب عنقه (١).

ولم أر فيما بين يدي من مصادر، إيضاحاً لسبب إهدار دم الحويرث إلا أنه كان ممن يؤذي رسول الله ﷺ وأنه نخس الجمل الذي يحمل فاطمة وأم كلثوم ابنتي رسول الله ﷺ فرماهما أرضاً وهما في طريقهما إلى المدينة مهاجرتين (٢) وأعتقد أن إهدار دمه كان لغير هذه الأسباب فالرسول ﷺ لا ينتقم لنفسه، أما إيذاء الرسول ﷺ فقد كان كل مشركي مكة يؤذونه عندما كان مقيماً بينهم، ولا شك أن هناك جرماً ارتكبه الحويرث استحق به القتل، مثل عبد الله بن خطل ومقيس بن صبابة اللذين أهدما في مكة قصاصاً، والله أعلم.

#### مقتل مقيس بن صبابة:

مقيس بن صبابة، فقد نفذ فيه ابن عمه حكم الإعدام بين الصفا والمروة. وقد نفذ حكم الإعدام في مقيس قصاصاً لأنه قتل رجلاً من المسلمين ثم ارتد، فقد ذكر ابن إسحاق أن مقيس بن صبابة كان أخوه هشام (كان مسلماً) قد قتله رجل من الأنصار خطأ، حين ظنه من المشركين وذلك في غزوة بني المصطلق، فأمر الرسول ﷺ بأن تدفع إلى مقيس دية أخيه هشام (وكان مقيس قد قدم المدينة) فلما أخذ الدية عدا على الأنصاري فقتله، ثم هرب إلى مكة مشركاً.

العفو عن بقية المهذور دمهم : أما السبعة الباقون من رجال ونساء، فقد شملهم الرسول بعفوه وذكر بعضهم أن القينة فرنثى قتلت يوم الفتح، ولكن السهيلي عقب علي ذلك وقال: إنها أسلمت، فعفى عنها الرسول ﷺ، وبهذا يكون الذين أهدموا يوم الفتح - مستثنين من العفو العام الذي أعطاه الرسول ﷺ أهل مكة - ثلاثة رجال فقط، قتلوا لجرائم استحقوا لها القتل.

(١) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٨٥٧.

(٢) مغازي الواقدي ج ٤ ص ٥٢.

وسياتي فيما يلي من هذا الكتاب (إن شاء الله) تفصيل قصص العفو عن هؤلاء ودخولهم في الإسلام وخاصة صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل اللذين أعز الله الإسلام بهما فيما بعد.

الرسول القائد يعسكر عند الحجون : كانت مكة (كما قلنا فيما مضى) هادئة عندما دخل الجيش النبوي بفرقه الأربع، باستثناء الناحية الجنوبية التي لقي فيها خالد بن الوليد بعض المقاومة فسحقها في الحال.

أما بقية المناطق فلم يحدث فيها أي قتال، حيث سيطر عليها القادة الثلاثة دون أن يعترضهم أحد وهؤلاء القادة هم: الزبير بن العوام ، وقيس بن سعد بن عبادة، وأبو عبيدة بن الجراح.

غير أن الهدوء التام شمل جميع أنحاء مكة عقب سحق خالد بن الوليد قوات المقاومة القرشية في الخندمة، حيث ألقى المقاومون السلاح واعتصموا بمنزلهم، أو المسجد، أو منزل أبي سفيان بن حرب، مستفيدين من المرسوم النبوي، الذي يعطي الأمان المطلق لكل من أغلق بابه أو التجأ إلى المسجد أو اعتصم بدار أبي سفيان، وبهذا استمر منع التجول في مكة نافذ المفعول. حتى سيطر الجيش النبوي على مكة سيطرة تامة، بعدها أخذ أهل مكة يفدون إلى المسجد ليسمعوا القرار النبوي النهائي بشأن مصيرهم كأمة مغلوبة.

التقاء الرسول بقائد الفرقة الثانية: في الوقت الذي اندفعت فيه الفرق الأربع من ذي طوى، لتسيطر كل فرقة على الناحية المكلفة بالسيطرة عليها، كان الرسول والقائد الأعلى للجيش ﷺ قد تحرك أيضاً في هيئة أركان حربه من كبار المهاجرين والأنصار تحيط به ألفا مقاتل وكان من بين الذين كان عن جانبيه وهو يدخل مكة، الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن الفزاري بصفتها من أكبر زعماء القبائل العربية، مع أن أحداً من قبائل غطفان (قوم عيينة) وقبائل تميم (قوم الأقرع) لم يشترك في تحرير مكة، ما عدا عشرة من بني تميم.

وقد استمر الرسول ﷺ في تحركه يتقدم من شمال مكة الغربي حتى توقف عند الحجون، حيث وجد قائد الفرقة الثانية الزبير بن العوام قد سبقه بجنوده وركز رايته عند الحجون كما هي أوامر الرسول القائد ﷺ<sup>(١)</sup>.

(١) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٨٢٨.

قال البخاري : حدثنا القاسم بن خارجة، حدثنا حفص بن ميسرة عن هشام بن عروة عن أبيه أن عائشة أخبرته أن رسول الله ﷺ دخل عام الفتح من كداء التي بأعلى مكة، قال ابن كثير: تابعه أبو أسامة ووهب في كداء، حدثنا عبيد بن إسماعيل حدثنا أبو أسامة عن هشام عن أبيه قال: دخل رسول الله ﷺ عام الفتح من أعلى مكة من كداء، وهو أصح، إن أراد أن المرسل أصح من المسند المتقدم انتظم الكلام، وإلا فكداء بالمدهي المذكورة في أعلى مكة<sup>(١)</sup>، وكدى مقصور، في أسفل مكة، وهذا هو المشهور والأنسب<sup>(٢)</sup>

تواضع الرسول ﷺ لله يوم الفتح : وعندما رأى الرسول ﷺ ما من الله عليه به من الفتح العظيم أحنى رأسه وهو على ناقته القصوى حتى كاد يلامس الرحل تواضعاً لله تعالى.

قال ابن إسحاق: وقف رسول الله ﷺ معتجراً بشقة برد حبرة حمراء، وأن رسول الله ﷺ ليضع رأسه تواضعاً لله حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح، حتى أن عشونه ليكاد يمس واسطة الرحل<sup>(٣)</sup>.

الرسول يتلو سورة الفتح وهو يدخل مكة : وفي كتب الحديث أن الرسول ﷺ كان - وهو يتحرك بجيشه داخل مكة - يتلو سورة الفتح، فقد روى البخاري في صحيحه عن عبد الله بن مغفل<sup>(٤)</sup> أنه قال: رأيت رسول الله ﷺ يوم فتح مكة على ناقته وهو يقرأ سورة الفتح يرجع، وقال لولا أن يجتمع الناس حولي لرجعت كما رجعت.

الرسول يدخل مكة غير محرم : والثابت أن الرسول ﷺ دخل مكة يوم الفتح وهو غير محرم<sup>(٥)</sup>، كما أن أحداً من أصحابه لم يكن محرماً، إلا أنه ﷺ اغتسل عندما أراد دخولها<sup>(٦)</sup>

ودخل الرسول ﷺ مكة على ناقته القصواء مردفاً خلفه مولاه أسامة بن زيد وهو يقول: اللهم إن العيش عيش الآخرة<sup>(٧)</sup>.

(١) قال في معجم البلدان أن كداء (سكماء) جبل بأعلى مكة وهي الثنية التي عند المقبرة وتسمى تلك الناحية المعلاة، ودخل النبي ﷺ مكة منها وكدى (كفرى) جبل بأسفل مكة، وخرج منه النبي ﷺ (انظر القاموس وشرحه).

(٢) البداية والنهاية ج ٤ ص ٣٩٣.

(٣) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٤٨.

(٤) تقدمت ترجمة عبد الله بن مغفل فيما مضى من هذا الكتاب.

(٥) البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٩٢.

(٦) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٨٣١ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٠٩ وقال ابن برهان الدين: واستدل بذلك على

استحباب الغسل لداخل مكة حتى وإن كان غير محرم.

(٧) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٠٩.



إنما أنا ابن امرأة تأكل القديد : وعندما دخل الرسول ﷺ مكة في جيشه والفرسان حوله، لقيه رجل وأراد أن يكلمه ولكنه هببة الموكب الحربي الذي عليه النبي ﷺ خاف الرجل خوفاً شديداً، حتى أنه ليرعد من شدة الخوف، فلما رأى الرسول ﷺ ما بالرجل، وقد أدرك السبب، قال له (في تواضع ليزيل ما به من الخوف): «هون عليك فإنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد»<sup>(١)</sup>.

الرسول يدخل مكة من البطحاء : وقد دخل الرسول ﷺ مكة من البطحاء وهو وادي مكة الخالد، فقد سألت كتائب الجيش أمامه في الوادي وإلى جانبه أبو بكر الصديق. قال الواقدي: ومر رسول الله ﷺ وأبو بكر إلى جنبه يسير يحادثه، فمر بينات أبي أحيحة بالبطحاء حذاء منزل أبي أحيحة (وهو سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس) وقد نشرن رءوسهن، يلظمن الخيل بالخمير، فنظر رسول الله ﷺ إلى أبي بكر فتبسم، وذكر بيت حسان بن ثابت، فأنشدته أبو بكر:

عدمت بنيتي إن لم تروها      تثير النقع موعدها كداء  
ينازعن الأعتة مسرجات      يلظمن بالخمير النساء<sup>(٢)</sup>.

فقال رسول الله ﷺ : أدخلوها من حيث قال حسان<sup>(٣)</sup> أي من كداء، أعلى مكة، وهو المكان الذي دخل منه الرسول ﷺ.

الحجون ملتقى فرق الجيش الفاتح : ويظهر أن منطقة الحجون كانت مكاناً لتجمع الفرق التي سيطرت على مكة بدليل أن الرسول ﷺ قد أمر الزبير بن العوام قائد الفرق الثانية وهي التي سيطرت على مكة من الناحية الشمالية، قد أمره بأن يعسكر بفرقه في الحجون؛ بدليل أن الرسول ﷺ - وهو القائد الأعلى للجيش - قد ضربت له قبة في الحجون فاستراح فيها قبل أن يكمل مسيره إلى المسجد، نهاية التحرك العسكري.

كما أن التحرك الرئيسي فيا بعد نحو المسجد كان من الحجون.

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٩٣ من رواية البيهقي.

(٢) هذان بيتان من قصيدة رائعة قالها حسان بن ثابت، والجيش يتهباً لدخول مكة. ذكر القصيدة بكاملها ابن إسحاق في الجزء الرابع من السيرة ج ٤ ص ٦٥.

(٣) البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٩٤.

قال الواقدي: وأقبل الزبير بن العوام بمن معه حتى انتهى بهم إلى الحجون، فغرز الراية عند منزل رسول الله ﷺ، وعن أبي رافع أنه ضرب لرسول الله ﷺ قبة بالحجون من آدم، فأقبل رسول الله ﷺ حتى انتهى إلى القبة، ومعه أم سلمة وميمونة<sup>(١)</sup>.

ماذا قال الرسول عندما أشرف على مكة: وعندما أشرف الرسول ﷺ من مرتفع أذاخر ورأى بيوت مكة، حمد الله وأثنى عليه لما يسر له من الفتح العظيم دونما أية خسارة تذكر.

فقد روى عن جابر بن عبد الله أنه قال: كنت ممن لزم رسول الله ﷺ، فدخلت معهم يوم الفتح من أذاخر، فلما أشرف على أذاخر نظر إلى بيوت مكة، ووقف عليها فحمد الله وأثنى عليه، ونظر إلى موضع قبته فقال: هذا منزلنا يا جابر: حيث تقاسمت علينا قريش في كفرها، قال جابر: فذكرت حديثاً كنت أسمعته منه ﷺ قبل ذلك بالمدينة: «منزلنا غداً إن شاء الله إذا فتح الله علينا مكة في الخيف<sup>(٢)</sup> حين تقاسموا على الكفر» وكنا بالأبطح وجاء شعب أبي طالب حيث حصر رسول الله ﷺ وبنو هاشم ثلاث سنين<sup>(٣)</sup>.

المشركان اللذان أجارهما أم هانئ: وكان عبد الله بن أبي ربيعة والحارث بن هشام من كبار سادات المشركين، وكانا يخشيان على أنفسهما القتل بعد أن استسلمت مكة، فدخلتا على أم هانئ بنت أبي طالب فاستجارا بها، فأجارتهما، وكان على بن أبي طالب يبحث عنهما ليقتلهما، وعندما وجدتهما في بيت أخته حاول قتلهما فمنعته، ثم استصدرت عفوًا خاصًا لهما من رسول الله ﷺ.

قالوا: وكانت أم هانئ بنت أبي طالب تحت هيرة بن أبي وهب المخزومي، فلما كان يوم الفتح دخل عليها حموان لها، - عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي، والحارث بن هشام - فاستجارا بها، وقالوا: نحن في جوارك، فقالت: نعم، أنتما في جواربي، قالت أم هانئ: فهما عندي إذ دخل على فارساً مدججاً في الحديد، ولا أعرفه، فقلت له: أنا ابنة عم

(١) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٨٢٨، ٨٢٩.

(٢) قال في معجم البلدان: الخيف هو بطحاء مكة، وقيل مبتداً الأبطح، وهو الحقيقة فيه لأن أصله ما انحدر من الجبل وارتفع من المسيل.

(٣) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٠٩ ومغازي الواقدي ج ٢ ص ٨٢٨.

رسول الله ﷺ، قالت: فكشف عني وأسفر عن وجهه، فإذا هو على عليه السلام، فقلت: أخي، فاعتنقته وسلمت عليه، ونظر إليهما فشهرا السيف عليهما، قلت: أخي من بين الناس يصنع بي هذا، قالت وألقيت عليهما ثوباً، وقال: تجيرين المشركين؟ وحلت دونهما فقلت: والله لتبدأن بي قبلهما. قالت: فخرج ولم يكد، فأغلقت عليهما بيتاً، وقلت: لا تخافا.

قالت: فذهبت إلى خباء رسول الله ﷺ بالبطحاء فلم أجده، ووجدت فيه فاطمة فقلت: ماذا لقيت من ابن أمي علي؟ أجرت حموين لي من المشركين فتلفت عليهما ليقتلهما، قالت: فكانت أشد علي من زوجها، وقالت: تجيرين المشركين؟ قالت: إلى أن طلع رسول الله ﷺ وعليه رهجة الغبار<sup>(١)</sup>، فقال: مرحباً بفاختة أم هانئ، وعليه ثوب واحد، فقلت: ماذا لقيت من ابن أمي علي؟ ما كدت أنفلت منه، أجرت حموين لي من المشركين فتلفت عليهما ليقتلهما. فقال رسول الله ﷺ: ما كان ذاك، قد أمنا من أمنت وأجرنا من أجرت، ثم أمر فاطمة فسكبت له غسلًا فاغتسل ثم صلى ثمان ركعات في ثوب واحد ملتحفًا به وذلك ضحى في فتح مكة.

قالت أم هانئ: فرجعت إليهما فأخبرتتهما وقلت لهما: إن شتتما فأقيما، وإن شتتما فارجعا إلى منزليكما قالت: فأقاما عندي يومين في منزلي، ثم انصرفا إلى منازلهما قالت: فأتى آت إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، الحارث بن هشام وابن أبي ربيعة جالسا في ناديهما متفضلان<sup>(٢)</sup> في الملاء المزعفر، فقال رسول الله ﷺ: لا سبيل إليهما، قد أمناهما<sup>(٣)</sup>.

وقد استشكل ابن برهان الدين خبر محاولة علي قتل هذين الرجلين لأن الأمان قد أعطى لجميع أهل مكة، ولم يكونا ممن أهدر دمه، ولكنه أجاب في السيرة الحلبية بأنهما قد يكونان أبديا شيئاً من المقاومة، فقاتلا الجيش فطاردهما على حتى بيت أم هانئ، والله أعلم.

(١) الرهجة (بالتحريك مع فتح الراء) آثار الغبار، كذا قال في القاموس المحيط.

(٢) التفضل هنا: التوشع وهو أن يخالف اللباس بين أطراف ثوبه على عاتقه لسان العرب ج ١٤ ص ٤٤١.

(٣) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٨٣٠، ٨٣١.

فهل ترك لنا عقيل منزلاً : وعقب وصول الرسول ﷺ إلى الحجون بجيشه، قال له البعض: ألا تنزل منزلك من الشعب؟ وكان عقيل بن أبي طالب<sup>(١)</sup> قد باع منزل رسول الله ﷺ ومنزل إخوته من الرجال والنساء بمكة، فقبل لرسول الله ﷺ: فأنزل بعض بيوت مكة في غير منازلك، فأبى رسول الله ﷺ وقال: لا أدخل البيوت، فلم يزل مضطرباً (أي ضارباً خيامه) بالحجون لم يدخل بيتاً، وكان يأتي (مدة إقامته بمكة) إلى المسجد من الحجون<sup>(٢)</sup>.

التحرك الأخير نحو المسجد الحرام : وبعد أن أتمت الفرق الأربع السيطرة على العاصمة المقدسة مكة والتقى قادتها بعامه جنودهم عند الحجون حيث عسكر الرسول القائد ﷺ وجعل من منطقة الحجون مقراً لقيادته، أقام فيه طيلة بقائه بمكة حتى توجه إلى حنين<sup>(٣)</sup>: بعد ذلك تحرك الرسول القائد ﷺ من الحجون يحيط به هيئة أركان حربه وقادة الفرق الأربع التي سيطرت على العاصمة.

وقد كان موكباً مهيباً رائعاً، سال به الأبطح في اتجاه المسجد الحرام، وزاد هذا الموكب الخالد روعة ومهابة إذ دوت أصوات الجيش (وعدددهم عشرة آلاف) بالتكبير حتى ارتجت مكة كلها وخيل للناس - وخاصة المشركين الذين وقفوا يشهدون الساعات الأخيرة من عهدهم الأسود - أن الجبال تشارك المسلمين هذا التكبير، الذي لم يعل ولن يعلو بعده بإذن الله صوت في مكة على صوت التوحيد حتى يوم القيامة.

المشركون في رءوس الجبال: وكان بعض المشركين (على أثر نظام منع التجول في مكة) وعقب سحق قطعات خالد في جنوب العاصمة مقاومة المتطرفين من قريش بالخدمة) أدخلوا الشوارع واعتصموا برءوس الجبال، بعد أن ألقوا سلاحهم، فوقفوا من

(١) هو عقيل بن أبي طالب بن عبد المطلب الهاشمي ابن عم النبي ﷺ أخو علي وجعفر كان أكبر منهما سنًا، ويكنى أبا يزيد، لم يكن عقيل كأخويه من السابقين في الإسلام بل تأخر إسلامه إلى يوم الفتح حضر بدرًا مع المشركين ووقع أسيرًا يومها في أيدي المسلمين. كان عقيل عالمًا بآنساب قريش: وآثرها ومثالبها، وكان ذكيًا سريع الجواب المسكت فارق أخاه عليًا أثناء الفتنة بعد مقتل عثمان والتحق بمعاوية وحضر معه معركة صفين ومن سرعة جوابه (مع الدعاية) ما روى أن معاوية قال له يوم صفين: أنت معنا يا عقيل، فأجابه على الفور: وقد كنت معكم يوم بدر، مات عقيل في أول خلافة يزيد قبل معركة الحرة المشنومة.

(٢) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٨٢٩

(٣) انظر مغازي الواقدي ج ٢ ص ٨٢٩.

رءوس الجبال ينظرون إلى ذلك المشهد الرائع، عشرة آلاف مقاتل تتحرك وكأنها غابة مزروعة بالرماح تتحرك في ثبات وسكينة وهدوء ووقار وانضباط لم يعرف العرب له مثيلاً منذ أن أدرج اسمهم في قائمة السلالات البشرية.

الرسول يدخل وجيشه المسجد : واستمر الرسول ﷺ يحيط به جيشه الباسل كالبحر، استمر في التحرك من الحجون عبر الوادي غير ذي الزرع، متجهاً نحو الكعبة لينهي فيها آخر مظهر من مظاهر الوثنية التي استمرت تدنسها عدة آلاف من السنين. وعندما رأى الرسول ﷺ الكعبة كُبر وكبر معه المسلمون، واشتد حماس المسلمين فواصلوا تكبيرهم حتى أشار إليهم الرسول ﷺ أن اسكتوا<sup>(١)</sup>.

وكانت لحظة تاريخية أشرق عندها وجه الإنسانية في تلك اللحظة التي دخل فيها محمد بن عبد الله وأصحابه المسجد الحرام، هذا الدخول الذي به تحقق وعد الله الذي لا يخلف الميعاد.. ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّبِّيًّا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِينَ مَحْلِقِينَ رُءُوسِكُمْ وَمُقْصِرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَاهِرَهُ عَلَىٰ الَّذِينَ كَلِمَهُ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمِثْلَهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَرَعُ أُخْرَجَ شَطْرُهُ فَفَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾.

الرسول يطوف بالبيت على ناقته القصواء: وعندما دخل الرسول ﷺ وجيشه المسجد، كان أول شيء بدأه الطواف بالبيت، وكان لشدة الزحام ولكونه راكباً الناقة أثناء الطواف، يستلم الركن الذي فيه الحجر الأسود بالمحجن<sup>(٣)</sup> وقال موسى بن عقبة: إن النبي ﷺ بعد الطواف صلى ركعتين ثم انصرف إلى زمزم فاطلع فيها، ودعا بماء فشرب منها وتوضأ والناس يبتدون وضوءه، والمشركون يتعجبون من ذلك ويقولون: ما رأينا

(١) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٨٣١.

(٢) سورة الفتح آية ٢٧، ٢٨، ٢٩.

(٣) المحجن (بكسر أوله وفتح ثانيه) عصا طويلة ذات راس معقوف.

ملكاً قط ولا سمعنا به - يعني مثل هذا - وأخر النبي ﷺ المقام إلى مكانه اليوم، وكان ملصقاً بالبيت<sup>(١)</sup> وقال الواقدي: ولما فرغ الرسول ﷺ من طوافه نزل عن راحلته، وجاء معمر بن عبد الله بن نضلة<sup>(٢)</sup> فأخرج راحلته، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى المقام (مقام إبراهيم) - وهو يومئذ لاصق بالكعبة، والدرع والمغفر عليه، وعمامته بين كتفيه، فصلى ركعتين ثم انصرف إلى زمزم فاطلع فيها وقال: لولا أن يغلب بنو عبد المطلب لنزعت الدلو، فنزع العباس بن عبد المطلب دلوفا فشرب منه، ويقال: الذي نزع الدلو أبو سفيان ابن الحارث بن عبد المطلب<sup>(٣)</sup>.

وكان الذي يمسك بزمام راحلته - وهو يطوف بالبيت - رئيس الحرس محمد بن مسلمة الأنصاري<sup>(٤)</sup>.

وقد طاف المسلمون مع الرسول ﷺ وكان في كل مرة يستلم الركن بالمحجن حتى انتهت الأشواط السبعة، قال الواقدي: ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى الكعبة فرآها، ومعه المسلمون، تقدم على راحلته فاستلم الركن بمحجنه، وكبر فكبر المسلمون لتكبيره فرجعوا التكبير حتى ارتجت مكة تكبيراً حتى جعل رسول الله ﷺ يشير إليهم: اسكتوا، والمشركون فوق الجبال ينظرون<sup>(٥)</sup>.

الرجل الذي حاول اغتيال الرسول ﷺ يوم الفتح في الطواف فأسلم: وقد جرت محاولة لاغتيال الرسول ﷺ فقد حاول - أحد بني بكر بن كنانة واسمه فضالة بن عمير ابن الملوح، حاول اغتيال الرسول ﷺ أثناء الطواف بالبيت في ذلك اليوم التاريخي الخالد، يوم الفتح، إلا أن الله تعالى أطلع نبيه ﷺ على هذه المحاولة ففشلت بعد أن هدى الله تعالى الرجل الذي حاول القيام بها.

فقد ذكر ابن كثير عن ابن هشام أن فضالة بن عمير المذكور أراد قتل النبي ﷺ وهو يطوف بالبيت عام الفتح، فلما دنا منه (لتنفيذ المحاولة) فجأ رسول الله ﷺ فضالة وقال له (في صيغة سؤال): أفضالة؟

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ٣٠٠.

(٢) هو معمر بن عبد الله بن نضلة بن نافع بن عوف العدوي القرشي من السابقين الأولين في الإسلام، هاجر الهجرتين، وكان ممن رجع من الحبشة إلى مكة وأقام بها قبل عودة جعفر وأصحابه ثم هاجر إلى المدينة.

(٣) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٨٣٢.

(٤) انظر ترجمة ابن مسلمة في كتابنا (غزوة أحد).

(٥) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٨٣١.

فقال فضالة: نعم فضالة يا رسول الله.

قال الرسول ﷺ: ماذا كنت تحدث به نفسك؟

قال فضالة: لا شيء كنت أذكر الله، فضحك النبي ﷺ ثم قال: «استغفر الله» ثم وضع يده الشريفة على صدر فضالة فسكن قلبه، فكان فضالة يقول: والله ما رفع يده عن صدري حتى ما من خلق الله شيء أحب إلى منه، قال فضالة فرجعت إلى أهلي فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها، فقالت: هلم إلى الحديث فقال: لا وانبعث يقول:

قالت هلم إلى الحديث فقلت لا  
أبى عليك الله والإسلام  
أو ما رأيت محمداً وقبيله  
بالفتح يوم تكسر الأصنام  
لرأيت دين الله أضحى بيننا  
والشرك يَغشى وجهه الإظلام<sup>(١)</sup>

تخطيط الأصنام وإنهاء الوجود الوثني بعد إنهاء الوجود السياسي والعسكري : وبعد أن أنهى الرسول القائد ﷺ وجود قريش السياسي باستيلاء جيشه على مكة استيلاء كاملاً، أنهى الوجود الوثني وأزال كل معالم الشرك في هذه المدينة المقدسة مكة. وذلك بتخطيط جميع الأصنام والأوثان التي كانت موجودة خارج الكعبة، وطمس الصور التي كانت داخلها.

فقد ذكر المؤرخون أن الرسول ﷺ حطم يروم الفتح ثلاثمائة وستين صنماً كانت منصوبة حول البيت مشدودة بالرصاص، وفي مقدمة هذه الأصنام هُبل صنمهم الأكبر<sup>(٢)</sup>. كما أنه أمر بمحو جميع الصور التي كان المشركون قد رسموها داخل الكعبة، ومن بين الصور صورة تمثل أبي الأنبياء إبراهيم والعذراء مريم بنت عمران، ولم يدخل الرسول ﷺ الكعبة إلا بعد أن أزيلت منها جميع الصور، أزالها عمر بن الخطاب.

قال البخاري: حدثنا صدقة بن الفضل حدثنا ابن عيينة عن أبي نجيح عن مجاهد عن أبي معمر عن عبد الله بن مسعود، قال: دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب فجعل يطعنها بعود ويقول: «جاء الحق وزهق الباطل، جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد».

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ٣٠٨.

(٢) عن ابن عباس دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح وعلى الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً، لكل حي من أحياء العرب صنم قد شُدَّ بالرصاص، فجاء ﷺ ومعه قضيب فجعل يهوى به إلى كل صنم منها فيخرب لوجهه من غير أن يمسه بما في يده وهو يقول: (جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً) حتى مرَّ عليها كلها.

وقال الواقدي يصف دخول الرسول ﷺ مكة وإزالته معالم الوثنية يوم الفتح، «ثم طاف رسول الله ﷺ على راحلته أخذ بزمامها محمد ابن مسلمة، وحول الكعبة ثلثمائة صنم وستون صنماً مرصصة بالرصاص، وكان هُبَل أعظمها، وهو وجاه (أي تجاه) الكعبة على بابها، وأساف ونائلة حيث ينحرون ويذبحون الذبائح، فجعل رسول الله ﷺ لما مر بصنم يشير بقضيب في يده ويقول: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾<sup>(١)</sup> فيقع الصنم لوجهه<sup>(٢)</sup> .

وعن ابن عباس: دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح وعلى الكعبة ثلثمائة وستون صنماً، لكل حي من أحياء العرب صنم قد شد إبليس أقدامها بالرصاص فجاء ﷺ ومعه قضيب فجعل يهوى به إلى كل صنم منها فيختر لوجهه، وفي رواية فأقبل ﷺ إلى الحجر فاستلمه ثم طاف بالبيت وفي يده قوس فأتى ﷺ في طوافه على صنم إلى جنب البيت أي من جهة بابه يعبدونه وهو هُبَل وكان أعظم الأصنام، فجعل يطعن بها في عينه ويقول: «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً» - ثم أمر الرسول ﷺ بهُبَل فكسر، وكان أبو سفيان بن حرب حاضراً، فقال له الزبير بن العوام، قد كسر هُبَل أما إنك قد كنت في يوم أحد في غرور حين تزعم أنه قد أنعم، فقال أبو سفيان: دع هذا عنك يا ابن العوام، فقد أرى لو كان مع إله محمد ﷺ غيره لكان غير ما كان<sup>(٣)</sup> .

محو الصور في الكعبة: وفي صحيح البخاري: أن رسول الله ﷺ لما قدم مكة أبى أن يدخل البيت وفيه الآلهة، فأمر بها فأخرجت، فأخرج صورة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وفي أيديهما الأزام، فقال ﷺ: «قاتلهم الله لقد علموا ما استقسما بها قط». وفي مسند الإمام أحمد عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ حين دخل البيت «يوم الفتح» وجد فيه صورة إبراهيم وصورة مريم فقال: «أما هم فقد سمعوا أن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه صورة، هذا إبراهيم مصوراً فما باله يستقسم؟»، وقد رواه البخاري والنسائي من حديث ابن وهب<sup>(٤)</sup> .

(١) الإسراء آية ٨١.

(٢) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٨٣٢.

(٣) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٠.

(٤) البداية والنهاية ج ٤ ص ٣٠٢ - ٣٠٣.



الرسول يصلي في الكعبة : ثم إن الرسول ﷺ بعد أن أزال كل معالم الوثنية بتكسير الأصنام ومحو الصور صلى في جوف الكعبة وهذه هي أول مرة يصلي فيها الرسول ﷺ في جوف الكعبة.

فقد ثبت في صحيح البخاري أن النبي ﷺ صلى «يوم الفتح» في الكعبة تلقاء وجهة بابها من وراء ظهره، فجعل عمودين عن يمينه وعمودًا عن يساره وثلاثة أعمدة وراءه، وكان البيت يومئذ على ستة أعمدة، وكان بينه وبين الحائط الغربي مقدار ثلاثة أذرع.

وفي مسند الإمام أحمد، أن الرسول ﷺ صلى يوم الفتح في الكعبة ركعتين، بعد أن أغلق عليه الباب وعلى أسامة بن زيد وبلال بن رباح (١).

أعلام نبوة تتحقق: ومن أعلام النبوة التي تحققت يوم الفتح ما رواه عثمان بن طلحة العبدري «كان أحد الأقطاب الثلاثة الذين أسلموا قبل الفتح وسماهم الرسول ﷺ أفلاذ كبد مكة، خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة» من أن قريشًا كانت عندما تفتح الكعبة لا تسمح للرسول ﷺ بدخولها، قال عثمان بن طلحة، كنا نفتح الكعبة في الجاهلية يوم الإثنين والخميس، فأقبل رسول الله ﷺ يوماً يريد أن يدخل الكعبة من الناس، فأغلظت له فنلت منه، فحلم عني، ثم قال: يا عثمان لعلك ستري هذا المفتاح يوماً بيدي أضعه حيث شئت، فقلت: لقد هلكت قريش يومئذ وذلت، فقال: بل عمّرت وعزّت يومئذ، ودخل الكعبة، فوقعت كلمته مني موقعاً، ظننت يومئذ أن الأمر سيصير إلى ما قال، فلما كان يوم الفتح قال: يا عثمان، اتّني بالمفتاح، فأتيته به، فأخذه مني، ثم دفعه إليّ، وقال: خذوها خالدة تالدة، لا ينزعها منكم إلا ظالم، يا عثمان إن الله استأمنكم على بيته، فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف، قال: فلما وليت ناداني ﷺ فرجعت إليه فقال: ألم يكن الذي قلت لك؟ قال: فذكرت قوله بمكة قبل الهجرة، «لعلك ستري هذا المفتاح بيدي أضعه حيث شئت» فقلت: بلى أشهد أنك رسول الله (٢).

قصة الامتناع عن تسليم الرسول مفتاح الكعبة: كان عثمان بن طلحة العبدري كان قد أسلم، وهاجر إلى المدينة، وبقي مفتاح الكعبة عند أمه بنت شيبية، وكانت على شركها حتى يوم الفتح، فلما دخل الرسول ﷺ مكة فاتحاً وأكمل طوافه، وأنهى وجود قريش السياسي، وأنهى الوجود الوثني في مكة بسيطرة جيشه عليها، وتحطيم الأصنام والأوثان

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ٣٠٣ وزاد المعاد ج ٢ ص ٣٩٤.

(٢) زاد المعاد ج ٢ ص ٣٩٥.

فيها، والتي هي أبرز مظاهر الشرك والوثنية، أرسل إلى بني شيبه من بني عبد الدار في طلب المفتاح، مفتاح الكعبة، أرسل مولاه بلالا إلى عثمان بن طلحة ليأتيه بالمفتاح، فذهب بلال إلى عثمان بن طلحة وقال له: إن رسول الله ﷺ يأمر أن تأتي بمفتاح الكعبة، قال عثمان: نعم فذهب إلى أمه بنت شيبه وكان المفتاح عندها، فقال لها: يا أمة أعطني المفتاح فإن رسول الله ﷺ قد أرسل إلى وأمرني أن آتي به إليه، فمانعت أمه في تسليم المفتاح أشد الممانعة، وقالت لابنها عثمان: أعيدك بالله أن تكون الذي تذهب مأثرة قومة<sup>(١)</sup> على يديه، فقال لها: فوالله لتدفعنني إليّ أو ليأتينك غيري فيأخذه منك، فأصرت على التشبث بالمفتاح ومانعت في تسليمه، ثم أدخلته في حجرتها<sup>(٢)</sup> وقالت: أيّ رجل يدخل يده هاهنا.

وبينما عثمان بن طلحة العبدري يحاول إقناع أمه لتدفع المفتاح لرسول الله ﷺ وهي ترفض في إصرار، إذا بها تسمع صوت أبي بكر وعمر في الدار، وعمر يرفع صوته حين رأى إبطاء عثمان: يا عثمان، أخرج إليّ، وهنا خافت أم عثمان - لأن عمر كان شديداً على قريش - فوافقت على أن تسلّم مفتاح الكعبة قائلة لابنها: يا بني خذ المفتاح، فإن تأخذه أحب إلى من أن يأخذه نبيّ «قوم أبي بكر» أو عدّيّ «قوم عمر»، فأخذ عثمان المفتاح وجاء به إلى رسول الله ﷺ فأعطاه إياه<sup>(٣)</sup> ففتح الكعبة ثم دخلها على الذي تقدم تفصيله من هذا الكتاب.

العباس يطلب إسناد حجابة البيت إلى بني هاشم فيأبى الرسول: وذكر المؤرخون أن العباس بن عبد المطلب ورجال من بني هاشم تطاولوا لأخذ مفتاح الكعبة ليطم لهم شرف الجمع بين السقاية والحجابه، فقد قال العباس بن عبد المطلب «عميد أسرة بني هاشم في مكة». قال - وقد بسط يده - : يا نبي الله، بأبي أنت، اجمع لنا الحجابه والسقاية. فأبى ذلك رسول الله ﷺ وقال العباس: أعطيكُم ما تُرزءون فيه ولا أعطيكُم ما تُرزءون منه<sup>(٤)</sup>.

(١) المائة (بضم الراء) الخصلة المحموده التي توارث ويتحدث بها دائماً.

(٢) الحجزة: مكان التكة من السروال.

(٣) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٨٣٣ تحقيق الدكتور مارسدن جونس طبعة أكسفورد.

(٤) زاد المعاد ج ٢ ص ٣٩٥ ومغازي الواقدي ج ٢ ص ٨٣٣ وقوله ﷺ: أعطيكُم ما تُرزءون فيه ولا أعطيكُم ما تُرزءون منه، أي إنما أعطيكُم السقاية التي تحتاج منكم إلى مؤن فاما الحجابه فلا ترزؤكم شيئاً لأن الناس يبعثون إليها بالكسوة.

رفع نظام منع التجول في مكة: وبعد أن تمت السيطرة الكاملة للجيش النبوي على العاصمة المقدسة «مكة» وبعد أن أزال الرسول ﷺ منها آخر مظهر من مظاهر الشرك والوثنية بتحطيم الأصنام والأوثان وكل ماله علاقة بشعارات الجاهلية مثل الصور المرسومة على جدران الكعبة، رفع نظام منع التجول، وأصبح أهل مكة أحراراً في التنقل داخل المدينة وخارجها كيف شاءوا ومتى شاءوا.

فتوافد أهل مكة في ذلك اليوم التاريخي إلى المسجد من كل ناحية ليروا، ويسمعوا كيف تكون معاملة الرسول المنتصر لهؤلاء القرشيين المهزومين، الذين لم يتركوا (خلال عشرين عاماً) وسيلة للقضاء على الرسول ﷺ وعلى دعوته إلا اتبعوها.

وقد علت الدهشة وجوه قريش، وكادوا يتهمون أبصارهم، وهم ينظرون إلى عشرة آلاف مقاتل مدججين بالسلاح تحيط - في هيبة وإجلال وتيقظ وانتباه - بمحمد بن عبد الله ﷺ، ذلك الرجل الذي أهدرت قريش دمه وجعلت مكافأة ضخمة لمن يأتي به إليها حياً أو ميتاً. يوم أن خرج (قبل ثمان سنوات) من مكة خائفاً يترقب يطلبه الموت في كل مكان، وليس معه سوى رجل واحد أبي بكر الصديق.

شعار التوحيد في مكة إلى الأبد: وبينما كان المسجد يزدحم بالقرشيين المستسلمين من مختلف الطبقات كان النبي ﷺ يصدر أمره إلى مولاه بلال بن رباح أن يعلو سطح الكعبة فيؤذن، ليعلن بذلك سيادة سلطان التوحيد على مكة، وإنهاء سلطان الشرك والوثنية إلى الأبد.

وقد اغتاز القرشيون أشد الغيظ عندما رأوا بلالاً يؤذن من سطح الكعبة، وعبر الكثير منهم «صراحة» عن امتعاضه وتألمه لإعلان شعار التوحيد من على ظهر الكعبة.

فقد قال عتاب بن أسيد<sup>(١)</sup>: لقد أكرم الله أسيداً «يعني أباه» أن يكون سمع هذا يعني الأذان - فيسمع منه ما يغيبه، وقال بعض بني سعيد بن العاص: لقد أكرم الله سعيداً إذ قبضه قبل أن يسمع هذا الأسود على ظهر الكعبة.

(١) انظر ترجمة عتاب بن أسيد فيما مضى من هذه السلسلة.

وقال رجل من قريش للحارث بن هشام <sup>(١)</sup> : ألا ترى إلى هذا العبد أين صعد؟ فقال: دعه فإن يكن الله يكرهه فسيغيره، وقال أبو سفيان - بعد أن سمع كلام هؤلاء الأشراف من قريش - : لا أقول شيئاً، لو تكلمت لأخبرته عني هذه الحصباء، وقال الحارث بن هشام أيضاً: أما والله لو أعلم أنه محق لاتبعته، وقالوا: فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال: قد علمت الذي قلت - ثم ذكر لهم الذي قالوا - فقال الحارث بن هشام وعتاب بن أسيد: نشهد أنك رسول الله، والله ما طلع على هذا أحد كان معنا، فنقول أخبرك <sup>(٢)</sup> .

وقال يونس بن بكير: أن رسول الله ﷺ أمر بلائاً عام الفتح فأذن على الكعبة ليغيظ به المشركين <sup>(٣)</sup> .

إذن يخزيك الله. وذكروا أن أبا سفيان بن حرب بعد أن تمت السيطرة للمسلمين على مكة وسوس له الشيطان وصار يحدث أبو سفيان به نفسه، فأمن الإيمان الصادق من تلك الساعة.

فقد روى البيهقي وأصحاب المغازي كل بلفظه أن أبا سفيان بن حرب بعد فتح مكة رأى رسول الله ﷺ يمشي والناس يطئون عقبه، فقال بينه وبين نفسه، لو عاودت هذا الرجل القتال، فجاء رسول الله ﷺ حتى ضرب في صدره فقال: «إذن يخزيك الله» فقال: أتوب إلى الله وأستغفر مما تفوهت به، وروى ابن سعد عن الواقدي، أن أبا سفيان بعد فتح مكة كان جالساً، فقال في نفسه، لو جمعت لمحمد جمعاً (أي لقتاله) فإنه ليحدث نفسه بذلك إذ ضرب رسول الله ﷺ بين كتفيه وقال: «إذن يخزيك الله» قال: فرفع رأسه فإذا رسول الله ﷺ قائم على رأسه، فقال أبو سفيان: ما أيقنت أنك نبي حتى الساعة <sup>(٤)</sup> .

المسلمون يحيون ليلة الفتح بالطواف والتكبير: وروى البيهقي عن سعيد بن المسيب، قال: لما كان ليلة دخل الناس مكة ليلة الفتح، لم يزالوا في تهليل وتكبير وطواف بالبيت حتى أصبحوا، فقال أبو سفيان لهند زوجه: أترى هذا من الله؟ قالت: نعم؛ هذا من الله. قال: ثم أصبح أبو سفيان فغدا إلى رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «قلت لهند أترى هذا من الله؟ قالت نعم هذا من الله» فقال أبو سفيان أشهد أنك عبد الله ورسوله، والذي يحلف به ما سمع قولي هذا أحد من الناس غير هند <sup>(٥)</sup> .

(١) تقدمت ترجمة الحارث بن هشام فيما مضى من هذا الكتاب.

(٢) زاد المعاد ج ٢ ص ٩٦ والبدية والنهاية ج ٤ ص ٣٠٣ وما بعدها وسيرة ابن هشام ج ٤.

(٣) البداية والنهاية ج ٤ ص ٣٠٤.

(٤) البداية والنهاية ج ٤ ص ٣٠٤.

(٥) البداية والنهاية ج ٤ ص ٣٠٤.

خبر استيلاء إبليس لفتح مكة: وجاء في مغازي الواقدي ج ٢ ص ٨٤١ أن إبليس رنّ في تاريخ حياته ثلاث رنات، رنة حين لعن فتغيّرت صورته عن صورة الملائكة ورنة حين رأى رسول الله ﷺ يصلّي قائماً بمكة، ورنة حين افتتح رسول الله ﷺ مكة، فاجتمعت ذريته، فقال إبليس: ائسوا أن تردوا أمة محمد على الشرك بعد يومهم هذا، ولكن أفسوا فيهم النوح والشعر.

خطبة الرسول التاريخية يوم الفتح : وبعد أن أنهى الرسول ﷺ الوجود الوثني وأزال كل مظاهر ومعالم الوثنية من مكة المكرمة فطهر الكعبة من رجس الأصنام والأوثان بتحطيمها، وبعد أن هدم سلطان قريش السياسي وخضد شوكتها العسكرية حيث ألقى المقاتلون منها السلاح وسلموه للجيش النبوي، وبعد أن رفع نظام منع التجول توافد القرشيون إلى المسجد من كل حذب وصبوب، فضاقت بهم المسجد فاحتشد في الطرقات المحيطة به، وكل منهم يريد أن يسمع من القائد الأعلى النبي المنتصر ﷺ كلمة الفصل في مصيره، وذلك في اليوم الثاني للفتح <sup>(١)</sup>.

ماذا ترون أي فاعل بكم : أمّا الرسول الأعظم ﷺ فبعد أن هدأت الأحوال في مكة وبعد أن بات المسلمون الفاتحون ليلة فيها، وقف ﷺ وقائد سلاح الفرسان خالد بن الوليد حوله يبعد الناس المزدحمين حوله <sup>(٢)</sup>، وقف الرسول على باب الكعبة وعضادتي الباب في يده وبيده المفتاح قد جعله في كفه والمشركون في المسجد يزدحمون يكاد بعضهم يدوس البعض الآخر ليسمعوا ما سيقوله الرسول ﷺ.

العفو العام عن أهل مكة: وبينما الناس واقفون ينتظرون وينظرون إلى الرسول الفاتح المنتصر بدأ رسول الله ﷺ في إلقاء خطابه التاريخي الذي فيه أولاً أصدر عفواً عاماً عن جميع أهل مكة، كما أعلن بعض التشريعات التي يجب العمل بها، وأبطل عادات الجاهلية إلا سدانة البيت وسقاية الحاج، كما حرّم التعامل بالربا وأسقط الفوائد المترتبة على التعامل سابقاً بالربا والمتبقية لأصحابها، كذلك أعلن حرمة مكة المكرمة إلى يوم القيامة، كذلك أعلن وحدة النوع البشري وأن لا فضل لأحد على آخر إلا بالتقوى..

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ٣٠٥ وزاد المعاد ج ٢ ص ٣٩٧.

(٢) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٨٣٥.

فقد قال ﷺ في خطبته هذه:

الحمد لله الذي صدق وعده ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ثم خاطب أهل مكة - الذين كانت قلوبهم تركض جزعاً تكاد تقفز من صدورهم خوفاً من أن يجاسبهم ويجازيهم على ما ارتكبوا من جرائم في حقه وفي حق أصحابه أيام قتلهم وضعفهم بمكة - يا معشر قريش، ويا أهل مكة: ما ترون أنني فاعل بكم؟ وفي رواية، ماذا تقولون وماذا تظنون؟ قالوا: نظن خيراً ونقول خيراً: أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت، وهنا تجلّى الرسول الأعظم ﷺ عن أكرم معدن إنساني عرفته البشرية من لدن آدم. فقد أسقط عن قريش كل عقوبة بإمكانه أن ينزلها بهم ومنحهم عفواً عاماً شاملاً مطلقاً وبأسلوب حان رقيق أعاد إلى نفوسهم القلقة المضطربة كل طمأنينة واستقرار حيث قال ﷺ: «لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين، اذهبوا فأنتم الطلقاء».

قال الطبري: فاعتقهم رسول الله ﷺ، وقد كان الله أمكنه من رقابهم عنوة وكانوا له فيئاً، فبذلك يُسمى أهل مكة الطلقاء<sup>(١)</sup>.

المراسيم التشريعية الجديدة: ثم ألقى الرسول ﷺ في هذه الخطبة التاريخية دروساً عالية على الناس عامة وعلى أهل مكة خاصة أو ما يمكن تسميته بمراسيم تشريعية جديدة تحدد لهم (في ظل حكم الإسلام) سلوكهم وتعاملهم مع بعضهم البعض.

تحريم الربا: كان الربا في الجاهلية أهم قاعدة في مجال التجارة والاقتصاد ولما كان الربا من الأمور التي تتنافى مع روح الإسلام وتعاليمه البناءة السمحة، لكونه من أبشع وسائل الاستغلال التي بها تتضخم ثروات الأغنياء على حساب تدمير الفقراء والمحتاجين وهم الأغلبية الساحقة، فقد ألغى الرسول ﷺ في خطبته هذه التعامل بالربا، وحرمه تحريماً قاطعاً فقال: «ألا إن كل ربا في الجاهلية أو دم أو مال أو مائة فهو تحت قدمي هاتين، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج».

(١) اختلف المؤرخون والفقهاء وأصحاب الحديث، هل فتحت مكة عنوة أم صلحاً، فالذي عليه الجمهور أنها فتحت عنوة، والذي عليه الشافعي أنها فتحت صلحاً، والواقع أن الاتفاق بين مندوب قريش أبي سفيان بن حرب، وبين الرسول ﷺ قد تم على أن مكة ستفتح صلحاً كما تقدم تفصيله من هذا الكتاب إلا أن مقاومة بعض القرشيين واعتراضهم قطعات خالد بن الوليد بالسلح في الخدمة مما أدى إلى مقتل ثلاثين رجلاً من الفريقين يمكن اعتباره هضماً لاتفاقية الصلح المذكورة، وعليه تكون مكة فتحت عنوة وأن الرسول ﷺ حينما عفا عن أهل مكة ولم يقسم شيئاً من أموالهم كغنيمة ولا ذراريهم كسبايا، كان ذلك من باب التكرم والتسامح تأليف للقلوب وهذا هو الأقرب إلى الصواب، فمكة فتحت عنوة، ولكن الرسول لم يجز عليها وعلى أهلها أحكام العنوة والاقترام.

تحديد دية القتل خطأ: ثم وضع تشريعاً حدد بموجبه التعويض الذي يدفع لأهل المقتول خطأ أو شبه عمد والمسمى في التعريف الجنائي الإسلامي بالدية فقال: «ألا وفي قتيل الخطأ، مثل شبه العمد، السوط والعصا، فيهما الدية مغلظة - مائة من الإبل منها أربعون في بطونها أو لادها» .

إعلان وحدة الجنس البشري والتساوي في الحقوق: ثم أعلن وحدة النوع البشري وتحريم التفريق العنصري وأنه لا مكان في الإسلام لتفضيل إنسان على آخر بسبب لونه أو جنسه أو لغته وإنما يكون التفاضل بالتقوى ويقدر ما يقدم الإنسان للمجتمع من خير في حدود تعاليم الإسلام، فقال: «يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتكبرها الناس من آدم وآدم من تراب».

ثم تلا ﷺ: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ﴾.

إعلان حرمة مكة أبد الأبدین: ثم أعلن في خطبته التاريخية هذه (وهو على باب الكعبة) حرمة مكة المكرمة، وأنه لا يجوز سفك دم إنسان فيها مهما كانت المبررات، فقد روى البخاري أن شريح الخزاعي قال لعمر بن سعيد، وهو يبعث بالجيش على مكة، ائذن لي أيها الأمير أحدثك قولاً قام به رسول الله ﷺ الغد من يوم الفتح سمعته أذناي ووعاه قلبي وأبصرته عيناي حين تكلم به، أنه حمد الله وأثنى عليه ثم قال: «إن مكة حرمة الله ولم يجرمها الناس لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا ولا يعضد بها شجرًا، فإن أحد ترخص بقتال رسول الله ﷺ، فقولوا: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما أذن لي فيها - ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد الغائب».

وحدة المسلمين وتكافؤهم: وفي هذه الخطبة الجامعة أعلن الرسول ﷺ وحدة المسلمين وتكافؤهم وتساويهم في كل شيء فقال: «والمسلم أخو المسلم، والمسلمون إخوة، والمسلمون يد واحدة على من سواهم، تكافأ دماؤهم، يرد عليهم أقصاهم، ويعقد عليهم أذناهم، ومشدُّهم على مضعفهم<sup>(١)</sup> وميسرتهم على قاعدتهم، ولا يقتل مسلم بكافر، ولا ذو عهد (أي من الكفار) في عهده، ولا يتوارث أهل ملتين مختلفتين ولا جلب ولا جنب<sup>(٢)</sup> ولا تؤخذ صدقات المسلمين إلا في بيوتهم وبأفئدتهم، ولا تنكح المرأة على عمتها وخالتها، والبيّنة على من ادّعى واليمين على من أنكر، ولا تسافر امرأة مسيرة ثلاث إلا مع ذي محرم، ولا صلاة بعد العصر وبعد الصبح، وأنهاكم عن صيام يومين، يوم الأضحى ويوم الفطر، وعن لبستين، لا يجتب أحدكم في ثوب واحد يفضى بعورته إلى السماء، ولا يشتمل الصماء<sup>(٣)</sup> ولا أخالكم إلا قد عرفتموها.

تحريم الاصطياد وعضد الشجر في الحرم: كما أن الرسول ﷺ في هذه الخطبة أعلن تحريم الاصطياد في الحرم وقطع الشجر فقال: «لا ينفر صيدها ولا يعضد (أي يقطع) شجرها، ولا تحل لقطتها إلا لمنشد ولا يختلي خلاها»<sup>(٤)</sup>، فقال العباس بن عبد المطلب (وكان شيخاً مجرباً)، إلا الإذخر<sup>(٥)</sup> يا رسول الله فإنه لا بد منه، إنه للقبر وظهور البيت، فسكت رسول الله ساعة، ثم قال: إلا الإذخر فإنه حلال.

ثم تحدث ﷺ عن بعض التشريعات الأخرى في محيط الأسرة فقال: «ولا وصية لوارث، وأن الولد للفراش وللعاهر الحجر ولا يحل لامرأة تعطى من مالها إلا بإذن زوجها<sup>(٦)</sup>، ولا تنكح المرأة على عمتها وخالتها»<sup>(٧)</sup>.

(١) قال في النهاية في غريب الحديث، المشد الذي دوابه ضعيفة، يريد أن القوى من الغزاة يساهم الضعيف فيما يكسبه من الغنائم.

(٢) انظر تفسير الجلب والجنب مطولاً في النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ج ٢ ص ١٦٩، ١٨٠.

(٣) اشتمال الصماء، قال الفقهاء: هو أن يتغطى الرجل بثوب واحد ليس عليه غيره ثم يرفعه من أحد جانبيه فيضعه على منكبيه فتتكشف عورته، كذا قال في النهاية ج ٢ ص ٢٧٥.

(٤) الخلى هنا النبات الرطب الرقيق: واختلاؤه قطعه، النهاية ج ٢ ص ٣١٩.

(٥) الإذخر بكسر الهمزة: حشيش طيب الريح، كذا قال في القاموس المحيط.

(٦) الثابت بإجماع المسلمين أن المرأة حرة في التصرف في مالها دون الرجوع إلى زوجها أو غيره اللهم إلا إذا كانت غير راشدة.

(٧) انظر تاريخ الطبري ج ٣ ص ٦٢، ٦٣ ومغازي الواقدي ج ٢ ص ٨٣٥ وما بعدها، والبداية والنهاية ج ٤ ص ٣٠٥ وسيرة ابن هشام ج ٤ ص ٥٤ وصحيح البخاري ج ٥ ص ٢٠٩.



طَيَّ بساط الشرك والوثنية: وبهذا الخطاب التاريخي الذي أرسى فيه الرسول ﷺ قواعد الإسلام انطوى بساط الشرك والوثنية في مدينة كانت أعظم معقلاً لمحادة الله ورسوله، مكة المكرمة التي أصبحت العاصمة الثانية للإسلام بعد المدينة المنورة.

ولا شك أن وقوع العاصمة المقدسة تحت سيطرة المسلمين كان بداية النهاية للوجود الوثني لا في مكة وحدها بل في جميع الأقاليم التي بقى فيها سلطان للشرك والوثنية؛ لأن مكة كانت عاصمة للشرك والوثنية، لا بالنسبة لقريش وحدها بل للعرب أجمعين على اختلافهم في تنوع الآلهة، حيث يوجد لكل فئة من العرب صنمهم الخاص بهم حول الكعبة.

ولهذا كان وقوع العاصمة المقدسة مكة في أيدي المسلمين ذا أثر شديد على نفوس من تبقى على الشرك والوثنية الأمر الذي حدا بالأقوياء (عسكرياً منهم) مثل قبائل هوازن أن تحشد الجيوش لانتزاع مكة من أيدي المسلمين وإعادتها إلى سلطان الشرك والوثنية، الأمر الذي بسببه نشبت معركة حنين الحاسمة كما سيأتي تفصيله (إن شاء الله) في كتابنا التاسع من هذه السلسلة وهو التالي لهذا الكتاب، والذي سيصدر (بإذن الله) تحت اسم (غزوة حنين).

محمد أشرف فاتح وأكرم محارب: لقد كان القرشيون - وهم يلقون السلاح ويعتصمون بمنازلهم أو المسجد ويخلون الشوارع ليروا جيش محمد المنتصر يسيطر على العاصمة المقدسة - يظنون أن محمداً ﷺ من ذلك الطراز المتوحش المتعطش إلى الدماء من الفاتحين، الذين تعبت بهم نشوة الانتصار، فتدفع بهم إلى إحداث المجازر الرهيبة بين خصومهم المهزومين، فلا تهدأ نفوسهم ولا تقرر إلا بعد أن يروا الجثث مبعثرة في الشوارع ومدلاة على أعواد المشانق.

ولدى القرشيين ما يجعل هذا الظن قوياً في نفوسهم، لا سيما وأنهم ما زالوا يقيسون الأمور بمقياسهم المبني على التفكير الجاهلي العصبي الوثني حيث الثأر والانتقام للنفس هما دائماً السبب والمحرك الوحيد لأي حرب يخوضون غمارها. وعندما تراجع قريش صفحات الماضي، تجدها (وعبر عشرين سنة) مثقلة بالأوزار والآثام التي ارتكبتها في حق هذا الرجل الذي سيطرت قواته على مكة، وأصبح مصير كل أهلها بيده، وأعظم جريمة منكرة ارتكبتها قريش في حق الرسول ﷺ هي محاولتها اغتياله على فراشه وهو بين ظهرانيها قبل ثمان سنوات.

لهذا كان سادات مكة يتوقعون أن الحساب سيكون من الرسول الفاتح المنتصر حساباً عسيراً والانتقام انتقاماً شديداً ولهذا فر الكثير من ساداتهم وهربوا من مكة، حتى الذين لم يصدر الأمر من الرسول ﷺ - وبصفة استثنائية - بإعدامهم قصاصاً. غير أن تصرفات الرسول ﷺ كانت «وقبل أن يدخل مكة فاتحاً» تدل على أنه أبعد ما يكون عن الرغبة في الانتقام والانتصار للنفس، وأنه أشد ما يكون حرصاً على أن لا تراق قطرة دم واحدة في مكة من أي إنسان كان مسلماً كان أم كافراً، اللهم إلا الذين يقضي قانون الإسلام بإعدامهم؛ لذلك رحب ﷺ بمساعي عمه العباس بن عبد المطلب والتي انتهت بإصدار الرسول القائد «وهو الظافر المنتصر» عفواً عاماً عن جميع مشركي مكة قبل أن يدخلها إن هم ألقوا السلاح وكفوا عن المقاومة، فأثبت بذلك للقرشيين - وقبل أن يدخل مدينتهم - أن الانتقام لنفسه منهم لم يكن له وجود في تفكيره، رغم الأحوال التي عاناها على أيديهم ظلماً وبغياً وعدواناً طوال ثمان سنوات عندما كان بين ظهرانيهم ضعيف الركن قليل الأنصار.

فبرهن على أنه أشرف محارب وأكرم منتصر عرفه التاريخ. لقد كان الأمان الذي حمله مفاوض قريش أبو سفيان بن حرب من الرسول الأعظم ﷺ لأهل مكة جميعاً والذي تبلغه كافة أهل مكة قبل أن يدخلها الجيش النبوي، كان هذا الأمان كافياً لأن يطمن النفوس القلقة في مكة، وكل نفوس أهل مكة قلقة، مما يتصورون أنه سيحل بهم على يد الجيش الإسلامي عندما يسيطر على مكة. ولكن الخوف ظل يساور نفوس أهل مكة رغم إعلان أبي سفيان أن الجيش النبوي بأمر من الرسول القائد ﷺ قد أمر جيشه بأن لا يتعرض لأحد من أهل مكة، وأنهم جميعاً آمنون إلا من حمل السلاح وقاتل الجيش الإسلامي، ظل القلق يساورهم والخوف يتتابهم وخاصة بعد أن نقضوا اتفاقية الصلح بالقتال الذي أبدوه في الخدمة في وجه قطعات خالد بن الوليد.

الطمأنينة بعد القلق : ولعل الرسول الأعظم ﷺ أدرك القلق الشديد الذي يساور نفوس القرشيين عقب وقوع مكة تحت قبضة جيشه المنتصر؛ لذلك - وبأسلوب عف شريف كريم لا مثيل له - أزال من النفوس كل أثر من آثار ذلك القلق حين وجه كلامه - وهو يلقي خطبته التاريخية في المسجد يوم الفتح - إلى القرشيين المهزومين الخائفين القلقين، قائلاً: «ماذا ترون أني فاعل بكم؟» فقال نفر من عقلائهم، والفرع ينوشهم - أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت، فقال ﷺ: « لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين، اذهبوا فأنتم الطلقاء».

وبهذا العفو الشامل المطلق الصريح أزال الرسول ﷺ كل أثر من آثار الخوف العالقة بنفوس القرشيين فاطمأنوا، وسكنت نفوسهم، وأكبروا هذا التصرف النبيل من عدوهم اللدود بالأمس المنتصر عليهم اليوم، وكانت هذه المعاملة الرحيمة الحانية الكريمة التي عامل بها الرسول الظافر المنتصر قومه المنهزمين، سبباً في إسراع كل أهل مكة إلى الدخول في الإسلام طوعاً واختياراً<sup>(١)</sup>، وصار منهم - فيما بعد - من أعز الله به الإسلام فشارك في معارك الجهاد وقاد الجيوش في معارك النصر - مثل عبد الله بن سعد بن أبي سرح الذي فتح أفريقيا وخاض أعنف معركة مجرية شهدها البحر الأبيض المتوسط، فانتصر أسطوله على الأسطول الروماني الذي أغرقت أكثر قطعاته وكانت حوالي ألف سفينة، ومثل عكرمة بن أبي جهل الذي سقط شهيداً في اليرموك بعد أن قاد كتيبة الفداء التي أوقفت زخم الهجوم الروماني وكان صمود فدائيتها من أهم الأسباب التي حققت النصر في معركة اليرموك الحاسمة.

النبي على الصفا: وبعد تلك الخطبة التاريخية التي أعادت الطمأنينة إلى نفوس القرشيين القلقة المضطربة انصرف الناس من المسجد وكل منهم تغمر نفسه الراحة النفسية، قد أمن على نفسه وماله وأهله، وبذلك خيم الهدوء الكامل على المدينة المقدسة، وأصبحت الحياة عادية تماماً.

أمّا الرسول القائد المنتصر فقد تحول من المسجد - بعد أن ألقى فيه خطابه التاريخي - إلى الصفا التي تحمل للرسول الأعظم ﷺ الشيء الكثير من الذكريات الحلوة والمرّة. فمن على صخرة الصفا هذه سمعت قريش من رسول الله ﷺ - وللمرة الأولى في حياتها - البيان الأول الداعي (بصيغة العموم) إلى عبادة الله وحده ونبذ عبادة ما سواه من الأنداد، حين كلفه الله تعالى - قبل ثمانية عشرة عاماً - بذلك بقوله تعالى: ﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾<sup>(٢)</sup>.

(١) قال في السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٢٢: اذهبوا فأنتم الطلقاء أي الذين أطلقوا فلم يسترقوا ولم يؤسروا. والطلاق في الأصل الأسير إذا أطلق قال: فخرجوا فكأنما نشروا من القبور فدخلوا في الإسلام بعد هذا العفو العام الذي ما كانوا يتوقعون أن يشملهم من الرجل الذي لم يتركوا وسيلة للتكيل به، بل وقلته (غيلة) إلا وسلوها أيام محنته وقلة أصحابه وضعفهم قبل الهجرة.

(٢) سورة الحجر آية ٩٤.

ومن على صخرة الصفا هذه سمع من أقرب الناس إليه ما أثقل نفسه بالألم، عمه أبي لهب عبد العزى بن عبد المطلب، الذي قال له «بعد أن جمع الناس وأبلغهم أنه رسول الله»: «تَبَّأ لَكَ أَلْهَذَا جَمَعْتَنَا؟» فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي حَقِّهِ ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ..... ﴾ السورة.

تخوف الأنصار أن يقيم الرسول ﷺ بمكة ويترك المدينة: وقد رقى رسول الله ﷺ - بعد خطبته التاريخية ثاني يوم الفتح - صخرة الصفا فرفع يديه فجعل يذكر الله بما شاء أن يذكره ويدعوه وهو متجه نحو البيت بحيث يراه<sup>(١)</sup>.

وهناك - والرسول على الصفا - ساورت الأنصار المخاوف وخشوا أن يقيم في مكة ويتحول عن المدينة، فقالوا فيما بينهم: أمَّا الرجل - يعني النبي ﷺ - فأدرسته رغبة في قريته ورأفة بعشيرته<sup>(٢)</sup>، أترون رسول الله إذ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها<sup>(٣)</sup>؟

ولاشك أن باعث هذا القول من الأنصار هو شدة المحبة لرسول الله ﷺ وحرصهم على أن يعيش بينهم طول حياته.

وقد روى الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة أن الرسول ﷺ وقف على الصفا فعلاه بحيث ينظر إلى البيت، فرفع يديه فجعل يذكر الله بما شاء أن يذكره ويدعوه، قال والأنصار تحت، قال، يقول بعضهم لبعض: أمَّا الرجل فأدرسته رغبة في قريته ورأفة بعشيرته، وجاء الوحي وكان إذا جاء لم يخف علينا، فليس أحد من الناس يرفع طرفه إلى رسول الله ﷺ حتى يقضي، قال هاشم فلما قضى الوحي رفع رأسه ثم قال: «يا معشر الأنصار أقتلتم أمَّا الرجل فأدرسته رغبة في قريته ورأفة بعشيرته؟ قالوا: قلنا ذلك يا رسول الله، قال: «فما أسمى إذن، كلا إني عبد الله ورسوله هاجرت إلى الله وإليكم فالحيا محياكم والممات مماتكم» قال فأقبلوا إليه يبكون ويقولون: والله ما قلنا الذي قلنا إلا الضنَّ بالله ورسوله، فقال رسول الله ﷺ: «إن الله ورسوله يصدقانكم ويعذرانكم» وقد رواه مسلم والنسائي من حديث سليمان بن المغيرة<sup>(٤)</sup>.

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ٣٠٧ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٤.

(٢) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢١٤.

(٣) السيرة الحلبية ج ٤ ص ٣٠٦.

(٤) السيرة الحلبية ج ٤ ص ٣٠٧.

مبايعة أهل مكة على الإسلام: ثم بعد ذلك توافد أهل مكة طوعاً واختياراً إلى الصفا حيث يقف الرسول ﷺ ليباعوه على الإسلام، وقد تمت البيعة في الصفا بكل هدوء ونظام، وكان الرجال أول المبايعين ثم بايع بعد بيعة الرجال النساء.

وكان الذي يأخذ على الناس البيعة، عمر بن الخطاب - كان أسفل الصفا بين الرسول ﷺ وبين أهل مكة.

قال الطبري: ثم اجتمع الناس بمكة لبيعة رسول الله ﷺ على الإسلام، فجلس لهم - فيما بلغني - على الصفا وعمر بن الخطاب تحت رسول الله ﷺ أسفل من مجلسه يأخذ على الناس، فبايعوا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة لله ولرسوله - فيما استطاعوا - وكذلك كانت بيعته لمن بايع رسول الله ﷺ من الناس على الإسلام<sup>(١)</sup>.

وقد دخل كل أهل مكة في الإسلام وبايعوا رسول الله ﷺ بمكة إلا نفرًا قليلاً، بعضهم هرب من مكة ظناً منه أن الرسول ﷺ سيفتك به (مثل عكرمة بن أبي جهل) وبعضهم بقى في مكة على شركه فأمهله النبي ﷺ ولم يجبره على الإسلام (مثل صفوان بن أمية)، الذي أسلم بعد غزوة حنين وحسن إسلامه، وكان قد خرج مع الجيش الإسلامي إلى حنين مشركاً ثم أسلم في الجعرانة بضواحي مكة، وكان مرافقاً للرسول ﷺ أثناء عودته من حصار الطائف بعد موقعة حنين، وكان صفوان بن أمية قد هرب إلى ساحل البحر الأحمر ليركبه خوفاً على نفسه، فأرسل إليه الرسول ﷺ بالأمان فعاد إلى مكة وظل على شركه حتى أسلم كما سيأتي تفصيل قصته من هذا الكتاب إن شاء الله.

بيعة النساء وقصة إسلام هند بنت عتبة: وبعد أن بايع الرجال الرسول ﷺ بايع النساء، فجاء وفدهن فأسلمن وبايعن رسول الله ﷺ، وكان من بين النساء البارزات في الوفد، أم حكيم بنت الحارث بن هشام<sup>(٢)</sup> امرأة عكرمة بن أبي جهل، وهند بنت عتبة امرأة سيد قريش وقائد جيوشها أبي سفيان بن حرب (وكانت متنكرة)، والبغوم بنت المعذل الكنانية امرأة صفوان بن أمية<sup>(٣)</sup> وفاطمة بنت الوليد بن المغيرة، وهند بنت منبه بن الحجاج، وهي أم عبد الله بن عمرو بن العاص، وقد كانت مبايعة النساء في الأبطح بحضرة ابنته فاطمة الزهراء وزوجته ونساء من بني عبد المطلب<sup>(٤)</sup>.

(١) تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٦١.

(٢) انظر ترجمتها في كتابنا (غزوة أحد).

(٣) انظر ترجمة صفوان بن أمية في كتابنا (غزوة بدر الكبرى).

(٤) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٨٥٠ وإمتاع الأسماع ص ٣٩٢.

النبي يعفو عن هند بنت عتبة: وكانت هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، أحد الذين خططوا لاغتيال سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب وحرصوا العبد الحبشي وحشي على قتله يوم أحد اغتيالاً، فكانت هند لذلك تتخوف من أن ينتقم منها الرسول ﷺ. ولكن عامل الأمل في عفو الرسول ﷺ ورحمته تغلب في نفس هند على عامل الخوف من انتقامه، فجاءته ضمن وفد نساء قريش اللواتي بايعنه على الإسلام، ولكنها جاءت متنكرة لئلا يعرفها الرسول ﷺ إلا في الوقت المناسب، حيث كشفت عن نقابها وطلبت الرحمة من رسول الرحمة ﷺ فقبل منها ولم يوجه إليها حتى مجرد كلمة لوم ﷺ، ما أبره وأكرمه وأحلمه وأرحمه وأعظمه.

صيغة مبايعة النساء بمكة: وكانت هند بنت عتبة (وكانها رئيسة وفد النساء) هي التي تتحدث إلى رسول الله ﷺ باسم النساء، وما كان رسول الله ﷺ يعرف أنها هي لأنها كانت متنكرة، ولكنه عرفها فيما بعد أثناء الحديث، فقال لها: وإنك لهند بنت عتبة، فقالت: أنا هند بنت عتبة، فاعف عما سلف عفا الله عنك (١).

وقد كانت مبايعة النساء على غير الكيفية التي تتم بها مبايعة الرجال، فقد كان الرسول ﷺ يبايع الرجال بالمصافحة بالأيدي، أما النساء فلم يصافحن، لأنه ﷺ لا يمس امرأة ولا تمسه إلا امرأة أحلها الله له، أو ذات محرم منه (٢).

فقد روى المحدثون وأصحاب السير كل بطريق أن الرسول ﷺ بعد أن فرغ من بيعة الرجال بايع النساء، فقال الطبري: واجتمع إلى الرسول ﷺ نساء من قريش فيهن هند بنت عتبة، منتقبة لحدثها وما كان من صنيعها بجمزة، فهي تخاف أن يأخذها رسول الله ﷺ بحدثها ذلك، فلما دنون منه ليباعنه قال: تبايعني على أن لا تشركن بالله شيئاً، فقالت هند: والله إنك لتأخذ علينا أمراً ما تأخذه على الرجال وسنوتيكه قال: ولا تسرقن، قالت هند: والله إن كنت لأصيب من مال أبي سفيان الهنة والهنة، وما أدري أكان ذلك حلالاً لي أم لا؟ فقال أبو سفيان - وكان شاهداً لما تقول - : أمّا ما أصبت

(١) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٦٢.

(٢) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٦٢.

فيما مضى فأنت منه في حل، فقال رسول الله ﷺ: وإنك لهند بنت عتبة، فقالت: أنا هند بنت عتبة، فاعف عما سلف عفا الله عنك، قال ﷺ: ولا تزنين، قالت هند: هل تزني الحرّة، قال ﷺ: ولا تقتلن أولادكن، قالت: قد ربناهم صغاراً، وقتلتهم يوم بدر كباراً، فأنت وهم أعلم، فضحك عمر بن الخطاب لقولها حتى استغرب<sup>(١)</sup> وفي بعض روايات الآخرين أن رسول الله ﷺ تبسم لقولها الجريء هذا<sup>(٢)</sup>، فقال رسول الله ﷺ: ولا تأتين بهتان تفترنه بين أيديكن وأرجلكن، فقالت هند: والله إن إتيان البهتان لقبيح ولبعض التجاوز أمثل، قال ﷺ: ولا تعصيني في معروف فقالت هند: ما جلسنا هذا المجلس ونحن نريد أن نعصيك في معروف، فقال رسول الله ﷺ لعمر: بايعهن، واستغفر لهن رسول الله ﷺ فبايعهن عمر<sup>(٣)</sup>.

وفي بعض الروايات أن هند بنت عتبة أتت رسول الله ﷺ في وفد النساء منتقبة وقالت: إني امرأة مؤمنة أشهد أن لا إله إلا الله وأنت عبده ورسوله، ثم كشفت عن نقابها وقالت: أنا هند بنت عتبة فقال رسول الله ﷺ: مرحباً بك: وأنها بعد أن بايعته قالت: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل مسيك (أي شحيح) وليس يعطيني ما يكفي وولدي إلا ما أخذت منه وهو لا يعلم، فهل عليّ من حرج أن أطعم من الذي له عيالنا؟ فقال لها: لا عليك أن تطعميهم بالمعروف: خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف<sup>(٤)</sup>.

الإسلام يجب ما قبله: كانت هند بنت عتبة امرأة سيد قريش وقائد جيوشها. وكان من عادات الرسول الأعظم ﷺ أن يتألف ويعامل من هم في منزلتها ومنزلة زوجها معاملة خاصة تأليفاً للقلوب؛ لتفتح للإسلام، وسنرى كيف أعطى رسول الله ﷺ سادات قريش وبعضهم لم يسلم إلا بعد فتح مكة - أعطاهم من غنائم حنين مئات من الإبل وهو ما لم يعط مثله لأحد من السابقين الأولين في الإسلام - فهند بنت عتبة كانت من ألد أعداء النبي ﷺ في الجاهلية، كانت السبب الرئيسي في مقتل عمّه حمزة يوم أحد<sup>(٥)</sup>

(١) استغرب في الضحك أي بالغ فيه.

(٢) انظر السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٢١.

(٣) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٦٢.

(٤) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٢١.

(٥) انظر تفاصيل قصة اغتيال حمزة في كتابنا (غزوة أحد).

ولكن سيد البشر لا يحقد على أحد ولا تعرف الضغينة إلى قلبه الطاهر الشريف الكبير سبيلاً، لا سيما وأن قاعدة رائعة عامة في التسامح جاء بها الإسلام وهي أن الإسلام ينسخ ما قبله من الخطايا: (الإسلام يجب ما قبله) كما جاء في الحديث الصحيح، ولهذا فإن الرسول ﷺ لم يجاسب هند ولا أحدًا آخر على ذنب ارتكبه وهو في جاهليته، اللهم إلا بضعة نفر استحقوا عقوبة، فنذت فيهم.

هند بنت عتبة تحطم صنماً في بيتها. وجاء في بعض كتب التاريخ أن هند بنت عتبة لما خالط الإسلام قلبها، وعلمت أنها كانت على ضلال ورأت ما عليه المسلمون من عبادة في المسجد يوم الفتح قالت لزوجها أبي سفيان: إني أريد أن أبايع محمداً، فقال: قد رأيتك تكفرين، فقالت: أي والله، والله ما رأيت الله تعالى عبد حق عبادته في هذا المسجد قبل الليلة. والله إن باتوا إلا مصلين قياماً وركوعاً وسجوداً (تعني الصحابة)، قال فإنك قد فعلت ما فعلت فاذهي برجل من قومك فذهبت إلى عمر فذهب معها إلى رسول الله ﷺ، ثم ذكر قصة إسلامها، وإن هنداً بعد أن أسلمت ذهبت إلى صنم لها كان في بيتها، فجعلت تضربه بالقدوم وهي تقول: كنا معك في غرور ومازالت تضربه حتى حطمته فلذة فلذة<sup>(١)</sup>.

الرسول يقبل الهدية من هند ويدعو لها: وقالوا إن هند بنت عتبة (وهي رئيسة وفد النساء) قالت للرسول ﷺ وقت المبايعه: يا رسول الله الحمد لله الذي أظهر الدين الذي اختاره لنفسه، لتمسني رحمتك يا محمد، إني امرأة مؤمنة بالله مصدقة، فقال رسول الله ﷺ: مرحباً بك، فقالت: والله يا رسول الله ما كان على الأرض من أهل خباء أحب إليّ أن يذلوا من أهل خبائك، ولقد أصبحت وما على الأرض من أهل خباء أحب إلى أن يعزوا من أهل خبائك فقال رسول الله ﷺ: وزيادة أيضاً، ثم قرأ ﷺ عليهم القرآن وبايعهن<sup>(٢)</sup>.

(١) الإصابة في أسماء الصحابة ج ٤ ص ٤١.

(٢) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٨٥٠.



وقالوا: إن هند بنت عتبة «تعبيراً عن ما في نفسها من إكرام لرسول الله ﷺ حل محل البغض» أرسلت إليه مع مولاة لها بهدية، وهي جديان مشويان فاستأذنت فأذن لها فدخلت عليه وهو ﷺ بين نسائه أم سلمة وميمونة، ونساء من بني عبد المطلب وقالت: إن مولاتي تعتذر إليك وتقول: إن غنمها اليوم لقليل الوالدة، فقال رسول الله ﷺ: اللهم بارك لكم في غنمكم وأكثر والدتها؛ فكثر الله ذلك، تقول تلك المولاة: لقد رأينا من كثرة غنمنا ووالدتها ما لم نكن نرى قبل<sup>(١)</sup>.

المختفون في مكة يوم الفتح : وعقب سيطرة المسلمين على مكة المكرمة اختفى عدد من سادات قريش البارزين خوفاً على أنفسهم من أن ينتقم المسلمون منهم فيبطشوا بهم لصنيعهم السيئ في حقهم.

ومن هؤلاء الزعماء من اختفى داخل مكة ومنهم من فر إلى خارجها.

أما الذين اختفوا في مكة حتى هدأت الأحوال ثم ظهروا فعفى عنهم الرسول ﷺ فأسلموا وحسن إسلامهم.

١ - سهيل بن عمرو العامري مندوب قريش ورئيس وفد في صلح الحديبية، ولم يكن مطلوباً ولا من الذين أهدر الرسول ﷺ دمهم، ولكنه لمواقفه المعادية الشديدة خاف على نفسه فاخفى وسيأتي تفصيل قصة اختفائه ثم إسلامه.

٢ - عبد الله بن سعد بن أبي سرح، أخو عثمان بن عفان من الرضاعة: كان محكوم عليه بالإعدام وأعطيت التعليمات من الرسول القائد ﷺ قبل دخول مكة إلى كل جنود الإسلام أن يقتلوه بمجرد أن يظفر به أي واحد منهم، وستأتي قصة إسلامه إن شاء الله.

الفارون من مكة يوم الفتح : أما الذين هربوا من مكة من زعماء قريش يوم الفتح فهم.

١ - صفوان بن أمية الجُمُحي: وهذا الزعيم ليس من المطلوبين ولا من الذين أهدرت دماؤهم.

٢ - عكرمة بن أبي جهل المخزومي: وهو من الذين أهدر النبي ﷺ دمهم.

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٢١.

- ٣- هبّار بن الأسود<sup>(١)</sup> وهو أيضاً من المظلّوين ومن الذين أهدرت دماؤهم.
- ٤- هبيرة بن أبي هبيرة: وهو ليس من المظلّوين الذين أهدرت دماؤهم.
- ٥- عبد الله بن الزبعرى<sup>(٢)</sup>: كذلك لم يكن هذا الزعيم من المظلّوين الذين أهدرت دماؤهم.
- ٦- حويطب بن عبد العزى العامري، وهو أيضاً ليس من المظلّوين، الذين أهدرت دماؤهم.
- ٧- وكذلك العبد وحشي قاتل حمزة: ولم يكن أيضاً ممن أهدرت دماؤهم ولكنه خاف على نفسه فهرب وقد عفا عنه الرسول ﷺ بعد أن أسلم، وسنأتي بالتفصيل (إن شاء الله) على قصص هروب واختفاء هؤلاء وإسلام من أسلم منهم، وكلّهم أسلم وَحَسُنَ إسلامه ماعدا واحداً منهم لم يعد إلى مكة ومات مشركاً.
- قصة اختفاء سهيل بن عمرو وإسلامه: كان سهيل بن عمرو العامري سيد من سادات قريش، وكان خطيبها المفوّه وزعيمها السياسي، كان رئيس وفد قريش في مفاوضات الحديبية والذي وقع نيابة عنها صلح الحديبية، وقد وقع أسيراً يوم بدر في أيدي المسلمين في السنة الثانية من الهجرة، ثم أطلق الرسول ﷺ سراحه عن طريق الفداء.
- لم يكن سهيل بن عمرو - كما قلنا - من المظلّوين للعدالة ولا من الذين أهدر الرسول ﷺ دماءهم من أهل مكة ولكنه كان يشعر بأن إساءته للرسول طوال عشرين سنة كانت بالغة. فكان لذلك يَحْشَى (وبتفكيره الجاهلي) أن يكون عرضة للانتقام من المسلمين الذين أصبحوا سادة مكة، ولكنه مع خوفه هذا لم يهرب من مكة، وإنما أغلق على نفسه بابه، ثم بعث في طلب ابنه عبد الله بن سهيل الملقب (بأبي جندل) وهو صاحب القصة المشهورة يوم الحديبية. كان من السابقين في الإسلام، وهو من أبطال ثورة العيص، بعث سهيل في طلبه، وعندما حضر طلب منه أن يحصل له على أمان يعلمه الناس.

(١) انظر قصة إسلام هبّار بن الأسود فيما يلي من هذا الكتاب.

(٢) انظر قصة إسلام ابن الزبعرى فيما يلي من هذا الكتاب.

ولترك سهيل بن عمرو نفسه يحدثنا عن قصته، فقد روى عنه أنه قال: لما دخل رسول الله ﷺ مكة وظهر، انقحمت بيتي وأغلقت على بابي، وأرسلت إلى ابني عبد الله بن سهيل أن اطلب لي جواراً من محمد، وإني لا آمن أن أقتل، وجعلت أتذكر أثرى عند محمد وأصحابه، فليس أحد أسوأ أثراً مني، وإني لقيت رسول الله ﷺ يوم الحديبية بما لم يلقه أحد، وكنت كاتبه مع حضوري بدرًا وأحدًا وكلما تحركت قريش كنت فيها.

فذهب عبد الله بن سهيل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، تؤمنه؟ فقال: نعم، هو آمن بأمان الله فليظهر، ثم قال رسول الله ﷺ لمن حوله: من لقي سهيل بن عمرو فلا يشد النظر إليه، فليخرج فلعمري إن سهيلاً له عقل وشرف، وما مثل سهيل جهل الإسلام، ولقد رأى ما كان يوضع فيه أنه لم يكن له بنافع.

فخرج عبد الله إلى أبيه فأخبره بمقالة رسول الله ﷺ، فقال سهيل: كان والله برًا صغيراً وكبيراً، فكان سهيل يقبل ويدبر، وخرج إلى حنين مع النبي ﷺ وهو على شركه حتى أسلم «طائعاً مختاراً» بالجعراثة<sup>(١)</sup>.

وكان سهيل بن عمرو راجح العقل حسن الطوية: وروى عن الشافعي أنه قال: كان سهيل محمود الإسلام من حين أسلم<sup>(٢)</sup>، وقد كان سهيل بن عمرو ضمن جيوش الفتح في الشام ومات هناك مرابطاً بالطاعون<sup>(٣)</sup>.

قصة عبد الله بن سعد بن أبي سرح وإلغاء عقوبة إعدامه: أما عبد الله بن سعد بن أبي سرح<sup>(٤)</sup> فقد كان من زعماء قريش، وكان أحد المطلوبين الذين أهدر الرسول ﷺ دماءهم وأمر جنده بقتلهم حتى وإن تعلقوا بأستار الكعبة.

وجرمه أنه كان قد أسلم وهاجر، وكان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ ثم عبث به الشيطان فارتد عن الإسلام ورجع إلى مكة، فحكم عليه الرسول ﷺ بالإعدام لأنه مرتد، وحكم المرتد في الإسلام القتل، وهذا بإجماع المسلمين.

(١) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٨٤٧.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ج ٢ ص ٩٢.

(٣) انظر ترجمة سهيل بن عمرو في كتابنا (غزوة بدر الكبرى).

(٤) انظر ترجمة عبد الله بن سعد بن أبي سرح (فيما مضى من هذا الكتاب).

ولهذا فإن ابن أبي سرح لما تمت السيطرة لجيش الإسلام على مكة أيقن أنه مقتول إن لم يحصل على عفو خاص من الرسول الأعظم ﷺ، لذلك لجأ إلى أخيه من الرضاة عثمان بن عفان في بيته وطلب منه أن يسعى لدى الرسول ﷺ ليعطي له الأمان، وقد فعل عثمان ونجح في مسعاه حيث ذهب به إلى رسول الله ﷺ ومازال به حتى عفا عنه وبايعه على الإسلام.

قال الواقدي : فلما كان يوم الفتح جاء ابن أبي سرح إلى عثمان بن عفان وكان أخاه من الرضاة، فقال: يا أخي، إني والله اخترت فاحتسبني هاهنا، واذهب إلى محمد فكلمه في، فإن محمداً إن رأي ضرب الذي فيه عيناى، إن جرّمي أعظم الجرّم، وقد جئت تائباً، فقال: بل اذهب معي.

قال عبد الله: والله لئن رأي ليضربن عنقي ولا يناظرني، قد أهدر دمي، وأصحابه يطلبوني في كل موضع، فقال عثمان انطلق معي، فلا يقتلك إن شاء الله.

فلم يرع رسول الله ﷺ إلا بعثمان أخذ بيد عبد الله بن سعد بن أبي سرح واقفين بين يديه، فأقبل عثمان على النبي ﷺ ، فقال: يا رسول الله، إن أمه «أي عبد الله بن سعد» كانت تحملي وتمشي، وترضعني وتقطعه، وكانت تطفني وتركه، فهبه لي، فأعرض عنه رسول الله ﷺ ، وجعل عثمان كلما أعرض عنه النبي ﷺ بوجهه استقبله فيعيد عليه هذا الكلام، فأنما أعرض النبي ﷺ عنه إرادة أن يقوم رجل فيضرب عنقه، لأنه لم يؤمنه، فلما رأى أن لا يقدم أحد وعثمان قد أكب على رسول الله ﷺ يقبل رأسه وهو يقول: يا رسول الله، تباعه فذاك أبي وأمي، فقال رسول الله ﷺ: نعم، ثم التفت إلى أصحابه فقال: ما منعكم أن يقوم رجل منكم إلى هذا الكلب فيقتله؟ أو قال: (الفاستق) فقال عباد ابن بشر: ألا أومأت إلى يا رسول الله؟ فو الذي بعثك بالحق إنني لأتبع طرفك من كل ناحية رجاء أن تشير إلى فأضرب عنقه، ويقال: قال: هذا أبو اليسر، ويقال عمر بن الخطاب، فقال رسول الله ﷺ: إني لا أقتل بالإشارة وقائل يقول: إن الرسول ﷺ قال يومئذ: إن النبي لا تكون له خائنة الأعين<sup>(١)</sup>.

(١) أي يضمّر في نفسه غير ما يظهره. فإذا كف لسانه وأوما بعينه فقد خان، وإذا كان ظهور تلك الحالة من قبل العين سميت خائنة الأعين كذا قال في النهاية في غريب الحديث ج ٢ ص ٦.

فبايعه رسول الله ﷺ، فجعل يفر من رسول الله كلما رآه خجلاً، فقال عثمان لرسول الله ﷺ: بأبي أنت وأمي لو ترى ابن أم عبد الله يفر منك كلما رآك، فتبسم النبي ﷺ فقال: أو لم أبايعه وأؤمنه؟ قال: بلى أي رسول الله، ولكنه يتذكر عظيم جرمه في الإسلام، فقال النبي ﷺ: الإسلام يجب ما كان قبله، فرجع عثمان إلى ابن أبي سرح فأخبره، فكان يأتي فيسلم على النبي ﷺ مع الناس<sup>(١)</sup>.

وقد ذكر المؤرخون أن عبد الله بن سعد بن سرح حسن إسلامه، ولم يحفظ عليه أو يظهر منه ما يعيبه في دينه وينكر عليه<sup>(٢)</sup>.

بل لقد كانت آثاره عظيمة في حقول الجهاد ورفع راية الإسلام وإعزاز دولته، فقد كان من أبرز قادة الفتح الإسلامي<sup>(٣)</sup>.

لقد كان اليد اليمنى للقائد عمرو بن العاص الذي فتح مصر، وكان قائد ميمنة الجيش الذي استولى على مدينة قيسارية بفلسطين، وكان لإخلاصه وقدرته القيادية ومهارته الحربية يبعث به عمرو بن العاص حاكم مصر وقائد الجيوش فيها (بعد فتحها) يبعث به فيغير على الرومان في أفريقيا (المسماة اليوم بليبيا) فيظفر ويتنصر في كل غارة يقوم بها، مما أكبره في عين الخليفة الفاروق الخبير بالرجال: والذي ولاه (في عهد ولاية ابن العاص) صعيد مصر<sup>(٤)</sup>.

وقد ارتفعت به أعماله وطول باعه في الجهاد ورشحته لأعلى المناصب حتى أسندت إليه ولاية مصر كلها في عهد الخليفة عثمان<sup>(٥)</sup>، ثم قاد الجيوش بنفسه من مصر نحو أفريقيا الشمالية فاجتاحها جيوشه فحرر كل الأقاليم الممتدة من حدود مصر حتى منطقة القيروان بتونس، وكان يسانده عقبة بن نافع وغيره من القواد الأكفاء، وهو الذي هزم

(١) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٨٥٦.

(٢) انظر أسد الغابة ج ٣ ص ٣٦٤ والاستيعاب ج ٣ ص ٩١٨ وتهذيب الأسماء واللغات ج ٢ ص ٢٧٠ وجوامع السيرة (لابن حزم) ص ٢٣٢.

(٣) انظر قادة فتح المغرب العربي للواء محمود شيت خطاب.

(٤) فتح مصر والمغرب ص ٢٣٣.

(٥) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٦٦.

ملك أفريقيا الروماني «جرجير» في موقعة عقوبة<sup>(١)</sup> التاريخية التي اشترك فيها «تحت قيادة عبد الله بن سعد» عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمرو بن العاص والحسن والحسين ابنا عليّ بن أبي طالب وعبد الله بن جعفر.

وكان عبد الله بن سعد من أبرز القادة الذين اشتركوا في فتح جزيرة قبرص، كما أنه أيضاً أكمل فتح دنقلة في السودان، وبفضله دخل كثير من أهلها في الإسلام.

معركة ذات الصواري البحرية: ولعل من أعظم أعمال عبد الله بن سعد بن أبي سرح وأروعها، انتصاره في أول وأعظم معركة بحرية تدور في البحر الأبيض المتوسط بين الأسطولين الإسلامي والروماني بالقرب من المياه التونسية.

كان عبد الله بن سعد وإلى مصر، وكان معاوية بن أبي سفيان والي الشام، وبلغ المسلمين أن الرومان بقيادة قسطنطين بن هرقل قد جهزوا من القسطنطينية «اسطمبول» أسطولاً يضم حوالي ألف سفينة، فأمر الخليفة عثمان في المدينة كلاً من معاوية في الشام وابن أبي سرح في مصر أن يسارعوا لملاقاة الأسطول الروماني، فركب معاوية البحر بأسطوله في أهل الشام، وخرج ابن أبي سرح بأسطوله من الإسكندرية، فالتقوا بالأسطول الروماني في عرض البحر، وكان قائد أسطول الإسلام عبد الله بن سعد بن أبي سرح، فقاتل المسلمون بقيادته الرومان أشد قتال حتى هزموهم شر هزيمة ودمروا أسطولهم، ولم ينج من الرومان في هذه المعركة البحرية الحاسمة إلا الشريد ومنهم قائدهم قسطنطين الذي فرّ جريماً على ظهر سفينة القيادة الخاصة ولقي حتفه في جزيرة صقلية «سيشيليا».

وقد دلت تصرفات عبد الله بن سعد على أنه من زهاد الصحابة، فقد اعتزل الفتنة عقب مقتل الخليفة عثمان، رغم أن عثمان أخوه من الرضاعة، وقد اعتكف في مدينة عسقلان بفلسطين، وظل هناك حتى توفي وهو ساجد في صلاة الفجر، وكان قد دعا الله تعالى أن تكون خاتمة أعماله صلاة الصبح فأجاب الله دعاءه<sup>(٢)</sup>.

(١) عقوبة: قال البلاذري: موضع بينه وبين سبيطة يوم وليلة، وسبيطة: قال ياقوت: مدينة من مدن أفريقيا الشهيرة تبعد عن القيروان سبعون ميلاً.

(٢) انظر قادة فتح المغرب العربي.

فرار صفوان بن أمية ثم إسلامه : أما صفوان بن أمية بن خَلَفَ (١) فقد كان من أكبر سادات المشركين وأثريائهم، وكان شديد العداوة لرسول الله ﷺ وهو الذي وضع خطة لاغتيال النبي ﷺ وهو في المدينة بعد معركة بدر (٢) وكلف عمير ابن وهب الجمحي بتنفيذها (٣)، وكان أبوه أمية بن خلف قد قتله المسلمون يوم بدر، كما قتلوا أيضاً أبي بن خَلَفَ في أحد: طعنه الرسول ﷺ بحربة - وكان الخبيث يطارد الرسول ﷺ أثناء انسحابه إلى الجبل - فمات أبي متأثراً بجراحه بسرّف قريباً من مكة.

ولم يكن الزعيم صفوان بن أمية من المطلوبين العشرة الذين أهدر الرسول ﷺ دمهم. إلا أنه لشعوره بعظيم ما كان يرتكب من آثام في الجاهلية في حق النبي ﷺ لم يطمئن على حياته، فخاف القتل، فهرب من مكة يوم الفتح في اتجاه البحر الأحمر ناحية «جدة» يريد ركوب البحر، وكان يصحبه غلام له يقال له يسار، ليس معه غيره.

وقد وصل بصفوان بن أمية الهرب إلى ميناء على البحر الأحمر يقال له «الشعبية» (٤) بالقرب من جدة، وكان يهم وغلامه بركوب البحر، وبينما هو كذلك إذا بصديقه عمير بن وهب الجمحي قد لحق به حيث هو في ميناء الشعبية، فخاف صفوان من عمير، وظن أنه إنما جاء ليقتله بينما عمير لم يأت إلا ليعيد صفوان إلى أهله في مكة آمناً بأمان رسول الله .

وكان عمير بن وهب الجمحي من السابقين في الإسلام، ومن أصحاب الرسول المقربين، وكان حريصاً على سلامة صفوان بن أمية وطامعاً في إسلامه. فكلم عمير النبي ﷺ في صفوان وطلب له الأمان، فأعطاه الرسول الأمان لصفوان لذلك لحق عمير بصفوان في الشعبية، وأخبره أنه حصل له على الأمان من الرسول ﷺ وأنه بإمكانه العودة إلى مكة حُرّاً آمناً، ولكن صفوان لم يطمئن وأبلغ عمير بن وهب بأنه لن يعود إلى مكة ولن يطمئن إلا إذا أتاه بعلامة من الرسول يعرفها.

(١) انظر ترجمته في كتابنا (غزوة بدر الكبرى).

(٢) انظر تفاصيل محاولة الاغتيال هذه في كتابنا (غزوة بدر الكبرى).

(٣) انظر ترجمة عمير بن وهب في كتابنا (غزوة بدر الكبرى).

(٤) الشعبية (بضم الشين) قال ياقوت: مرفأ السفن من ساحل بحر الحجاز وهو كان مرفأ مكة ومرسى سفنها قبل جدة.

فاضطر عمير بن وهب إلى أن يعود إلى مكة مرة أخرى ليأتي لصفوان بعلامة الأمان وهي عمامة رسول الله ﷺ ، التي عاد بها عمير إلى صفوان في الشعبية، وهنا اطمأن صفوان وعاد إلى مكة، وترك الرسول ﷺ الحرية لصفوان، فبقى على شركه عدة أسابيع، ثم أسلم فحسن إسلامه وصار من خيرة المسلمين.

ولترك الواقدي يحدثنا كامل قصة سيد بني جمح صفوان بن أمية هذا، قال: وأما صفوان بن أمية، فهرب إلى الشعبية معه يسار وليس معه غيره، فقال ويحك، انظر من ترى، قال: هذا عمير بن وهب، قال صفوان: ما أصنع بعمير؟ والله ما جاء إلا يريد قتلي، قد ظاهر محمداً عليّ فلحقه، فقال: يا عمير، ما كفاك ما صنعت بي؟ حملتني دينك وعيالك<sup>(١)</sup> ، ثم جئت تريد قتلي، قال: أبا وهب، جعلت فداك، جئتك من عند أبر الناس وأوصل الناس، وقد كان عمير قال لرسول الله ﷺ : يا رسول الله، سيد قومي خرج هارباً ليقذف نفسه في البحر، وخاف أن لا تؤمنه، فأمنه فذاك أبي وأمي، فقال رسول الله ﷺ: قد أمنتها، فخرج في أثره، فقال: إن رسول الله ﷺ قد أمنك، فقال صفوان: لا والله، لا أرجع معك حتى تأتيني بعلامة أعرفها فرجع إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله جئتُ صفوان هارباً يريد أن يقتل نفسه فأخبرته بما أمنتها: فقال: لا أرجع حتى تأتني بعلامة أعرفها، فقال رسول الله ﷺ: خذ عمامتي، قال: فرجع عمير إليه بها وهو البرد الذي دخل فيه رسول الله ﷺ يومئذ معتجراً به، برد حبرة، فخرج عمير في طلبه الثانية جاء بالبرد فقال: أبا وهب، جئتك من عند خير الناس وأوصل الناس وأبر الناس، وأحلم الناس، مجده مجدك ، وعزه عزك، وملكه ملكك، ابن أملك وأبيك أذكرك الله في نفسك، قال له: أخاف أن أقتل: قال: قد دعاك إلى أن تدخل في الإسلام، فإن رضيت وإلا سيرك شهرين، فهو أوفى الناس وأبرهم، وقد بعث إليك ببرده الذي دخل به معتجراً، تعرفه؟ قال: نعم فأخرجه، فقال: نعم، هو هو فرجع صفوان حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ وهو يصلي بالمسلمين العصر بالمسجد، فوقفا، فقال صفوان: كم تصلون في اليوم والليلة؟ قال: خمس صلوات، قال: يصلي بهم محمد؟ قال: نعم، فلما سلم صاح صفوان: يا محمد إن عمير بن وهب جاءني ببردك، وزعم أنك دعوتني إلى القدوم عليك، فإن رضيت أمراً وإلا سيرتني شهرين، قال انزل أبا وهب، قال: لا والله، حتى تبين لي. قال: بلى تسير أربعة أشهر، فنزل صفوان، وخرج رسول الله ﷺ قبل هوازن، وخرج معه

(١) يشير بذلك إلى أنه تحمل دين عمير والصراف على بناته السبع مقابل أن يقوم باغتيال الرسول ﷺ ولكنه لم يفعل (انظر تفاصيل محاولة الاغتيال هذه في كتابنا غزوة بدر الكبرى).



صفوان وهو كافر وأرسل إليه يستعيره سلاحه، فأعاره سلاحه، مائة درع بأداتها، فقال: طوعًا أو كرهًا؟ قال رسول الله ﷺ: عارية مؤداة فأعاره، فأمره رسول الله ﷺ فحملها إلى حنين، فشهد حنينًا والطائف ثم رجع رسول الله ﷺ إلى الجعرانة، فبينما رسول الله ﷺ يسير في الغنائم ينظر إليها، ومعه صفوان بن أمية، جعل صفوان ينظر إلى شعب ملئ نعمًا وشاء ورعاء، فأدام إليه النظر، ورسول الله ﷺ يرمقه، فقال: أبا وهب، يعجبك هذا الشعب؟ قال: نعم، قال: هو لك وما فيه، فقال صفوان عند ذلك: ما طابت نفس أحد بمثل هذا إلا نفس نبي، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، وأسلم مكانه<sup>(١)</sup>

كيف أسلم عكرمة بن أبي جهل : أما عكرمة بن أبي جهل المخزومي<sup>(٢)</sup> فقد كان من أشد الناس عداوة لرسول الله ﷺ وقد خلف أباه في هذه العداوة، إلا أنه كان «مع شدته في عداوة رسول الله ﷺ» أعف من أبيه، فلم يكن فاحشًا مثله، بل كان أقرب إلى الاستجابة إلى صوت المنطق والصراحة في وزن الأمور بموازينها الصحيحة، يدل على ذلك أنه كان - عندما اشتجر أبو سفيان بن حرب وخالد بن الوليد عندما أعلن الأخير قبل الفتح أن محمدًا على الحق، وحاول أبو سفيان الهجوم على خالد لقوله هذا - كان عكرمة قد وقف موقف المتعقل المتوقع النصر والغلبة لرسول الله ﷺ ، فحجز يومها بين أبي سفيان وخالد، وطلب من أبي سفيان أن يدع خالدًا وشأنه، قائلًا له ما معناه: إنني أخشى أو أتوقع أن لا يأتي العام القادم إلا وقد دخلنا فيما دخل فيه خالد.

إلا أن عكرمة «مع ذلك» غلبت عليه يوم الفتح عصبية الجاهلية المترسبة في نفسه، فلم يوافق أبا سفيان على اتفاقية تسليم مكة للجيش النبوي دون قتال، فقاد مجموعة من القرشيين قاوم بها قطعات خالد بن الوليد في الخندمة جنوبي مكة هو وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو فهزموا في الحال.

فرار عكرمة إلى اليمن : وكان عكرمة من القادة المطلوبين الذين «قبل دخول مكة» أهدر الرسول ﷺ دماءهم وأمر بقتلهم ولو تعلقوا بأستار الكعبة لجرائم استحقوا بها القتل؛ لذلك لم تكد جيوش الإسلام تستولي على مكة حتى ركب عكرمة وغادر مكة هاربًا نحو الغرب في اتجاه جدة يريد اليمن «عن طريق البحر» خوفًا من القتل، وقد وصل

(١) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٨٥٣ وما بعدها.

(٢) انظر ترجمة عكرمة بن أبي جهل في كتابنا (غزوة بدر الكبرى).

جدة ووجد سفينة على وشك الإبحار من جدة إلى اليمن، فركبها، وبينما كانت السفينة على وشك أن تبخر بعكرمة إلى اليمن، فركبها، إذا بزوجته الوفية أم حكيم<sup>(١)</sup> تصل إلى ميناء جدة وتطلب منه العدول عن الهرب، وتبلغه بأنه في إمكانه أن يعود إلى مكة آمنًا.

أم حكيم تحصل لزوجها عكرمة على الأمان من رسول الله: وكانت أم حكيم - وهي امرأة عاقلة - قد أسلمت يوم الفتح مع هند بنت عتبة، وطلبت من رسول الله ﷺ أن يتفضل فيعضو عن زوجها عكرمة، ويمنحه الأمان، ويلغي الأمر الصادر بإعدامه، فقد قالت: يا رسول الله، قد هرب عكرمة منك إلى اليمن، وخاف أن تقتله، فأمنه، فقال رسول الله ﷺ: هو آمن<sup>(٢)</sup>.

فحزمت أم حكيم أمرها وسافرت في اتجاه جدة لتبلغ زوجها أمان الرسول ﷺ الذي أعطاه له ولتطلب منه أن يعود إلى مكة.

وكانت قد اصطحبت معها غلامًا لها مملوكًا إلى جدة، فاستغل الوضع المضطرب التي هي عليه، فراودها عن نفسها أثناء الطريق، فجعلت تمنيه «وكانت امرأة عفيفة فاضلة عاقلة» حتى قدمت على حي من العرب هم بنو عك، فطلبت منهم اعتقال الغلام - بعد أن أخبرتهم خبر صنيعه القبيح - فأوثقوه كتافًا، وأبقوه لديهم حسب طلبها، ثم واصلت سفرها حتى وصلت ميناء جدة.

وكان عكرمة قد ركب السفينة، وعندما ركبها قال له ربانها «وكان مسلمًا» أخلص. فقال: أي شيء أقول؟ قال: قل: لا إله إلا الله. قال عكرمة «متعجبًا» ما هربت إلا من هذا.

وبينما هو، هكذا يحاور ربان السفينة، إذ بامراته الوفية العفيفة أم حكيم بنت الحارث بن هشام واقفة على رصيف الميناء، وتناديه في «إلحاح»: يا بن عم، جئتك من عند أوصل الناس وأبر الناس وخير الناس، لاتهلك نفسك، فوقف لها، واستوضحها: ما الخبر؟ فقالت: إني استأمنت لك محمدًا رسول الله ﷺ، قال: أنت فعلت ذلك؟ قالت نعم،

(١) انظر ترجمة أم حكيم هذه في كتابنا (غزوة أحد).

(٢) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٨٥١.

فلم يتردد في تصديقها، فغادر السفينة إلى البر ورجع معها.

وفي أثناء العودة إلى مكة سألها عن غلامها الرومي: فأخبرته خبر محاولته الدنيئة، فلما وصل حيث الغلام مكتوفاً قتله في الحال، وذلك قبل أن يسلم.

فلما دنا عكرمة من مكة، بشر النبي ﷺ أصحابه بإسلام عكرمة، فقال: يأتيكم عكرمة ابن أبي جهل مؤمناً مهاجرًا، ثم نهى عن سب أبيه أبي جهل قائلاً: لا تسبوا أباه فإن سب الميت يؤذي الحي ولا يبلغ الميت.

قالوا وجعل عكرمة «قبل أن يسلم» يطلب امرأته للفراش، فتأبى عليه وتقول: إنك كافر وأنا مسلمة، فيقول إن امرأاً منعك مني لأمر كبير.

قيام الرسول ﷺ لعكرمة فرحاً بإسلامه: وذكر المؤرخون أن الرسول ﷺ لما أقبل عليه عكرمة بن أبي جهل وثب إليه - وما على النبي ﷺ رداء - فرحاً بعكرمة، ثم جلس رسول الله ﷺ فوقف بين يديه، وزوجته منتقبة، فقال: يا محمد إن هذه أخبرتني أنك أمنتني، فقال رسول الله ﷺ: صدقت، فأنت آمن، فقال عكرمة: فإلى ما تدعو؟ قال: أدعوك إلى أن تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، وأن تقيم الصلاة وتؤتي الزكاة، وعد عليه بقية واجبات الإسلام، فقال عكرمة: والله ما دعوت إلا إلى الحق وأمر حسن جميل، قد كنت والله فينا قبل أن تدعو إلى ما دعوت إليه وأنت أصدقنا حديثاً وأبرنا برًا، ثم قال عكرمة: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

فسرَّ بذلك رسول الله ﷺ لأن عكرمة سيد من السادات وقائد من القادة الذين وزنهم في المجتمع القرشي، بالإضافة إلى شجاعته التي استفاد منها الإسلام كإحدى الطاقات الفعالة في الحرب ضد أعدائه، فقد كانت مواقف عكرمة البطولية إلى جانب الإسلام في حروب الردة وفي حروب الشام، مواقف لا تنكر.

عكرمة المهاجر المجاهد: وبعد أن شهد عكرمة شهادة الحق، قال للنبي ﷺ ثم ماذا؟ قال رسول الله ﷺ: تقول أشهد الله وأشهد من حضر أنني مسلم مهاجر مجاهد، فقال عكرمة ذلك، فقال رسول الله ﷺ: لا تسألني اليوم شيئاً أعطيه أحداً إلا أعطيتك، فقال عكرمة: فإني أسألك أن تستغفر لي كل عداوة عاديته، أو مسير وضعت فيه، أو مقام لقيت فيه، أو كلام قلته في وجهك، أو أنت غائب عنه، فقال رسول الله ﷺ: اللهم اغفر له كل عداوة عادانيها وكل مسير سار فيه إلى موضع يريد بذلك المسير إطفاء نورك، فاغفر له ما نال مني من عرض، في وجهي أو وأنا غائب عنه.

فقال عكرمة: رضيت يا رسول الله ثم قال عكرمة: أما والله يا رسول الله لا أدع نفقة كنت أنفقها في صد عن سبيل الله إلا أنفقت ضعفها في سبيل الله، ولا قتال في صد عن سبيل الله إلا أبلت ضعفه في سبيل الله، ثم اجتهد في القتال حتى قُتل شهيداً، ثم أقر رسول الله ﷺ عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية على نكاحهما الأول<sup>(١)</sup>، وقالوا: إن هناك بشائر وإرهاصات رآها النبي ﷺ وأخبر أن عكرمة ابن أبي جهل سيكون من خيار المسلمين.

فقد روى أن النبي ﷺ رأى في منامه - قبل إسلام عكرمة - أنه في الجنة ورأى عدقاً فأعجبه وقال: لمن هذا؟ فقيل لأبي جهل، فشق ذلك عليه ﷺ وقال: لا يدخلها إلا نفس مؤمنة.

فلما أسلم عكرمة بن أبي جهل فرح به وأول ذلك العذق لعكرمة، وكان عكرمة - قبل إسلامه - بارز رجلاً من المسلمين فقتله، فضحك النبي ﷺ: فقال له بعض الأنصار ما أضحكك يا رسول الله وقد فجعنا بصاحبنا؟ فقال: أضحكني أنهما في درجة واحدة في الجنة<sup>(٢)</sup> مشيراً بذلك إلى أن عكرمة سيقتل شهيداً، وقد حدث ذلك فقد استشهد عكرمة في معركة اليرموك وهو يقود كتيبة كلها من الفدائين ذلك اليوم<sup>(٣)</sup>.

قصة الهارب هبار بن الأسود: كان هبار بن الأسود في الجاهلية لسناً فصيحاً يؤلب الناس على رسول الله ﷺ وكان سيئ الخلق عظيم الشر، لا تعرف الرحمة سبيلاً إلى قلبه، فهو الذي عندما هاجرت زينب بنت النبي ﷺ لتلحق بأبيها إلى المدينة وكانت حاملاً - من زوجها العاص بن أبي الربيع - لحق بها هبار بن الأسود - بأطراف مكة ونخس بها الحمل الذي تركبه، فسقطت على الأرض ثم ضربها بالرمح على ظهرها، حتى أسقطت جنينها، وما زالت مريضة بالنزيف الذي كان يعاودها من ذلك اليوم حتى ماتت رحمها الله.

فكان هبار بن الأسود يعتبر مسؤولاً عن موتها وموت جنينها: ولهذا كان من المطلوبين الذين أهدر النبي ﷺ دمهم يوم الفتح، وكان يعلم أن حكماً بالإعدام قد صدر بحقه.

(١) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٨٥٣. وزاد المعاد ج ٢ ص ٢٩٨ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢١٦ - ٢١٧.

(٢) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢١٧.

(٣) انظر تاريخ ابن عساكر ترجمة عكرمة بن أبي جهل.

لذلك هرب يوم الفتح من مكة ولحق بالبادية وظل متوارياً، عن الأنظار خوفاً من أن يقع في قبضة أحد من أصحاب النبي ﷺ فينفذ فيه حكم الإعدام الصادر بحقه. وظل هبار مختفياً في البادية حتى واقع النبي ﷺ هوازن في حنين وانتصر عليهم وعاد إلى المدينة بأصحابه.

ولما هدأت الأحوال ودخل أهل مكة كلهم في الإسلام، واستقر النبي ﷺ في المدينة، قرر هبار بن الأسود أن يذهب بنفسه إلى المدينة ويسلم نفسه للرسول ﷺ ويطلب منه العفو، وفعلاً ذهب إلى المدينة ودخل المسجد على رسول الله ﷺ فعرفه ورغم أنه أصدر حكماً عليه بالإعدام فقد أمر أصحابه بأن لا يمسه أحد بسوء لأنه عرف أنه ما جاء إلا ليعلن إسلامه.

وقد روى الواقدي قصة هبار هذا فقال: حدثني هشام بن عمار عن سعيد بن محمد ابن جبير بن مطعم<sup>(١)</sup> عن أبيه عن جده، قال: كنت جالساً مع رسول الله ﷺ في أصحابه منصرفاً من الجعرانة، فطلع هبار بن الأسود فلما نظر القوم إليه قالوا: يا رسول الله، هبار بن الأسود، قال رسول الله ﷺ: قد رأيته، فأراد بعض القوم القيام إليه، فأشار النبي ﷺ أن اجلس.

ووقف هبار فقال: السلام عليك يا رسول الله، إني أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله، ولقد هربت منك في كل البلاد وأردت اللحوق بالأعاجم، ثم ذكرت عائدتك وفضلك وبرك وصفحك عمن جهل عليك، وكنا يا رسول الله أهل شرك فهدانا الله عز وجل بك، وأنقذنا بك من الهلكة، فاصفح عن جهلي و عما كان يبلغك عني، فإني مقر بسوء فعلي معترف بذنبي. فقال رسول الله ﷺ: قد عفوت عنك، وقد أحسن الله بك حيث هداك للإسلام، والإسلام يجب ما قبله<sup>(٢)</sup>.

وقال الزبير بن العوام: ما رأيت رسول الله ﷺ ذكر هباراً قط إلا تغيط عليه، ولا رأيت رسول الله ﷺ بعث سرية قط، إلا قال: إن ظفرتم بهبار فاقطعوا يديه ورجليه ثم اضربوا عنقه، والله كنت أطلبه وأسأل عنه، والله يعلم لو ظفرت به قبل أن يأتي إلى رسول الله ﷺ لقتلته، ثم طلع على رسول الله ﷺ وأنا عنده جالس، فجعل يعتذر إلى

(١) انظر ترجمة جبير بن مطعم في كتابنا (غزوة بدر الكبرى).

(٢) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٨٥٨ طبعة أكسفورد، تحقيق الدكتور مارسدن جونز.

رسول الله ﷺ ويقول: سُبَّ يا محمد من سبك وأوذى من آذاك، فقد كنتُ موضعاً في سبك وأذاك وكنتُ مخذولاً، وقد نصرني الله وهداني للإسلام، قال الزبير: فجعلتُ أنظر إلى النبي ﷺ وإنه ليطأطئ رأسه استحياء مما يعتذر هبار، وجعل رسول الله ﷺ يقول: قد عفوت عنك، الإسلام يجب ما كان قبله، وكان هبار لسنا، وكان يُسبُّ حتى يبلغ منه فلا ينتصف من أحد فبلغ رسول الله ﷺ حلمه وما يحمل عليه من الأذى، فقال: هبار سُبَّ من سبك<sup>(١)</sup>.

إسلام ابن الزبيري : أما عبد الله بن الزبيري ، وهبيرة بن أبي وهب؛ فقد كانا من سادات المشركين في مكة وذوي الشأن فيها، إلا أنه لم يصدر بمقهما حكم الإعدام كما صدر بحق ابن الأخطل وهبار بن الأسود وابن منقذ، ولكنهما، (رغم ذلك)، خافا على أنفسهما فهربا من مكة يوم الفتح، وكان ابن الزبيري شاعراً مجيداً يهجو رسول الله ﷺ.

وكان هرب ابن الزبيري وابن أبي وهب إلى نجران في الجنوب حيث التجأ إلى قبيلة بني الحارث ودخلا حصناً لهم هناك.

غير أن عبد الله بن الزبيري، قذف الله الإسلام في قلبه فترك نجران عائداً إلى المدينة، فطلب الصفح من النبي ﷺ فصّح عنه بعد أن أعلن إسلامه، أما ابن أبي وهب فقد ركه العناد وظل مقيماً بنجران حتى مات على الشرك والعياذ بالله تعالى.

قال الواقدي: يروي قصة هرب هذين الزعيمين إلى نجران: «وهرب هُبيرة ابن أبي وهب، هو وابن الزبيري، جميعاً حتى انتهيا إلى نجران، لم يأمنا من الخوف حتى دخلا حصن نجران، فقبل لهما: ما وراءكما؟ قال: قتلت قريش ودخل محمد مكة، ونحن والله نرى محمداً سائراً إلى حصنكم هذا، فجعلت بنو الحارث بن كعب يصلحون مارث من حصنهم، وجمعوا ماشيتهم، غير أن ابن الزبيري أوقع الله الإسلام في قلبه، فتهياً للعودة إلى مكة، فقال له زميله هُبيرة بن أبي وهب: أين تريد يا بن عم؟

قال: أردت والله محمداً، قال: أتريد أن تتبعه؟ قال: أي والله، قال: يقول ابن أبي وهب: يا ليت أني رافقت غيرك، والله ما ظننت أنك تتبع محمداً أبداً، قال ابن الزبيري: هو ذلك فعلى أي شيء نقيم مع بني الحارث بن كعب وأترك ابن عمي وخير الناس وأبرهم ومع قومي وداري؟

(١) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٨٨٩.

فانحدر ابن الزبير، حتى جاء رسول الله ﷺ وهو جالس في أصحابه، فلما نظر رسول الله ﷺ إليه قال: هذا ابن الزبير ومعه وجه فيه نور الإسلام، فلما وقف على رسول الله ﷺ قال: السلام عليكم، أي رسول الله شهدت أن لا إله إلا الله وأنت عبده ورسوله، والحمد لله الذي هداني للإسلام، لقد عاديتك وأجلبت عليك، وركبت الفرس والبعر ومشيت على قدمي في عداوتك ثم هربت منك إلى نجران وأنا أريد ألا أقرب الإسلام أبداً، ثم أراد بي الله عز وجل منه بخير فألقاه في قلبي وحببه إلى وذكر ما كنت فيه من الضلالة واتباع ما لا ينفع ذا عقل من حجر يُعبد ويذبح له، لا يدري من عبده ومن لا يعبهه قال رسول الله ﷺ: الحمد لله الذي هدانا لهذا للإسلام، إن الإسلام يجب ما كان قبله، وأما هبيرة بن أبي وهب فقد أقام بنجران حتى مات مشركاً، وأسلمت زوجته أم هانئ بنت أبي طالب بمكة<sup>(١)</sup>.

هروب حويطب بن عبد العزى وإسلامه: أما حويطب بن عبد العزى<sup>(٢)</sup> فقد كان أيضاً من سادات قريش وأركانها، كان أحد أعضاء الوفد القرشي في مفاوضات صلح الحديبية التاريخي، وكان من أشد المناوئين لرسول الله ﷺ وكان حويطب ثالث ثلاثة وقعوا «نيابة عن مشركي مكة» وثيقة الصلح بين المسلمين والمشركين في الحديبية. لم يكن حويطب من الزعماء المشركين المطلوبين الذين صدر الحكم بإعدامهم يوم الفتح، ولكنه أيضاً «رغم ذلك» خاف على نفسه القتل، رغم أن الرسول ﷺ قد أصدر تعليماته المشددة بأن لا يقتل الجيش أحداً من أهل مكة إلا النفر الذين قضى بإعدامهم «وهم لا يتجاوزون العشرة على أكبر تقدير لم ينفذ حكم الإعدام إلا في ثلاثة منهم، أما الباقون فقد شملهم الرسول ﷺ بعفوه».

هرب حويطب يوم الفتح فخرج من مكة مستخفياً، فبصر به أبو ذر الغفاري (وكان صديقاً له في الجاهلية) فلما رآه أبو ذر ناداه وهدأ من روعه، وطلب منه العودة إلى مكة وتعهده له بأنه سيكون في أمان من أي سوء.

فقد ذكر المؤرخون أنه لما كان يوم فتح مكة هرب حويطب بن عبد العزى حتى انتهى إلى حائط<sup>(٣)</sup> عوف فدخل هناك، وخرج أبو ذر لحاجته وكان داخله، فلما رآه هرب حويطب فناده أبو ذر، تعال أنت آمن.

(١) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٨٤٨.

(٢) انظر ترجمة حويطب بن عبد العزى في كتابنا (صلح الحديبية).

(٣) الحائط هنا البستان.

فرجع إليه فسلم عليه ثم قال: أنت آمن، فإن شئت أدخلتك على رسول الله ﷺ وإن شئت فاذهب إلى منزلك، قال: وهل لي سبيل إلى منزلي؟ ألقى فأقتل قبل أن أصل إلى منزلي، أو يدخل على منزلي فأقتل، قال فأنا أبلغ معك منزلك، ثم جعل (أبو ذر) ينادي على بابه: إن حويطباً آمن فلا يُهجم عليه، ثم انصرف أبو ذر إلى رسول الله ﷺ فأخبره فقال: أو ليس قد آمنة كل الناس إلا من أمرت بقتله؟<sup>(١)</sup> وبهذا زال الخوف عن الزعيم العامري حويطب بن عبد العزى، ولم يعد يخشى القتل؛ لأن المسلمين تبلغوا من جديد الأمر بعدم التعرض لأحد من قريش بأي سوء (كائناً من كان) ما عدا الذين أمر الرسول ﷺ بإعدامهم، وأكثرهم عاد الرسول فالغى حكم الإعدام الصادر بحقهم فعاشوا جنوداً للإسلام أبلوا بلاءاً حسناً في سبيل نصرته مثل عكرمة بن أبي جهل وعبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري.

هل جدد الرسول نكاح الذين أسلموا وزوجاتهم؟ كان هناك عدد من مشركي قريش (بينهم زعمائهم) بعضهم أسلم قبل زوجه وبعضهم أسلم بعد إسلام زوجه فكان الإسلام قد فرق بينهم وبين زوجاتهم، فكيف عادت إليهم زوجاتهم، بعد أن أسلم الجميع بعد كفرهم؟

بعض العلماء يقول: إن النبي ﷺ قد أعاد كل زوجة على زوجها بعقد جديد، والبعض الآخر يقول: إنه أقرهم على نكاحهم الأول ودون اللجوء إلى إجراء مراسيم عقد جديد، وهذا الرأي الأخير هو الأصح.

فقد ثبت أن النبي ﷺ قد أعاد ابنته زينب إلى زوجها العاص بن الربيع الأموي عندما أسلم دون أن يجدد عقد النكاح، كما أعاد إلى سادات مكة يوم الفتح نساءهم على النكاح السابق المعقود في الجاهلية دون أن يلجأ إلى تجديده.

فقد روى يزيد بن حبيب عن عطاء بن أبي رباح، قال: أسلم أبو سفيان بن حرب، وحكيم بن حزام، ومخرمة بن نوفل، قبل نساءهم، ثم قدموا على نساءهم في العدة، فردهن رسول الله ﷺ بذلك النكاح، وأسلمت امرأة صفوان وامرأة عكرمة قبل زوجيهما، ثم أسلما، فرد رسول الله ﷺ نساءهم عليهم، وذلك أن إسلامهم كان في عدتهن<sup>(٢)</sup>، وهذا التصرف من الرسول ﷺ يضع تشريعاً عاماً وقاعدة أساسية تسهيلية: وهي أن أي

(١) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٨٥٠.

(٢) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٨٥٥.



زوجين كانا كافرين ثم أسلما معاً أو أسلم أحدهما قبل الآخر، فإنه يجوز أن يظلا زوجين دونما حاجة إلى انقضاء عدة أو إجراء مراسيم عقد زواج جديد، وهذا بحق من معطيات الإسلام في مجال التسامح وتبسيط الأمور لإفساح الطريق أمام الناس إلى الإسلام دونما تعقيد أو تشديد.

النبى ﷺ يعفو عن وحشي قاتل عمه حمزة: كان العبد الحبشي وحشي مولى لجبير بن مطعم، وكان ممن أهدر النبي ﷺ دماءهم، ولكن الرسول ﷺ ألغى حكم الإعدام الصادر بحقه، فعفى عنه، بعد أن أخبره (كما هي رغبته) كيف قتل عمه حمزة يوم أحد.

فقد حدث ابن أبي سيرة عن حسين بن عبد الله، عن عكرمة عن ابن عباس، قال: أمر رسول الله ﷺ بقتل وحشي مع نفر، ولم يكن المسلمون على أحد أحرص منهم على قتل وحشي، وهرب وحشي إلى الطائف، فلم يزل مقيماً به، حتى قدم وفد الطائف على رسول الله ﷺ، فدخل على رسول الله ﷺ، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، فقال النبي ﷺ: وحشي؟ قال: نعم، قال: اجلس، حدثني كيف قتلت حمزة، فأخبره، فلم يزد رسول الله ﷺ على أن قال: غيب عني وجهك «أي لأنه والله أعلم لا يحتمل النظر إلى قاتل أسد الله حمزة عمه»، قال وحشي: فكنت إذا رأيته تواريت عنه، ثم خرج الناس إلى مسيلمة<sup>(١)</sup> فدفعت إلى مسيلمة فزرقته<sup>(٢)</sup> بالحرية، وضربه رجل من الأنصار، فربك أعلم أينما قتله<sup>(٣)</sup>.

النبى يستلف من أغنياء مكة ليخفف من ضائقة أصحابه المالية: ورغم أن النبي ﷺ قد فتح مكة عنوة، واستولى جيشه عليها، ورغم أنه كان بإمكانه كفاتح منتصر أن يصادر ويأخذ ما شاء من أموال أثرياء مكة المغلوبين المهزومين، فإنه قد عفاً عن أن يأخذ منهم درهماً واحداً قسراً وبالقوة، رغم أن عامة جيشه الفاتح المنتصر في أمس الحاجة إلى المال، لحالة العوز والفقر التي هو عليها، بل اقترض من أولئك الأغنياء مائة وخمسين ألف درهم فوزعها على المحتاجين من جنود الجيش، ثم لما نصره الله على هوازن في معركة حنين، وغنم تلك الغنائم العظيمة من أولئك المشركين أعاد إلى أغنياء مكة ما استقرضه منهم مشفقاً بالشكر والحمد لهم.

(١) أي في حرب الردة.

(٢) زرقة به، قال في القاموس المحيط ج ٣ ص ٢٤٠: رماه.

(٣) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٨٦٣.

فقد حدث الواقدي، فقال: أرسل رسول الله ﷺ عام الفتح فاستلف من عبد الله بن أبي ربيعة أربعين ألف درهم فأعطاه، فلما فتح الله عليهم هوازن وغنمه أموالها ردها وقال: إنما جزاء السلف الحمد والأداء وقال: بارك لك في مالك وولدك.

وقال: استقرض رسول الله ﷺ من ثلاثة نفر من قريش: من صفوان بن أمية خمسين ألف درهم فأقرضه، واستقرض من عبد الله بن أبي ربيعة أربعين ألف درهم، واستقرض من حويطب بن عبد العزى أربعين ألف درهم، فكانت ثلاثين ومائة ألف، فقسمها رسول الله ﷺ بين أصحابه من أهل الضعف، قال فأخبرني من بني كنانة، كانوا مع رسول الله ﷺ في الفتح، أنه قسم فيهم دراهم فيصيب الرجل خمسين درهماً، أو أقل أو أكثر، ومن ذلك المال، بعث إلى بني جزيمة (١).

غضب الرسول لقتل رجل مشرك من هذيل بمكة يوم الفتح : كان النبي ﷺ قد أصدر عفواً عاماً عن جميع سكان مكة من المشركين يوم الفتح ما عدواً نفرًا قليلاً أمر بقتلهم ولكنه عفا فيما بعد عن أكثرهم.

وقد امتثل جميع أفراد الجيش النبوي الأمر فامتنعوا عن قتل أي مشرك في مكة أثناء سيطرتهم عليها إلا من قاتلهم، كما حدث للوحدات من الفرسان التي كان يقودها خالد ابن الوليد جنوبي مكة (المسفلة)، إلا أن بعضاً من جنود الجيش النبوي (ومن خزاعة حلفاء الرسول ﷺ) خرجوا على الانضباط العسكري فقتلوا (بدافع ثاري) رجلاً من هذيل بمكة مشركاً بعد أن أمن الرسول ﷺ الناس، الأمر الذي أغضب الرسول والقائد الأعلى للجيش، فجمع الجيش وخطبهم مستنكراً قتل الهذلي المشرك، ثم دفع ديتة لأهله.

وكان سبب القتل يرجع إلى ثارات بين قبيلة خزاعة وقبيلة هذيل: فقد خرج غزاة من هذيل في الجاهلية وفيهم جنيد بن يريدون حي أحمر بأساً، وكان أحمر بأساً رجلاً من أسلم شجاعاً لا يرام، وكان لا ينام في حيه، إنما ينام خارجاً من حاضره، وكان إذا نام غط غطيلاً منكراً، لا يخفى مكانه، وكان الحاضر إذا أتاهم فزع صرخوا (بأحمر بأساً) فيثب مثل الأسد، فلما جاءهم أولئك الغزاة من هذيل، قال لهم جنيد بن الأدلع: إن كان أحمر بأساً في الحاضر فليس إليهم سبيل، وإن كان له غطيطة لا يخفى فدعوني أسمع فتسمع الحس فسمعه، فأمه حتى وجده نائماً فقتله، حيث وضع السيف في صدره ثم اتكأ عليه فقتله، ثم حملوا على الحي، فصاح الحي يا أحمر بأساً، فلا شيء، لا أحمر بأساً. قد قتل. فنالوا من الحاضر حاجتهم، ثم انصرفوا، فتشاغل الناس بالإسلام، فلما كان بعد الفتح بيوم دخل جنيد بن الأدلع مكة يرتاد وينظر - والناس آمنون - فرآه جنيد

(١) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٨٦٤.

ابن الأعجم الأسلمي (من قبيلة أحرر بأساً) فقال .. جندب بن الأدلع، قاتل أحرر بأساً؟ فقال جنيدب: نعم.

فخرج جنيدب يستجيش عليه، وكان أول من لقي خراش بن أمية الكعبي<sup>(١)</sup> فأخبره، فاشتمل خراش على السيف ثم أقبل إليه، والناس حوله وهو يحدثهم عن قتل أحرر بأساً، فبينما هم مجتمعون عليه إذ أقبل خراش بن أمية فقال هكذا عن الرجل. فظن الناس أنه يفرج عنه الناس لينصرفوا عنه، فانفرجوا عنه، وهنا حمل عليه خراش بن أمية بالسيف فطعنه في بطنه. وابن الأدلع مستند إلى جدار من جدران مكة، فجعلت أمعاؤه تتسائل من بطنه، وأن عينه لتبرقان في رأسه وهو يقول: قد فعلتموها يا معشر خزاعة، ثم وقع الرجل، فمات في الحال<sup>(٢)</sup>.

قال الواقدي: فسمع النبي ﷺ بقتله فقام خطيباً «مستنكراً ما حدث» وهذه الخطبة الغد من يوم الفتح بعد الظهر فقال: أيها الناس إن الله قد حرّم مكة يوم خلق السماوات والأرض، ويوم خلق الشمس والقمر، ووضع هذين الجبلين، فهي حرام إلى يوم القيامة، لا يحل لمؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دمًا، ولا يعضد فيها شجرًا، لم تحل لأحد كان قبلي، ولم تحل لأحد بعدي، ولم تحل لي إلا ساعة من نهار، ثم رجعت كحرمتها بالأمس، فليبلغ شاهدكم غائبكم، فإن قال قائل: قد قتل فيها رسول الله ﷺ فقولوا: إن الله قد أحلها لرسوله ولم يحلها لكم، يا معشر خزاعة ارفعوا أيديكم عن القتل، فقد والله كثر القتل إن نفع، وقد قتلتم هذا القتيل، والله لأدينه فمن قتل بعد مقامي هذا فأهله بالخيار، إن شاءوا قدم قتيْلهم، وإن شاءوا فعقله.

وفي رواية عن جويرية بنت الحصين عن عمران بن الحصين، أن النبي ﷺ قال: لو كنت قاتلاً مؤمناً بكافر لقتلت خراشاً بالهذلي، ثم أمر رسول الله ﷺ خزاعة بنحرجون ديته، فكانت خزاعة أخرجت ديته، وكانت دية القتيل الهذلي المشرك مائة من الإبل<sup>(٣)</sup>.

(١) انظر ترجمة خراش بن أمية في كتابنا (صلح الحديبية).

(٢) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٨٤٥ ببعض التصرف.

(٣) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٨٤٣ - ٨٤٤ - ٨٤٥ - ٨٤٦.

## الخاتمة

## نظرة وتحليل :

١- بعد هزيمة الأحزاب أمام الخندق في السنة الرابعة من الهجرة، وبعد ضرب الجيش الإسلامي لأقوى العناصر العربية المحاربة: عناصر غطفان في نجد وخضد شوكتها في عمليات عسكرية متلاحقة، وبعد تصفية اليهود «وهم أقوى» قوة ضاربة تجاور المدينة في خيبر» بعد هذا الذي كسبه المعسكر الإسلامي بعد أعمال عسكرية شاقة - رسخت جذور هذا الدين وضربت في الأعماق بعيداً، وأخذ بناء الدولة الوليدة السياسي والعسكري يتصاعد عاليًا.

حتى أن الرسول ﷺ نتيجة الشعور بالاستقرار الكامل اتصل بملوك وأمراء الشرق الأوسط خارج الجزيرة العربية يدعوهم إلى الإسلام، بل ونقل المعركة إلى داخل أراضي الإمبراطورية الرومانية في الشام حيث خاض ثلاثة آلاف مقاتل من أصحابه معركة - مؤتة التاريخية - <sup>(١)</sup>، وذلك أثناء صلح الحديبية قبل أن تقدم قريش وحلفاؤها من بني بكر على نقضه.

٢- نعم بعد الاستقرار الذي نعمت به المدينة عقب خضد شوكة الخصوم المجاورين اليهود وغطفان في نجد، لم تعد هناك من قوة معادية محاربة يخشاها المسلمون في جزيرة العرب كلها سوى قبيلتين عظيمتين لهما وزنهما المعنوي والحربي والسياسي أيضاً وهما:

١- قبيلة قريش .

٢- قبيلة هوازن.

أما قريش أعظم قبائل الحجاز وأرفعها شأنًا في نظر العرب الوثنيين وعاصمتها مكة المكرمة وتستطيع أن تحشد من رجالها ومن حلفائها البكرين وبقية كنانة ستة آلاف مقاتل.

أما هوازن فهي من الناحية الحربية أعظم من قريش إذ تستطيع أن تحشد أكثر من

(١) انظر تفاصيل هذه المعركة في كتابنا السابع من هذه السلسلة (غزوة مؤتة).

ثلاثين ألف مقاتل وهي قبيلة حجازية نجدية، إذ تمتد منازلها من حدود الحرم في الحجاز حتى حدود غطفان في نجد، مما يدل على كثرة بطونها وأفخاذها.

وهي في أصلها قبيلة عدنانية، فهي وقريش من أصل واحد، ولكن هوازن لا تلتقي بقريش إلا في (مضر).

٣- كان الرسول ﷺ قد عقد صلحاً مع قريش وحلفائها وجيرانها الكنانيين من بني بكر وهو صلح الحديبية التاريخي فأمن جانب قريش - فترة ما - ولكن قريشاً نقضت هذا الصلح بعد مضي ثلاثة وعشرين شهراً فقط على عقده، مع أن مدته عشر سنوات.

وبهذا عادت الأحوال إلى ما كانت عليه من حيث قيام حالة الحرب بين المسلمين وقريش، وعودة القلق إلى صفوف المسلمين من أن تقدم قريش من جديد على أعمال عدوانية ضد المسلمين.

الأمر الذي جعل المعسكر الإسلامي يعيد النظر في تقييم حساباته العسكرية من جديد، فيوجه اهتمامه (بجدية وحذر) ناحية الجنوب حيث تقع مناطق العدو الرئيسي (قريش وهوازن).

٤- لقد كان محمد ﷺ بالإضافة إلى كونه نبياً مرسلأً ملهماً ومؤيداً بتأييد الله تعالى. كان قمة في السياسة العسكرية وبعد النظر وحسبان النتائج قبل الإقدام على العمل.

لقد كان أخشى ما يخشاه المسلمون - بعد أن نقضت قريش صلح الحديبية - أن تعقد الأخيرة مع (هوازن) حلفاً عسكرياً تواجهان به القبيلتان مجتمعتين الرسول ﷺ وأصحابه في معركة حاسمة، ولو حدث ذلك للقي المسلمون متاعب وأخطار، الله وحده يعلم بنتائجها. لأن القبيلتين تستطيعان حشد أكثر من ثلاثين ألف مقاتل، بينما المسلمون لم يستطيعوا (رغم التجنيد الإجباري) حشد أكثر من عشرة آلاف محارب.

إن النبي محمد ﷺ كقائد عسكري مسئول قد قدر قوة كل من قريش وهوازن العسكرية وحسب حسابهما، وإن الصدام معهما مجتمعتين، أو كل واحدة على انفراد ليس بالأمر الهين.

وكان من أسس أخلاق الرسول ﷺ التي هي أخلاق الإسلام في الحرب، أن يحسم

أي نزاع مسلح بأقل خسارة ممكنة إلا أنه لا يتردد في استخدام أقصى أساليب الفتك بالعدو في ساحة القتال إذا ما اضطر إلى ذلك كما حدث في بدر وحنين.

٥- ولعل من أنجح سياساته الحربية، وهو يضع خطة الغزو للسيطرة على مكة، أنه انتهج خطة الكتمان الشديد، فرغم أنه قد أعلن النفير العام وحشد عشرة آلاف من أصحابه فإنه كتم - حتى عن قادة الفرق فيهم - حقيقة الوجهة التي يقصد التحرك بهم نحوها، فلم يعرف جيشه (قادة وجنوداً) الجهة التي يقصدونها إلا بعد أن وصلوا على أربعة أميال من مكة المكرمة، كما أقفل الطرق المؤدية من المدينة إلى مكة والجنوب كله ومنع السفر كلياً فأقام حراساً يمنعون الناس من السفر ويعتقلون من يشكون في أمره، وكانت خطة الكتمان وعدم الإفصاح عن الجهة التي يريدونها ﷺ تستهدف (والله أعلم) أمرين اثنين.

١- في الدرجة الأولى مباغته أهل مكة، فلا يدرون إلا والجيش النبوي اللجب يحيط بهم على غير أهبة أو استعداد، فيسقط في أيديهم فينهارون، فتتم السيطرة لجيش الإسلام على العدو دونما أية خسارة تذكر في الأرواح بين الفريقين.

٢- إدخال البلبلة على كل من العدوين الرئيسيين هوازن وغطفان (فيما إذا اكتشف أحدهما أو كلاهما التحرك بالجيش من المدينة) بحيث لا يدرون، أيهم، ولا أي من العرب مقصود بالغزو.

وهذا هو الذي حدث بالفعل فإن كلا من قريش وهوازن لم تعلم أن قريشاً المقصودة بالغزو إلا عندما أصبح الرسول ﷺ في ضواحي مكة، أما هوازن فلم تعلم إلا بعد أن وقعت مكة المكرمة تحت سيطرة الجيش الإسلامي لأن جاسوس هوازن الذي بعثت به يرصد لها تحرك الجيش النبوي، وقع في قبضة طلائع استكشاف هذا الجيش وظل في قبضتهم حتى دخلوا مكة فعميت الأخبار عن هوازن إلى أن فتحت مكة المكرمة.

٦- وأخيراً وقعت مكة في قبضة المسلحين وسيطر عليها الجيش الإسلامي دونما أية خسارة في المعسكرين، اللهم إلا حوالي بضعة وعشرين رجلاً قتلوا دون رضا قادة الفريقين، وذلك عندما قام بعض المتطرفين من شباب قريش باعتراض قطعات خالد بن الوليد وشهروا السلاح في وجهها جنوبي مكة، ثم قضى خالد على تلك المقاومة في لحظة

وجيزة، واستتب الأمر لجيش الإسلام في مكة، فكان فتحها حدث اهتزت له جزيرة العرب ودهش له سكانها. لأنهم ما كانوا متوقعون أن مكة أعظم المعازل الروحية للوثنية والشرك ستقع بمثل تلك السهولة في قبضة قوات التوحيد.

فما هي العوامل في هذا النصر الخاطف الذي حققه جيش الإسلام، والذي ما كان (حتى المسلمون) يتوقعون حدوثه بذلك الشمول وتلك السرعة الخاطفة؟

٧- يمكن إيجاز العوامل الرئيسية في هذا النصر بصورة مختصرة فيما يلي:

١- العقيدة.

٢- المباغثة والتضليل.

٣- تهاون قريش في الاستعداد والتنظيم للمقاومة.

٤- تخلخل العقيدة الوثنية في نفوس الأكثرية من أهل مكة وعدم حماسهم لبذل الأرواح في سبيلها.

٥- بقاء قريش وحدها في ميدان معاداة المسلمين باستثناء قبائل هوازن التي رغم بقائها على الشرك لم تكن على وئام مع قريش.

«أ» أما بالنسبة للعقيدة، فإن قريشاً لها عقيدتها، ولكنها عقيدة ضحلة فاسدة تقوم على أساس المصلحة الشخصية والزعامة الفردية، فسادات قريش، رغم تعصبهم لعقيدة الشرك يعرفون في قرارة أنفسهم أنها خرافة تافهة، ولكنها عقيدة موروثية مرتبط ببقائها بقاء زعاماتهم الشخصية، وعقيدة هذا شأنها، يكون المتشبهون بها أزهق الناس فيها عندما لم تعد قادرة على الحفاظ على مصالحهم الشخصية.

أما العقيدة عند المسلمين فهي التزام لا علاقة له بالمصلحة الشخصية حتى يكون التمسك بهذه العقيدة أو التراخي عنها تبعاً لبقاء أو زوال هذه المصلحة، بل إنها التزام يقوم عليه كيان المسلم المبني على اعتقاد لا جدل فيه، اعتقاد يقول «بجزم»: إن سعادة المسلم في الدنيا وفلاحه في العالم الآخر لا سبيل إلى الظفر بهما إلا بالوفاء لهذه العقيدة وبذل أغلى ما لدى المسلم للوفاء لها والدفاع عنها، كما يقول: إن التهاون في نصر هذه العقيدة يعني تعاسة في الدنيا وشقاء في الآخرة.

لهذا شهد الصدر الأول في الإسلام من التضحية والفداء والضراوة في القتال دفاعًا عن عقيدة الإسلام، نماذج لم يسجل التاريخ مثلها منذ فجره.

في سبيل نصره العقيدة قتل الابن أباه، وأبى الأب استعداده لقتل ابنه (١)، وأبدت القلة المؤمنة من الثبات أمام الكثرة الكافرة الغامرة الساحقة ما أنزل بالأخيرة الهزائم الفاضحة المدمرة كما في - بدر وأحد وخيبر - ، أو الاندحارات المخزية والفشل الذريع كما حدث في غزوة الأحزاب.

وكانت قريش أكثر العرب عرضة لتجربة معطيات العقيدة الإسلامية في كل مجالات الصراع المسلح، لهذا كان من البديهي أن يسيطر الرعب المزلزل عليها في مكة بعد أن علمت أنها مطوقة بعشرة آلاف من المسلمين يرابطون على مشارف مكة فكان استسلامها أمرًا لا مفر منه بسبب الأمور التي ذكرنا، إنها العقيدة العامل الرئيسي في إزالة فكرة المقاومة من أذهان أهل مكة، إنهم لا يزالون يذكرون - عندما كانوا أكثر عددًا وأقوى عدة يوم بدر - لا يزالون يذكرون تقرير رجل استخباراتهم «عمير بن وهب الجمحي» حين استكشفت لهم قوات المسلمين في ذلك اليوم التاريخي، حين قال لهم: إن المسلمين ثلاث مائة وأنتم ألف، ولكنني رأيت نواضح يثرب تحمل الموت النافع فلن يطال الموت أحدًا منهم حتى يقتل رجلاً منكم على أقل تقدير، أو كما قال (٢).

«ب» أما بالنسبة لخطة الكتمان والمباغثة - وهي من أهم عوامل الانتصارات منذ فجر التاريخ حتى اليوم - فقد نجح الرسول فيها نجاحًا باهرًا - وإلى أبعد الحدود.

فقريش - بسبب إحكام خطة الكتمان - لم تعلم شيئًا عن تحركات الجيش النبوي حتى بات على مرمى الحجر من مكة المكرمة، فكان ذلك من أهم عوامل التعجيل باستسلام قريش وقبولها بالاقتراح القائل: أن تكون مكة مدينة مفتوحة، يسيطر عليها جيش الإسلام دونما أي قتال أو مقاومة، وقد كان ذلك ونفذ بكل دقة من كلا الجانبين، ما عدا جهة قطعات الفرسان التي يقودها خالد بن الوليد ، والتي لقيت من المشركين

(١) ثبت يوم بدر الكبرى أن أبا بكر الصديق طلب من ابنه عبد الرحمن مبارزته «وكان مشركًا مع قريش» ولكنه امتنع عن مبارزته.

(٢) انظر تصريحات عمير بن وهب لقيادة قريش يوم بدر في كتابنا «غزوة بدر الكبرى» في موطنها.



البكرين والقرشيين بعض المقاومة وقضى عليها في لمح البصر.

«ج» أما تهاون قريش في الإعداد والتهيؤ لمواجهة المسلمين، فهو سر حير كثيراً من خبراء الحرب والمهتمين بتتبع تاريخ الصراع بين الإسلام والوثنية في العهد النبوي .

فقريش رغم فشلها في الحصول على معرفة ميعاد تحرك الجيش النبوي من المدينة لغزوها، فإنها على يقين بأن غزوها أمر لا بد منه كما صارحها بذلك قائد جيشها العام أبو سفيان بن حرب، وذلك تأديباً لها على نقض الصلح الذي نقضته بغدورها بخزاعة حليف النبي ﷺ ولكنها لأسباب لا يدري أحد معرفتها بالتحديد، لم تقم بأي حشد أو أي استعداد لمواجهة الغزو المحتمل بل الذي لم تشك لحظة في أنها ستعرض له، بل ظل زعماءها وقادتها يدورون في حلقة مفرغة حتى داهم الجيش النبوي ضواحي مكة بغتة.

ولعل أكبر خطأ ارتكبه قريش في سياستها العسكرية - من الناحية التعبوية - وهي تواجه التعرض لغزو إسلامي، هو أنها لم تتصل بهوازن العدو القوي الجبار ذي العدد والعد، والذي يشاركها الرغبة الملحة العارمة في القضاء على المسلمين، والذي هو جار لها لا تفصله عن حدودها مرمى سهم.

فلم يذكر أحد من المؤرخين أن قريشاً أجرت أي نوع من أنواع الاتصال بقبائل هوازن لإقامة تحالف عسكري تواجه به الجيش النبوي الذي تعرف قريش أن الصدام بينه وبينها ثم بينه وبين هوازن أمر محتم.

ولو أن قريشاً فعلت ذلك لتغير مجرى الصراع بين الفريقين، ولكن قريشاً لم تفعل شيئاً من ذلك، راجع إلى أن بين قريش وهوازن عداوات قبلية مستحكمة منذ حرب (الفجار الشهير) التي نشبت بين كنانة (ومنها قريش) وبين قيس عيلان ومنها (هوازن).

وعلى العموم فقد كفى الله المؤمنين شر القتال، وتمت السيطرة على مكة للمسلمين دوغما قتال يذكر، وذلك لخير أراده الله بالمسلمين وقريش على السواء.

إذا لم تمض عدة أشهر على فتح مكة حتى أصبح كل أهلها مسلمين مغتبطين سعداء باعترافهم الدين الجديد، حتى ألد أعداء النبي ﷺ عكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو، وصفوان بن أمية وأبو سفيان بن حرب وعبد الله بن سعد بن أبي سرح، واغتبطوا

بدخولهم في الإسلام وصاروا سادة وقادة من سادة وقادة المسلمين، وتلك من أميز مميزات سماحة الإسلام الذي (كما قال الصادق المصدوق عليه السلام) يَجِبُ ما قبله.

أما هوازن الخضم الأعظم قوة والأشد شراسة في القتال والوحيد العنيد المتبقي على عدائه السافر العارم للإسلام فلم تسلك مسلك قريش في التراخي في المواجهة، بل سارع قائدها مالك بن عوف وحشد عشرين ألف مقاتل، وقرر أن ينقل المعركة إلى مكة لإخراج المسلمين منها والحلول في منصب قيادة العرب فيها محل قريش التي استسلمت للمسلمين دوغماً حرب، فتحركت فخاند هوازن من أطراف نجد ومناطق الحجاز بجيش لجب في اتجاه مكة فسارع الرسول القائد عليه السلام وخرج بجيشه من مكة لملاقاتها فاصطدم بها في وادي حنين، حيث دارت تلك المعركة التاريخية الطاحنة التي جاء ذكرها في القرآن الكريم، والتي ستكون موضوع كتابنا التالي إن شاء الله وهو الكتاب التاسع من (معارك الإسلام الفاصلة).

«د» أما تخلخل عقيدة الوثنية في نفوس القرشيين فذاك أمر قد بدا واضحاً منذ يوم صلح الحديبية الذي كان فيه أول المتأثرين بعقيدة الإسلام ومعجباً بفعاليتها في احتواء المسلمين وضبط سلوكهم وطيب سمعتهم وتحقيق وحدتهم الصحيحة المتكاملة والتعريض بالقرشيين وعقيدتهم الوثنية، كان أول المتأثرين حليف قريش ورسوله إلى المسلمين عروة بن مسعود الثقفي<sup>(١)</sup> الذي قال لزعماء قريش في تقريره الذي قدمه لهم عن واقع المسلمين يوم أن زارهم (مندوباً في الحديبية)، «يا معشر قريش إني قد وفدت على الملوك، على كسرى وهرقل والنجاشي وإني والله ما رأيت ملكاً قط أطوع فيمن هو بين ظهرائه من محمد في أصحابه، والله ما يجدون إليه النظر، وما يرفعون عنده الصوت، وما يكفيه إلا أن يشير إلى أمر فيفعل، وقد حزرت القوم واعلموا: إن أردتم السيف بذلوه لكم، وقد رأيت قوماً ما يبألون ما يصنع بهم إذا ما منعوا صاحبهم، والله لقد رأيت (نسيات) معه إن كن ليسلمنه أبداً على حال، فروا رأيكم<sup>(٢)</sup>».

وكذلك حويطب بن عبد العزى أحد أعضاء وفد قريش في مفاوضات صلح

(١) أسلم هذا السيد المفضل، انظر ترجمته في كتابنا (صلح الحديبية).

(٢) انظر كتابنا «صلح الحديبية».

الحديبية التاريخي أدلى بتصريح يدل على التأثير البالغ بواقع المسلمين والتخلخل في ثقة المشركين بأنفسهم وعقيدتهم واقتناعهم بأن الغلبة في أي صراع قادم إنما ستكون «ولابد للعقيدة الإسلامية».

فقد قال حويطب بن عبد العزى - وهو ينظر إلى المسلمين في الحديبية من خلال واقعهم المشرف - قال لزميله في وفد قريش، مكرز بن حفص: «ما رأيت قومًا قط أشد حبا لمن دخل معهم من أصحاب محمد لمحمد وبعضهم لبعضن أما أني أقول لك: لا تأخذ من محمد نصفًا أبدًا بعد هذا اليوم، حتى يدخلها «يعني مكة» عنوة»<sup>(١)</sup>، فقال مكرز: أنا أرى ذلك»<sup>(٢)</sup>.

بل لقد تطور هذا التأثير بواقع المسلمين والإعجاب بعقيدتهم «عقيدة التوحيد» إلى أن يحدث الانشقاق بين سادات مكة أنفسهم والصلح قائم قبل فتح مكة، فيدخل بعضهم طوعًا واختيارًا في الإسلام ويذهب إلى المدينة ويلتحق بمعسكر الدين الجديد، فيحدث بذلك خسفًا شديدًا في الأرضية المتداعية التي يقف عليه بنيان الوثنية في نفوس زعماء مكة قبل دهمائها.

هذا خالد بن الوليد قائد سلاح الفرسان القرشي، وعمرو بن العاص رجل قريش السياسي الذي لا يباري، وعثمان بن طلحة قائد لواء قريش، كلهم يذهبون بأنفسهم إلى المدينة «قبل أن تقع مكة في قبضة الإسلام»، فيعلنون إسلامهم بين يدي الرسول ﷺ.

ولا أدل على تخلخل العقيدة الوثنية وشعور سادات مكة أنفسهم بقرب اضمحلال هذه العقيدة من التصريحات التي أدلى بها بعضهم عند الصفا، على أثر المشادة التي حدثت بين أبي سفيان بن حرب وبين خالد بن الوليد - عندما وقف خالد على الصفا يصارح قريشًا بأن دين الإسلام هو الحق.

فقد وقف خالد - بعد عمرة القضاء وقبل فتح مكة - وقف على الصفا ونادى «بشجاعة خالد المعروفة»: «يا معشر قريش لقد استبان لكل ذي لب أن محمدًا ليس

(١) العنوة: أخذ الشيء قوة واقتدارًا.

(٢) انظر كتابنا «صلح الحديبية».

بساحر، ولا كذاب وأن كلامه من كلام رب العالمين فحق على كل ذي لب أن يتبعه» فغضب لذلك أبو سفيان وهجم على خالد مستنكرًا قوله فحجز بينهما عكرمة بن أبي جهل وخاطب أبا سفيان في لهجة تدل على الشعور بقرب نهاية الوثنية في مكة: «دعه يا ابن حرب فإني أخشى أن لا يأتي العام القادم إلا وقد فعلنا كلنا مثل فعل خالد أو كما قال»<sup>(١)</sup>.

«هـ» أما بقاء قريش وحدها في ميدان مواجهة المسلمين، فهذا أمر كان قائمًا عندما تحرك النبي ﷺ بجيشه من المدينة، فكل قبائل الحجاز قد دخلت في الإسلام تقريبًا، ولم يبق قبيلة لها وزنها الحربي (بعد قريش) سوى قبيلة هوازن ومنها ثقيف، ولكن قريشًا لم تستفد من موقف هوازن، حيث لم تجر معها أي اتصال لإجراء أي تنسيق معها لمواجهة المسلمين. ولهذا تمكنت قوات الإسلام، من إخضاع الواحدة بعد الأخرى على انفراد، حيث لم يمحض على سيطرة المسلمين على مكة نصف شهر حتى اصطدمت قواتهم خارج مكة بعشرين ألفًا من قوات هوازن في وادي حنين، فنزلت بهوازن تلك الهزيمة الساحقة، ودخل سيد هوازن مالك بن عوف نفسه في الإسلام، ثم دخلت ثقيف، وبذلك انتهت المقاومة الوثنية في جميع مناطق الحجاز.

(١) انظر هذه القصة مطولة في كتابنا السابع من هذه السلسلة (غزوة مؤتة) قصة إسلام خالد وعمرو بن العاص.



- المسلمين في انسحابهم ١٢٨٠ هل انتصر المسلمون في مؤتة أم
- ١٢٨٢ المظاهرة في المدينة ضد الجيش انهزموا؟ ١٣٠٨
- ١٢٨٣ أثر مقتل جعفر على رسول الله ما حدث في مؤتة هو فتح للمسلمين
- ١٢٨٤ محبة النبي ﷺ الشديدة لجعفر دون شك ١٣٠٩
- ١٢٨٥ بكاء رسول الله ﷺ لموت جعفر رأي ابن كثير في هزيمة المسلمين
- ١٢٨٦ أولاد جعفر الصغار وانتصارهم ١٣١٠
- ١٢٨٦ فضل أمراء معركة مؤتة الثلاثة تحقيق المقام في أن ما قام به خالد في
- ١٢٨٧ غزوة ذات السلاسل مؤتة نصر لا مثيل له ١٣١٣
- الاستخبارات النبوية تبلغ الرسول نبأ أعلى وسام في الدولة تمنحه بريطانيا للغزو ١٢٨٨
- ١٢٨٩ عمرو بن العاص القائد للقائد الذي نجح في الانسحاب من دان كرك ١٣١٣
- ١٢٩٠ الجيش يتحرك من المدينة دروس من معركة مؤتة نظرة وتحليل ١٣١٤
- ١٢٩٠ ابن العاص يطلب النجدة من المدينة نظرة وتحليل كيف انتصرت العقيدة النجدة تتحرك من المدينة لإسناد في مؤتة ١٣١٥
- ١٢٩٢ عمرو ابن العاص خرافة التفوق التكنولوجي ١٣٢٠
- ١٢٩٢ اختلاف أبي عبيدة وعمرو لماذا انهزم العرب وانتصر اليهود في
- ١٢٩٣ وقفه اعتبار حزيران ١٣٢١
- ١٢٩٥ الغزوة تحقق أهدافها
- ١٢٩٦ عودة ابن العاص المنتصر إلى المدينة
- ١٢٩٧ البشير بالنصر إلى المدينة
- ثناء الرسول على أبي عبيدة لسماحة خلقه ١٢٩٧
- ١٢٩٧ النبي يقر كل تصرفات القائد
- ١٢٩٨ نصيحة لابن لا بد من سماعها
- ١٢٩٩ قتلى الفريقين في معركة مؤتة
- ١٣٠٢ استدراك وتعقيب عقب صلح الحديبية ١٣٤٠
- ١٣٢٧ تقديم الكتاب
- ١٣٣٣ كلمة المؤلف
- ١٣٣٩ الفصل الأول
- ١٣٣٩ مجمل الأحداث العسكرية
- والسياسية والتشريعية بين غزوة مؤتة
- ١٣٣٩ وفتح مكة
- ١٣٣٩ ثوار المستضعفين في العيص
- ١٣٣٩ امتحان آخر يواجهه الرسول ﷺ
- ١٣٤٠ عقب صلح الحديبية

١٣٤٠	الثائر الأول على مشركة مكة	١٣٤٠	كيف رضيت قريش بعدم إرجاع
١٣٤١	النبي ﷺ يسلم أبا بصير لقريش	١٣٥٦	النساء
١٣٤٢	كيف يصنع الإيمان الراسخ	١٣٥٧	تطبيق النساء المشركات
١٣٤٤	أبو بصير يقتل حارسه	١٣٥٧	التزوج من الكتابيات
	التحاق المستضعفين المسلمين بالثائر	١٣٥٨	سرية الخطب
١٣٤٥	الأول في العيص	١٣٥٨	الكرم الأنصاري
١٣٤٦	ارتفاع عدد الثوار	١٣٦٠	قصة الحوت العظيم
١٣٤٦	أبو بصير قائد الثورة	١٣٦١	سرية أبي قتادة إلى خضرة بنجد
١٣٤٦	سيطرة الثوار على طريق القوافل	١٣٦٢	مدى قوة الإسلام وانحسار قوة الوثنية
١٣٤٦	موقف المدينة من ثوار العيص	١٣٦٣	الفصل الثاني:
١٣٤٧	استقلال الثوار في العيص	١٣٦٣	أسباب فتح مكة المكرمة
١٣٤٧	حكومة العيص المستقلة	١٣٦٤	انحياز خزاعة إلى المسلمين
١٣٤٨	شروط هم اشترطوه فعاد عليهم بالوفاة	١٣٦٤	وفاء المسلمين بالعهد
	برلمان قريش يبحث في أمر الثورة في		كيف نقضت قريش العهد فغزاهم
١٣٤٩	العيص	١٣٦٥	المسلمون
	قريش تلتمس من الرسول إلغاء		اشترك القرشيين في جريمة الغدر
١٣٤٩	الشرط الذي أصرت عليه	١٣٦٧	والنكث
١٣٥٠	أبو سفيان في المدينة		المشركون من سادات مكة في نقض
١٣٥٠	انتهاء ثورة العيص	١٣٦٨	العهد
	قائد الثوار يموت وهو يقرأ كتاب	١٣٦٨	تاريخ نقض صلح الحديبية
١٣٥١	رسول الله ﷺ	١٣٧٠	قريش تندم على ما ارتكبت ولكن
١٣٥٣	هجرة النساء بعد الحديبية		ينصح قريشاً بتحمل ديوات
	كيف يكون أثر الإيمان عندما	١٣٧١	قتلى خزاعة
١٣٥٤	يتمكن من النفوس		قريش تقرر إرسال مبعوثاً خاصاً
١٣٥٤	أول مسلمة تهاجر بعد صلح الحديبية	١٣٧٢	إلى المدينة
١٣٥٥	مطالبة المشركين بإعادة أم كلثوم	١٣٧٢	أبو سفيان مبعوث قريش في المدينة
	تسوية أمر النساء بالتراضي مع		
١٣٥٦	قريش		

- ١٣٩٢ النبي يجرد سرية للتعمية والتمويه  
حراسة الطرق ومنع السفر إلى مكة واحتجاز
- ١٣٩٢ المشتبه بهم  
البوليس الحربي يشدد الحراسة على
- ١٣٩٣ الطرق  
الصحابي الذي حاول إبلاغ قريش نبأ
- ١٣٩٣ الغزو ففشل  
النبي يحقق مع حاطب بن أبي بلتعة
- ١٣٩٥ النبي يأمر بحفظ القضية ويعفو عن حاطب  
استمرار خطة كتمان الزحف على مكة
- ١٣٩٦ عدد قوات الجيش النبوي المتحركة من المدينة  
نسبة عدد الأنصار والمهاجرين في الجيش
- ١٣٩٨ المتحرك من المدينة  
سلاح الثقليات في الجيش
- ١٣٩٩ حاكم المدينة بالنيابة  
تاريخ تحرك الجيش في المدينة
- ١٤٠٠ خروج الجيش على غير تعبئة  
الترخيص للجيش بالإفطار في رمضان
- ١٣٧٢ خزاعة تستنجد بحليفها الرسول ﷺ  
النبي: يطلب من قريش دفع ديات
- ١٣٧٤ قتلى خزاعة فترفض  
كيف عاد نقض العهد بالخير على
- ١٣٧٦ قريش؟  
أبو سفيان في المدينة يطلب تجديد
- ٣٧٧ الصلح  
التقاء أبي سفيان بوفد خزاعة
- ١٣٧٧ أبو سفيان في المدينة  
ابنة أبي سفيان تطرد أباهما
- ١٣٧٨ اتصالات أبي سفيان الثنائية بكبار  
الصحابة للتوسط عند الرسول
- ١٣٨٠ أبو سفيان يستعين بسعد بن معاذ  
عودة أبي سفيان خائباً إلى مكة
- ١٣٨٢ أول إشارة صريحة لغزو مكة  
أبو سفيان يبلغ قريشاً نتائج
- ١٣٨٢ رحلته  
الفصل الثالث: الرسول يقرر الزحف على
- ١٣٨٥ مكة المكرمة  
استشارة الرسول ﷺ خاصة
- ١٣٨٨ أصحابه وهيئة أركان حربه قبل  
الزحف
- ١٣٨٨ رسل النبي إلى القبائل لاستنفارها  
في المجلس الاستشاري أبو بكر يطلب الرفق
- ١٣٩١ بقريش وعمر يطلب الشدة  
التزام خطة الكتمان الشديدة
- ١٣٩١



- ١٤٠١ تعبئة الجيش وتوزيع الرايات والألوية  
١٤١١ طليعة الجيش النبوي
- ١٤٠١ قديد معسكر تجمع الجيش كله  
١٤١٢ سيد غطفان يلتحق بالرسول بعد خروجه من المدينة
- ١٤٠١ عدد ضباط الأوس وكتائبهم  
١٤١٣ الرسول ينهي عن قتل أبي سفيان بن حرب
- ١٤١٥ عدد كتائب المهاجرين وأسماء ضباطهم  
١٤٠٦ القبائل المنضمة إلى الجيش النبوي في الطريق إلى مكة
- ١٤١٥ كتائب قبيلة مزينة وضباطها  
١٤٠٧ قوات غفار في الجيش
- ١٤١٧ كتائب خزاعة وأسماء ضباطها  
١٤٠٧ قوات بني سعد وضمرة بن بكر في الجيش
- ١٤١٧ كتائب أسلم وعدد ضباطها  
١٤٠٨ المنضمون من بني ليث إلى الجيش الزاحف
- ١٤١٧ كتائب غفار وأسماء ضباطها  
١٤٠٨ المنخروطون في سلك جيش النبي من بني كعب
- ١٤١٨ كتائب ضمرة وسعد  
١٤٠٩ بنو سليم أقوى قوة قبلية تنضم للجيش النبوي
- ١٤١٨ كتائب بني ليث  
١٤٠٩ النبي يستعرض الجيش في قديد
- ١٤١٨ كتائب أشجع وضباطها  
١٤٠٩ فرسان بني سليم مقدمة الجيش
- ١٤١٩ مفرزة بني تميم  
١٤١١ تعبئة الجيش وتعيين القواد في قديد
- ١٤٢٠ استمرار الكتمان في التحرك  
١٤١٢ الطلائع ومقدمة الجيش

- ١٤٣٢  
العباس ينجح في استصدار العفو عن أبي  
سفيان
- ١٤٣٣  
أحرج ساعة في حياة أبي سفيان
- ١٤٣٣  
المشادة بين الفاروق والعباس في خيمة الرسول
- ١٤٣٤  
كيف حصل أبو سفيان على الأمان من  
الرسول
- ١٤٣٥  
أبو سفيان يبيت في خيمة العباس تحت الحراسة
- ١٤٣٦  
عودة إلى المنطلق
- ١٤٣٨  
القلق والشائعات في مكة
- ١٣٤٨  
حقق قريش على أبي سفيان
- ١٤٣٨  
التفكير النبوي الراحم
- ١٤٣٩  
محاولات إقناع أبي سفيان باعتراف  
الإسلام طوعاً
- ١٤٤٠  
التوتر في مكة يزداد
- ١٤٤١  
مكة مدينة مفتوحة
- ١٤٤٥
- ١٤٢٠  
خالد بن الوليد قائد مقدمة الجيش النبوي
- ١٤٢٠  
الرسول يسلك ناحية الطائف ثم يعرج على  
مكة لتضليل العدو
- ١٤٢٠  
هوازن تستعد لمصادمة المسلمين
- ١٤٢١  
قريش تقرر عدم المقاومة وتفوض أبا سفيان  
لطلب الأمان من الرسول
- ١٤٢٥  
لقد أراد الله خيراً بقريش
- ١٤٢٦  
العباس بن عبد المطلب يتخوف على  
قريش فينذر ساداتها وينصحهم  
بالاستسلام
- ١٤٢٧  
العباس يسعى لإيجاد مخرج لقريش
- ١٤٢٨  
التقاء العباس بصديقه أبي سفيان عند الأراك
- ١٤٢٨  
أبو سفيان يطلب المشورة من العباس
- ١٤٣٠  
أبو سفيان يتخوف القتل فيطمئنه العباس  
ويردده خلفه على بغلة الرسول
- ١٤٣١  
عمر بن الخطاب يحاول قتل أبي سفيان وهو  
في حماية العباس

- ١٤٦٢ نظام منع التجول الرسول يزرع أبا سفيان لمقالة قالها في أصحابه
- ١٤٦٣ الساعة الحاسمة في تاريخ مكة ١٤٤٦
- ١٤٦٣ منطقة القتال الوحيدة بمكة احتجاز أبي سفيان لفترة محدودة
- ١٤٦٤ خالد ينذر المقاومين ليشهد العرض العسكري
- ١٤٦٥ الرسول يستنكر القتال ١٤٤٦
- ١٤٦٥ هل كان قتلى معركة الخندمة سبعين؟ فرسان خالد أول من بدأ العرض
- ١٤٦٦ النبي يستجوب خالد بن الوليد ١٤٤٨ العسكري
- ١٤٦٦ قصة ابن حماس الدبلي ١٤٥٠ الرسول يختم العرض العسكري
- ١٤٦٧ النفر الذين أهدر الرسول ﷺ دمهم تأثير العرض العسكري في نفس أبي
- ١٤٦٧ الذين أعدمهم الجيش بمكة ١٤٥١ سفيان
- مقتل ابن خطل وهو متعلق بأستار ١٤٥٢ عودة أبي سفيان إلى مكة
- ١٤٦٨ الكعبة ١٤٥٢ المتطرفون يحاولون المقاومة
- ١٤٦٩ مقتل مقيس بن صبابه أبو سفيان في مكة يدعو قومه لإلقاء
- ١٤٦٩ العفو عن بقية المهذور دمهم ١٤٥٢ السلاح
- ١٤٧٠ الرسول القائد يعسكر عند الحجون أبو سفيان يدعو أهل مكة إلى الإسلام ١٤٥٣
- ١٤٧٠ التقاء الرسول بقائد الفرقة الثانية ١٤٥٤ المعارضون لأبي سفيان من قريش
- الرسول يتلو سورة الفتح وهو يدخل هند تدعو جماهير قريش إلى قتل
- ١٤٧١ مكة ١٤٥٥ زوجها أبي سفيان
- ١٤٧١ الرسول يدخل مكة غير محرم ١٤٥٥ توزيع القيادات استعدادًا لدخول مكة
- ١٤٧٢ إنما أنا ابن امرأة تأكل القديد الجهات التي دخلت منها فرق الجيش
- ١٤٧٢ الرسول يدخل مكة من البطحاء مكة ١٤٥٦
- ١٤٧٢ الحجون يلتقى فرق جيش الفتح من أين دخل الرسول مكة؟ ١٤٥٧
- ١٤٧٣ المشركان اللذان أجارتهما أم هانئ الأوامر المشددة بعدم استخدام السلاح
- ١٤٧٦ الرسول يدخل وجيشه المسجد في مكة ١٤٥٨
- تخطيم الأصنام وإنهاء الوجود ١٤٥٨ العرض العسكري في ذي طوى
- ١٤٧٨ الوثني ١٤٥٩ اعتدال ميزان القوى
- ١٤٧٩ محو الصور هكذا تكون ثمار الثبات على العقيدة ١٤٦٠
- ١٤٨٠ الرسول يصلي في الكعبة كيف دخل الجيش النبوي مكة ١٤٦٢

- ١٤٨٠ أعلام النبوة تتحقق
- ١٤٨٠ قصة استلام مفاتيح الكعبة
- ١٤٨٢ رفع نظام منع التجول في مكة
- ١٤٨٢ شعار التوحيد في مكة إلى الأبد
- ١٤٨٢ إذن بخزيرك الله
- المسلمون يقيمون ليلة الفتح بالطواف والتكبير
- ١٤٨٣
- ١٤٨٤ خبر استيلاء إبليس لفتح مكة
- ١٤٨٤ خطبة الرسول التاريخية يوم الفتح
- ١٤٨٤ ماذا ترون أني فاعل بكم
- ١٤٨٤ العفو العام عن أهل مكة
- ١٤٨٥ المراسيم التشريعية الجديدة
- ١٤٨٦ تحديد دية القتل خطأ
- إعلان وحدة الجنس البشري والتساوي في الحقوق
- ١٤٨٦
- ١٤٨٧ تحريم الاصطياد وعضد الشجر في الحرم
- ١٤٨٨ طي بساط الشرك والوثنية
- ١٤٨٨ محمد أشرف فاتح وأكرم محارب
- ١٤٨٩ الطمانينة بعد القلق
- ١٤٩٠ النبي على الصفا
- تحوف الأنصار أن يقيم الرسول ﷺ بمكة ويترك المدينة
- ١٤٩١
- ١٤٩٢ مبايعة أهل مكة على الإسلام
- بيعة النساء وقصة إسلام هند بنت عتبة
- ١٤٩٢
- ١٤٩٣ النبي ﷺ يعفو عن هند بنت عتبة
- ١٤٩٣ صيغة بيعة النساء
- ١٤٩٤ الإسلام يجب ما قبله
- ١٤٩٥ هند بنت عتبة تحطم صنمًا في بيتها
- ١٤٩٥ الرسول يقبل الهدية من هند ويدعو لها
- ١٤٩٦ المختفون في مكة يوم الفتح
- ١٤٩٦ الفارون من مكة يوم الفتح
- ١٤٩٧ قصة اختفاء سهيل بن عمرو وإسلامه
- ١٤٩٨ قصة عبد الله بن سعد بن أبي سرح
- ١٥٠١ معركة ذات الصواري البحرية
- ١٥٠٢ فرار صفوان بن أمية ثم إسلامه
- ١٥٠٤ كيف أسلم عكرمة بن أبي جهل
- ١٥٠٤ فرار عكرمة إلى اليمن
- أم حكيم تحصل لزوجها عكرمة
- ١٥٠٤ على الأمان من رسول الله ﷺ
- قيام الرسول ﷺ لعكرمة فرحًا بإسلامه ١٥٠٦
- ١٥٠٦ عكرمة المهاجر المجاهد
- ١٥٠٧ قصة الهارب هبار بن الأسود
- ١٥٠٩ إسلام ابن الزبير
- هروب حويطب بن عبد العزى
- ١٥١٠ وإسلامه
- هل جدد الرسول ﷺ نكاح الذين أسلموا وزوجاتهم
- ١٥١١
- النبي ﷺ يعفو عن وحشي قاتل عمه حمزة
- ١٥١٢
- النبي يستلف من أغنياء مكة ليخفف من ضائقة أصحابه المالية
- ١٥١٢
- غضب الرسول لقتل رجل مشرك من هذيل بمكة يوم الفتح
- ١٥١٣
- ١٥١٥ الخاتمة- نظرة وتحليل

- ١٥٦٩ استخبارات الرسول في ديار هوازن غزوة حنين
- ١٥٧٠ التقرير عن حالة هوازن الحربية المقدمة ١٥٢٧
- ١٥٧١ تحرك هوازن صوب مكة كلمة المؤلف ١٥٣٠
- القائد العام لهوازن لم يستفد من الفصل الأول : مجمل الأحداث بين
- ١٥٧٢ خبرة المجرب دريد بن الصمة فتح مكة وغزوة حنين ١٥٣٣
- ١٥٧٩ استعارة الرسول السلاح من المشركين جيوب المقاومة حول مكة قبل هوازن ١٥٣٣
- تاريخ تحرك الجيش النبوي من مكة إلى سرية المشلل عام ثمان للهجرة ١٥٣٤
- ١٥٨١ حنين حملة هدم العزى ٢٥ رمضان سنة ثمان للهجرة ١٥٣٥
- محاولة اغتيال الرسول ﷺ في الطريق حملة يللملم أواخر رمضان سنة ثمان للهجرة ١٥٤٠
- ١٥٨٧ إلى حنين حملة عرنة أواخر رمضان سنة ثمان للهجرة ١٥٤٠
- الاستخبارات ودورها في كل من حملة عرنة أواخر رمضان سنة ثمان للهجرة ١٥٤٠
- ١٥٩٠ الجيش النبوي والهوزني غزوة بني جذيمة أواخر رمضان ١٥٤١
- ١٥٩٢ كيف عبأ النبي ﷺ الجيش حقيقة موقف خالد من قتل بني جذيمة ١٥٤٤
- ١٥٩٤ جدول بأسماء القادة في حنين الرسول يرضى عن خالد بعد أن غضب عليه ١٥٤٥
- ١٥٩٦ الخيل في مقدمة الجيش النبوي الفصل الثاني: من هم هوازن؟ : ١٥٤٩
- ١٥٩٧ كيف عبأ مالك هوازن هوازن وحرب الفجار ١٥٥٠
- الفصل الرابع: نشوب المعركة وهزيمة المسلمين نظرة العرب إلى قريش ١٥٥٧
- ١٦٠١ كمائث المشركين تكسر المسلمين هوازن تشعر بالخطر ١٥٦٠
- ١٦٠٢ محاولة اغتيال الرسول ﷺ ساعة استعداد هوازن للزحف على مكة ١٥٦١
- الهزيمة تنصيب مالك بن عوف قائداً لهوازن ١٥٦٢
- ١٦٠٩ ثبات الرسول القائد ساعة الهزيمة الفصل الثالث: الحالة بين هوازن وقريش بعد ظهور الإسلام: ١٥٦٥
- ١٦١١ الامتحان العظيم شأن المائة الصابرة مع الرسول أسلوب قائد هوازن في التعبئة ١٥٦٥
- ١٦١٦ شأن المائة الصابرة مع الرسول أول انشقاق في جيش هوازن ١٥٦٦
- ١٦١٩ استبسال قائد هوازن

- ١٦٦٠ الشهداء في حصار الطائف
- ١٦٦١ طريق الرسول ﷺ إلى مكة
- ١٦٦٣ قصة سراقه بن مالك بن جعشم المثيرة
- ١٦٦٤ وقفة فقهية
- هل استسلمت ثقيف لوحداث
- ١٦٦٥ من جيش الرسول ﷺ
- ١٦٦٧ الغنائم والسبي في الجعرانة
- ١٦٦٨ الأعراب يلحون في تقسيم السبي والغنائم
- ١٦٧٠ قسمة الغنائم بين الجيش
- الأعراب يلحون في تقسيم السبي
- ١٦٦٨ والغنائم
- ١٦٧٠ قسمة الغنائم بين الجيش
- الرسول يعطي مئاة الإبل للمؤلفة
- ١٦٧٣ قلوبهم ويزيدهم
- ١٦٧٤ حكيم بن حزام الزاهد
- ١٦٧٤ عتاب العباس بن مرداس للرسول ﷺ
- ما قاله بعض المنافقين أثناء تقسيم
- ١٦٨١ الغنائم
- ١٦٧٧ عتاب الأنصار للرسول بشأن الغنائم
- الرسول يناقش الأنصار حين عاتبوه
- ١٦٨٠ بشأن الغنائم
- ١٦٨٤ الرسول ﷺ يجر سبأيا هوازن
- ١٦٨٥ وفد هوازن بين يدي الرسول ﷺ
- ١٨٩٦ النبي يعلن العفو عن مالك بن عوف
- ١٦٩٠ قائد المشركين يتحول إلى قائد المسلمين
- ١٦٩٢ إسلام صفوان بن أمية
- ١٦٩٣ عودة الرسول ﷺ إلى المدينة
- ١٦٩٥ أمير مكة الشاب القوي الصالح
- ١٦٩٦ إسلام ثقيف
- ١٦٢٠ المعجزة السماوية يوم حنين
- ١٦٢٤ امرأة تطلب إعدام المنهزمين
- ١٦٢٥ حكم الفارين من الزحف
- كلام الذين أسلموا ولما يدخل
- الإيمان في قلوبهم
- ١٦٢٥ كيف كانت هزيمة هوازن
- ١٦٢٦ مقتلة ثقيف وقتل قائدها
- ١٦٢٨ الفصل الخامس : مصرع الفارس
- المعمر دُرَيْدُ بن الصَّمَّة
- ١٦٣١ مصر القائد العام لهوازن
- ١٦٣٤ الرسول ينهي عن قتل النساء والأطفال
- ١٦٣٥ تصفية جيوب المقاومة
- ١٦٣٦ الغنائم العظيمة
- ١٦٣٨ ثقيف عند ظهور الإسلام
- ١٦٤١ النبي يتحرك إلى الطائف
- ١٦٤٣ بداية الحصار
- ١٦٤٤ محاولة المسلمين اقتحام حصن
- الطائف
- ١٦٤٦ فشل الهجوم القدائي على حصن
- الطائف
- ١٦٤٧ خروج بعض مقاتلي ثقيف من
- الحصن وإسلامهم
- ١٦٤٨ تصرفات عيينة بن حصن سيد غطفان
- ١٦٥٠ خالد بن الوليد يطلب المبارزة
- ١٦٥٢ الرسول يأمر بإتلاف بساتين ثقيف
- ثم يعدل عن ذلك
- ١٦٥٣ فك الحصار على الطائف
- ١٦٥٤ دعاء النبي ﷺ لثقيف
- ١٦٥٩

- ١٦٩٧ ثقيف تقتل سيدها بعد إسلامه
- ١٧٠٢ ثقيف كلها تدخل الإسلام
- ١٧٠٨ شروط مرفوضة يشترطها وفد ثقيف لإسلامهم
- ١٧١٣ أمير ثقيف منهم
- ١٧١٤ هدم الطاغية اللات وما صاحبه من متاعب
- ١٧٢٣ لفصل السادس نظرة وتحليل
- ١٧٢٣ قتلى الفريقين في معركة حنين
- ١٧٢٩ دروس من حنين
- ١٧٢٩ أسباب هزيمة المسلمين في البداية
- أهم أسباب انتصار المسلمين بعد انهزامهم
- ١٧٣٢ أسباب هزيمة انهيار هوازن الساحقة بعد انتصارها
- ١٧٣٦ أسباب فشل المسلمين حصار الطائف
- ١٧٤١ انهيار الوثنية في جزيرة العرب
- ١٧٤٢ غزوة تبوك
- ١٧٤٧ كلمة المؤلف
- الفصل الأول: مجمل الأحداث العسكرية بين غزوة حنين وغزوة تبوك
- ١٧٤٩ الحملات العسكرية بعد حنين والطائف ١٧٥١
- ١٧٥١ حملة تأديب بني تميم
- ١٧٥٣ خزاعة تطرد بني تميم من بلادها
- ١٧٥٤ حملة لتأديب خثعم
- ١٧٥٥ سرية بني كلاب
- ١٧٥٦ حملة علقمة المدلجي البحرية
- ١٧٥٨ سرية علي إلى طيبء
- ١٧٦٢ كيف هرب عدي بن حاتم إلى الشام
- ١٧٦٥ إسلام كعب بن زهير الشاعر
- ١٧٧١ الفصل الثاني : ما هي تبوك؟
- ١٧٧١ تاريخ قبائل الشمال
- ١٧٧٦ كيف حشد الرسول جيشه
- ١٧٧٨ الاستنفار العام بين المسلمين
- ١٧٨٠ أغنياء الصحابة يتبرعون للجيش
- ١٧٨٣ اشتراك النساء في التبرع
- ١٧٨٣ عناصر التخريب تتحرك في المدينة.
- ١٧٨٥ نماذج من تصرفات المنافقين
- ١٧٩٣ تدمير وكر تأمر المنافقين
- ١٧٩٥ تكامل حشد الجيش والترتيبات الإدارية
- ١٧٩٦ أمير المدينة بالنيابة
- ١٧٩٧ شأن البكائين المؤمنين
- الفصل الثالث : الجيش يتحرك نحو الشمال:
- ١٨٠١ سلاح الفرسان في الجيش
- ١٨٠٤ الأربعة المؤمنون المتخلفون
- ١٨٠٦ الطريق الذي سلكه الرسول
- ١٨٠٩ المنافقون في الجيش
- ١٨١٢ المرور بديار ثمود
- ١٨١٥ العناصر المشبوهة داخل الجيش
- ١٨٢٠ أول من حدا من العرب بالإبل
- ١٨٢٠ نصرة أهل اليمن للإسلام
- ١٨٢١ النبي يصلي مأمومًا

- ١٨٦٩ تاريخ القدوم من تبوك
- ١٨٧٠ وفاة زعيم المنافقين ابن أبي
- ١٨٧٣ القرآن والمنافقون
- ١٨٧٥ سيطرة الإسلام على جزيرة العرب
- ١٨٧٧ الفصل الخامس
- ١٨٧٧ نزول القرآن بفريضة الحج
- ١٨٧٩ الإنذار الذي تلقاه المشركون
- ١٨٨١ حملة خالد بن الوليد إلى نجران
- ١٨٨٥ سرية علي بن أبي طالب إلى اليمن
- ١٨٨٧ إسلام كعب الأحمري
- ١٨٨٨ عام الوفود وتكامل الإسلام.
- ١٨٩٠ الوفود
- ١٨٩٠ سيطرة الإسلام الكاملة على جزيرة العرب
- ١٩٣٤ وفود ذي الكلاع الحميري
- ١٩٣٤ تجميع الزكاة
- ١٩٣٥ حجة الوداع
- ١٩٣٥ النبي لم يحج حجة الإسلام في العمر إلا مرة
- ١٩٣٨ النبي يكسو الكعبة في حجته
- ١٩٣٩ صلاة أهل مكة خلف النبي
- ١٩٤٢ هل وجه المرأة عورة؟
- ١٩٤٢ النبي ﷺ في منى
- ١٩٤٢ خطبته يوم العيد يوم الحج الأكبر
- ١٩٤٥ النبي يخطب ثانية بمنى
- ١٩٤٦ عودة الرسول إلى المدينة
- ١٩٤٨ الأمر بتجهيز جيش أسامة
- ١٩٤٩ ظهور الردة في حياة النبي
- ١٨٢١ وقفة تشريعية
- ١٨٢٢ الوصول إلى تبوك
- ١٨٢٢ الحرس النبوي في تبوك
- ١٨٢٤ من هو الشهيد في سبيل الله
- ١٨٢٥ قصة الجني الذي تمثل في شكل حية
- ١٨٢٦ النبي يصلي بعد طلوع الشمس
- ١٨٢٦ خطبة أشبه بخطبة الوداع
- ١٨٢٨ الإيمان يمان
- ١٨٢٨ الرسول يتحدث عن فضل الخيل
- ١٨٢٩ من التربية النبوية
- ١٨٣٠ لا أثر للرومان على الحدود
- الفصل الرابع : سيطرة المسلمين جنوب الشام:
- ١٨٣٣ فتح دومة الجندل
- ١٨٣٦ خالد يتحرك من تبوك
- ١٨٣٨ كيف استسلمت القلعة
- ١٨٣٩ هل أسلم أكيدر
- ١٨٤١ استشارة الرسول
- ١٨٤٣ المنافقون يحاولون اغتيال النبي ﷺ
- ١٨٤٣ كيف فشلت خطة المنافقين؟
- ١٨٤٩ المطالبة بإعدام المتأمرين
- ١٨٥١ قصة مسجد الضرار وهدمه
- ١٨٥٥ كاد الرسول أن يصلي في مسجد الضرار
- ١٨٥٨ قصة الثلاثة الذين تخلفوا
- ١٨٦٣ كعب بن مالك يتحدث عن مأساته
- ١٨٦٥ ملك غسان يتصل بكعب بن مالك يغريه بالكفر
- ١٨٦٦ انتهاء المحنة بالتوبة